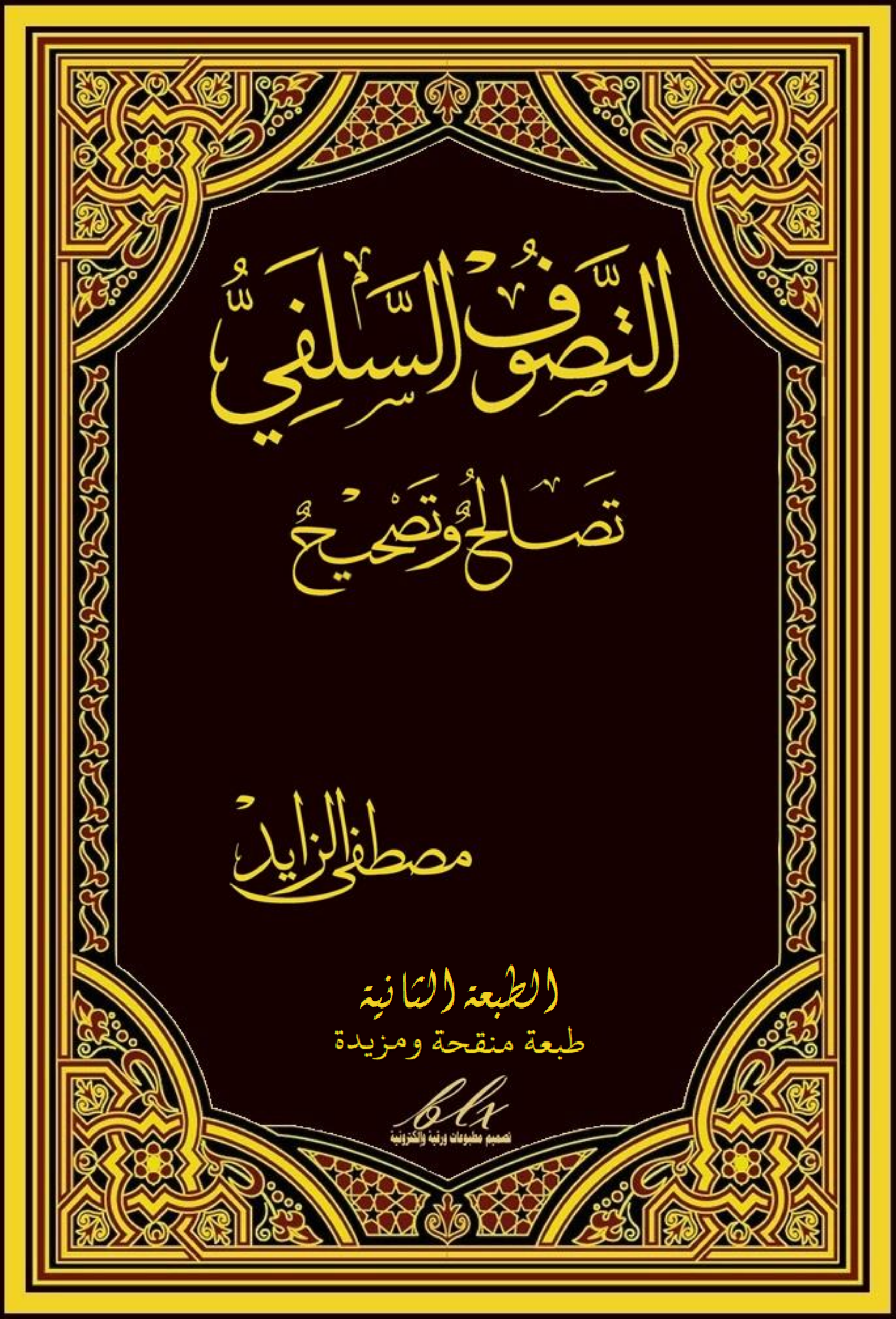


التصوف السلفي
تصالح وتصحيح
مصطفى الزايد
الطبعة الثانية
طبعة منقحة ومزيدة
تصميم مطبوعات ورقية والكترونية

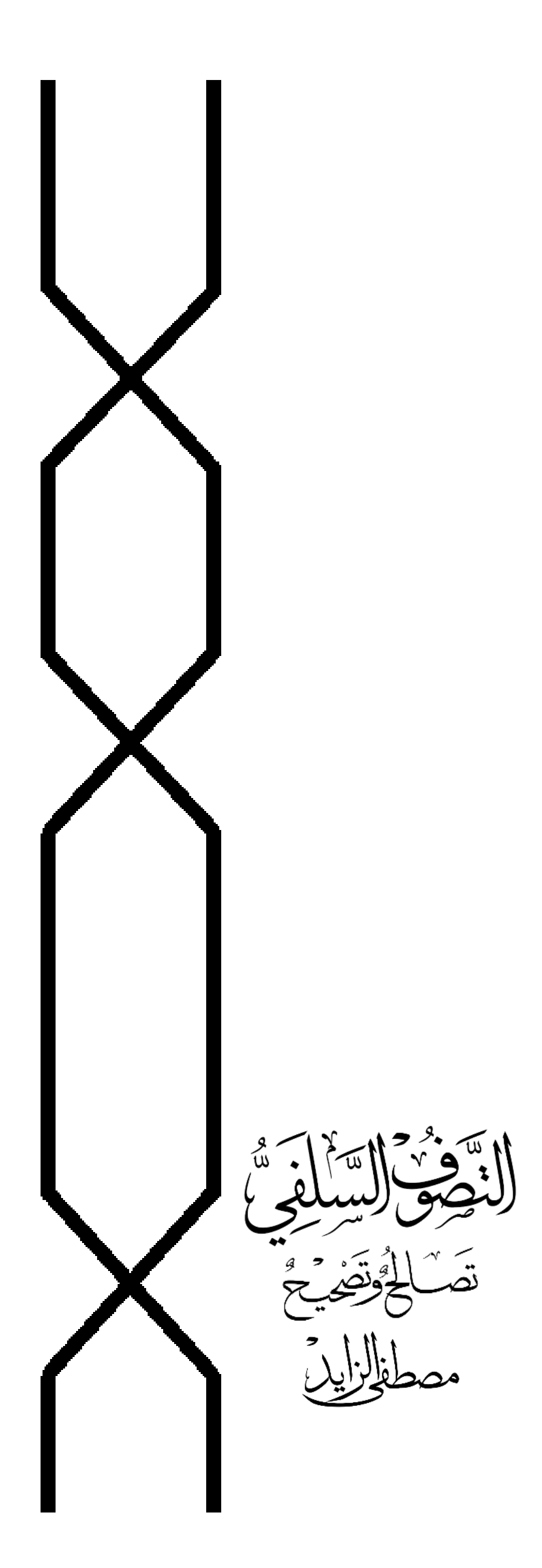
التصوف السلفي

تصالح وتصحيح

مصطفى الزايد

الطبعة الثانية
طبعة منقحة ومزيدة

اسم الكتاب: التصوف السلفي
تصالح وتصحيح
المؤلف: مصطفى الزايد
القطع: ١٧ × ٢٤
عدد الصفحات: ٤٤٠
السمة: نسخة إلكترونية
إصدار: المؤلف
١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م



التصوف السلفي

تصالح وتصحيح

مصطفى الزايد

الإهداء

إلى الراسخين في العلم، وأنقياء السرائر، ومبغضي الفُرقة،

الذين يرون في الإسلام جامعًا للأمة لا يفرق بين أبنائه

اختلاف ولا يشوه صفه تيار.



مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، وبعد، فلا بد لكل عمل إنساني أن يكون فيه نقص أو هنة، فالكمال لله وحده سبحانه، ولكلماته التامات، ولإبداعه المتفرد، فلا كمال لكتاب غير كتابه العظيم الذي قال فيه عز وجل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْرًا﴾[1]. **وبعد صدور الطبعة الأولى رأينا أن ثمة نقاطاً جديرة بالبحث لم نقف عندها، فألحقناها بالطبعة الثانية، إضافة إلى بعض الملاحظات التي تفضل بإرسالها إلينا عدد من الأساتيذ الفضلاء، بعد قراءتهم الكتاب، وهم:**

- **فضيلة الداعية الدكتور يحيى مصري، أستاذ النحو والصرف بجامعة حلب سابقاً، وإمام وخطيب مسجد في أمريكا.**
- **فضيلة الشيخ المهندس معقل الخالدي، المجاز في الشريعة الإسلامية من جامعة دمشق، ومدرس القراءات في معاهد التحفيظ.**

---

[1] سورة الإسراء: ٨٨.

❖ فضيلة الأستاذ جميل العبد الله، أستاذ اللغة العربية في مدارس دير الزور، والباحث في مجال التصوف.

فأجرينا التعديلات على الطبعة الثانية تبعاً لنصائحهم التي سدت بعض مواضع الخلل في الكتاب الذي لا أزعم أنه بلغ الكمال، جزاهم الله خير الجزاء على ما تقدموا به، وأسأل الله تعالى أن يجعلهم شركاء في ثواب هذا الجهد المتواضع.

مُقَدِّمَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، القائل في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٢]، **سبحانه وتعالى، القائل لنبيه** ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[٣]، **عزَّ وجلَّ القائل:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٤]، **وأفضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، وبعد... فإنه لَيَحُزُّ في نفس المسلم أن يرى أتباع دينه الواضح البيِّن الذي كنّى عنه نبيه خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد** ﷺ **بـ«البيضاء» التي وصفها بأنها «ليلها كنهارها» وحذّر بأنه «لا يزيغ عنها إلا هالك»**[٥]**، وكلهم يعلم ضرر التفرق شيعاً، والانشغال عما يفيد الأمة بتبادل الاتهامات ومحاولة إخراج الفرق بعضها بعضاً من الملة، ويتعدى ذلك**

---

[٢] سورة الأنبياء: ٩٢.

[٣] سورة الأنعام: ١٥٩.

[٤] سورة آل عمران: ١٩.

[٥] أخرجه أبو داود ٤٦٠٧، والترمذي ٢٦٧٦، وابن ماجه ٤٢، وأحمد ١٧١٤٤.

المجالسَ إلى المنابر، بل والكتب والمنشورات، غافلين عن تحذير الله سبحانه في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٦]**، وكلٌّ يظن أن الحقيقة عنده وحده، وأنه دون سواه على الصراط المستقيم، فلا يقبل من الطرف الآخر حقاً ولا عدلاً، حتى تنكَّر كلٌّ طرف لحسنات الطرف الآخر، كما رأينا في مقاطع منشورة شيخاً من أهل العلم يقول: «إن صلاح الدين الأيوبي كان أشعرياً منحرف العقيدة وكان على ضلالة»[٧] متناسياً أن صلاح الدين مجاهد بطل قضى على الدولة العبيدية الباطنية في مصر، وكانت عقيدة العبيديين شركيّة منحرفة أقرب إلى الوثنية، فمحاها محواً تاماً، ثم جاء بعلماء أشاعرة ناظروا علماء الدولة العبيدية وكشفوا عن بطلان عقيدتهم، ورسّخ العقيدة الأشعرية في مصر، وحسبُه أنه حرر بيت المقدس ومعظم بلدان المسلمين من أيدي الصليبيين، ولم يكن صلاح الدين العَلَمَ الأشعري الوحيد، فقد**

---

[٦] سورة الروم: ٣٠ - ٣٢.

[٧] https://www.youtube.com/watch?v=AacKjZw3xmU

كان ابن حجر العسقلاني أشعرياً، وكذلك كان الإمام النووي، والإمام جلال الدين السيوطي، والإمام القرطبي، فهل هذه الرموز العلمية والفكرية كلها على ضلال؟ في حين يقول شيخ سلفي آخر «إن الأشاعرة في دائرة الإسلام بالاتفاق»[٨]! ما يدل على أن هذه الأحكام إنما تصدر عن اجتهادات فردية لا عن تأصيل علمي، وقد نسب بعضهم إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قوله «الأشاعرة مخانيث المعتزلة» والحق أن شيخ الإسلام لم يقل هذا، وإنما نقله عن أبي إسماعيل الأنصاري[٩]، ولا شك أن ناقل الكفر ليس بكافر وإنما قال ابن تيمية «المعتزلة مخانيث الجهمية». وكذلك نرى شيخاً آخر على درجة عالية من العلم ينفي التصوف عن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ويقول: «التصوف والرفض وجهان لعملة واحدة»[١٠]، في حين يقول ابن الأثير عن صلاح الدين: «وكان يُحْضِر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له، فلا يقعد حتى يفرغ الفقير»[١١]، وذكر المقريزي أن صلاح الدين أول من أنشأ «خانقاه» للصوفية بمصر، ووقف عليها

---

٨ https://www.youtube.com/watch?v=fgXGWZJ561I
٩ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٨/٢٢٧.
١٠ https://www.youtube.com/watch?v=clWfy3ankTI
١١ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج١٠، ص٢٢٥..

أوقافاً كثيرة[١٢]، ولو كان التصوف والرفض وجهين لعملة واحدة لما قتل صلاح الدين الأيوبيُّ السهرورديَّ الحلبي - وهو غير شهاب الدين السهروردي - صاحبَ فلسفة «الإشراق»، الذي اتُّهم بالباطنية وبأنه إسماعيلي! وكيف يكونان وجهين لعملة واحدة والرافضة يكفّرون الصحابة رضي الله عنهم، ويلعنونهم، ويسبونهم، في حين يقول شيخ الطريقة الرفاعية الصوفية الشيخ أحمد الرفاعي، رحمه الله: «أفضل الصحابة سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، ثم سيدنا عثمان ذو النورين رضي الله عنه، ثم سيدنا علي المرتضى كرم الله وجهه ورضي عنه، والصحابة رضي الله عنهم كلهم على هدى... يجب الإمساك عما شجر بينهم، وذِكرُ محاسنهم، ومحبتهم، والثناء عليهم، رضي الله عنهم أجمعين، فأحِبُّوهم وتَبَرّكوا بذكرِهم، واعملوا على التخلق بأخلاقهم»[١٣]، فإذا أضفنا إلى ذلك أن فاتح القسطنطينية محمداً الفاتح رحمه الله كان صوفياً، وقد مدحه النبي ﷺ في الحديث المشهور: ﴿لَتُفتَحنَّ القُسطنطينيةُ، ولنِعمَ الأميرُ أميرُها، ولنعمَ الجيشُ ذلك الجيشُ﴾[١٤]، وإذا أضفنا إليهما شيخ الإسلام العزَّ بن عبد السلام صاحب المواقف المحمودة المشهودة في وجوه السلاطين

---

١٢ الخطط والآثار، للمقريزي، ج ٢، ص٤١٥.
١٣ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٢٣، ٢٤.
١٤ البخاري، التاريخ الكبير، ٢/ ٨١.

البغاة في دمشق، ثم في وجوه سلاطين المماليك في القاهرة، وفتاواه الجريئة، وجهاده ضد المغول، وكان صوفياً، وكذلك الشيخ المجاهد عمر المختار كان صوفياً من مشايخ الطريقة السنوسية، والأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله، كان من مشايخ الطريقة القادرية، والمجاهد عز الدين القسام من أتباع الطريقة القادرية أيضاً، وكذلك المجاهد عبد القادر الحسيني المنسوب إلى الشيخ الصوفي السلطان إبراهيم بن أدهم، كان مجازاً في الطريقة الشاذلية، وكل هؤلاء مجاهدون في سبيل الله يعدون رموزاً من رموز الأمة الإسلامية، إضافة إلى عدد ممن حملوا لقب «شيخ الإسلام»، من أمثال أبي إسماعيل الهروي، وأبي بكر البيهقي، وأبي إسحاق الشيرازي، وإمام الحرمين الجويني، وأبي حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي، والإمام النووي، والعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وتقي الدين السبكي، والإمام الشعراني، وجلال الدين السيوطي، وابن حجر العسقلاني، وابن حجر الهيتمى، يضاف إليهم العلماء الأعلام، مثل الذهبي، وابن الملقن، والمحاسبي، وابن عابدين، والشيخ علي المتقي، صاحب كنز العمال، وهؤلاء هم حملة الشريعة الذين ائتمنوا على تراث الأمة ويحتج بكتبهم وشروحهم ونقلهم كل المسلمين، وعلى رأسهم أتباع المدرسة السلفية، فهم الثقات الذين نقلوا لنا السنة المطهرة وكان منهم أئمة الجرح والتعديل،

ومعظمهم من الحفاظ الذين يروون الأحاديث الشريفة بأسانيدها ويبينون درجاتها وعللها على صدورهم، هذا غير أعلام التصوف من العلماء العاملين المشهود لهم بالتقوى، وعلى رأسهم شيخ الطائفتين الجنيد البغدادي، وعبد القادر الجيلي، وأحمد الرفاعي، ومعروف الكرخي، وشقيق البلخي، والسري السقطي، وبشر الحافي، والسلطان إبراهيم ابن أدهم، وغيرهم كثير ممن ذكرهم شيخ الإسلام ابن تيمية وأثنى عليهم وعلى مناهجهم، وبرّأهم من البدع والشرك وعدّهم من أولياء الله الصالحين.

فلمصلحة من يحصل الهجوم عليهم واتهامهم بالضلالة والباطنية ومحاولة إخراجهم من الملة؟ ألم يقاتلوا أعداء الإسلام نصرة للإسلام؟ ألم يكونوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقرون بكل ما جاء به نبينا محمد ﷺ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ونصحوا للأمة ولم يخشوا في الله لومة لائم، ومنهم من استشهد في سبيل الله، في حين كان الباطنية في كل عصورهم أعواناً لأعداء الإسلام على أهله؟ فبأي حجة نخرجهم من الملة ونكفرهم؟ أو لم يكن الأولى أن نسكت عنهم إن لم نذكر محاسنهم ومآثرهم وإنجازاتهم؟

وفي المقابل لم يسلم السلفيون من ردود فعل الصوفية أو المتصوفة

على حد سواء، وما زالت الاتهامات متبادلة، ونحن نأمل بهذا البحث أن نقرب وجهات النظر، ونبرز الحق في نزاهة لا تبخس حقاً ولا تخفي باطلاً، مستشهدين بأقوال أئمة السلف، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وبأئمة المنهج الصوفي وسلوكهم، وأقوال أئمة الفكر الإسلامي، وأن ننبه إلى الخطأ في أي طرف كان، لعل مَن كان على الخطأ يصحح، فيلتقي الطرفان على الأصول التي تجمعهما، وهي أكثر من المفرقات، ونسأل الله أن يجمع القلوب ويؤلف بين المسلمين، في هذا الوقت الذي أصبح أعداء الإسلام يتجمعون ويوحدون جهودهم ليرموهم عن قوس واحدة، فقد أصبح عدوهم المعلن هو الإسلام، الذي بدؤوا ينهشون أطرافاً منه بمسميات الفرق، زاعمين أنهم لا يقصدون الإسلام وإنما الفرقة الفلانية، فخرجوا علينا بمصطلحات لشق الصفوف، من مثل «إسلاميين» و«إسلامويين»، وحركوا أذنابهم ممن أضمروا العداء للإسلام من الملاحدة الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين بمسميات مختلفة تدّعي العلم أو التحضر والإصلاح الديني، ولم يعد لدى عاقل شك في أنهم بعد أن رأوا انتشار الإسلام السريع والمتوالي في الغرب، وأكدت دراساتهم أن أوربا وأمريكا مقبلتان بعد عقود قليلة على أن تصبحا مسلمتين بالغالبية أو بنسب عالية، فقدموا للعالم صنيعتهم تنظيم «داعش» لتشويه صورة الإسلام في عيون الغربيين،

وتشويه صورة النظام الإسلامي في عيون المسلمين أنفسهم، فأظهروا الإسلام بأنه قطعُ رؤوسٍ وحرقٌ وإغراقٌ ورجمٌ وجلدٌ وقطعُ أيدٍ وبترُ أصابع وسَبيُ نساء، لا نظامُ عدلٍ ورحمةٍ وإحسانٍ وبذلٍ وحَمْلِ الكَلِّ ونجدةِ المظلوم ورفعِ الظلمِ عنه، واحترام أديان الآخرين ومعتقداتهم، وتكريم الإنسان الذي كرمه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١٥]؛ **ولا شك في أنهم حين ينتهون من القضاء على فرقة سينتقلون إلى فرقة أخرى، فيثيرون النعرات بين الفرق ويحرضون بعضهم على بعض ويفتحون المنابر الإعلامية للجميع ليكفِّرَ بعضهم بعضاً، ويحصل التفكك في المجتمع المسلم من داخله ليسري فيه الضعف والتشرذم المبنيين على العداوة والبغضاء، وكما أثاروا من قبلُ النعرات القومية التي فرقت بين المسلمين على أسس عرقية؛ فعرب وأكراد وترك وغير ذلك، بدؤوا يبذرون الشقاق بين الأعراق والبلدان والتيارات الفكرية، ليثيروا النعرات بين الشعوب وبين الفرق، على أسس وطنية، أو على تغذية الصراع بين التيارات والفرق، ليلقوا بينهم العداوة والبغضاء، ويغروهم ببعضهم، فيسهل ابتلاعهم، وتعود قصة**

---

[١٥] سورة الإسراء: ٧٠.

الثيران الثلاثة من جديد لنقول: «كلنا قُتلنا يوم قتل أولنا»[١٦]!

١٦ لما قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إن مثلي ومثل عثمان كمثل ثيران ثلاثة أبيضُ وأحمرُ وأسودُ اجتمعت في غابة، فأتى أسد يريد أكلها، فاجتمعت عليه فناطحته حتى فرَّ، فأتى الأسد خلسة إلى الثورين الأسود والأحمر، وقال لهما: إن هذا الثور الأبيض لونه واضح من بعيد، ولا ريب أنه سيلفت أنظار الصيادين فيأتون فيأخذونكم جميعاً، ثم إنه يتباهى عليكما بلونه ويزاحمكما على المرعى، فقالا: وما الحل؟ قال: الحل أن تتركاني فآكله، وتنعمان بالأمان في غابتكما، فتركا له الثور الأبيض ليأكله وتخلّيا عن الدفاع عنه ونصرته، فأكله وهما يبصران. ثم أتى بعد مدة، فقال للثور الأسود: ألا ترى أن هذا الثور الأحمر لونه يلفت أنظار الصيادين، ولا بد أنهم سيأتون فيأخذونكما معاً، ثم إنه يتباهى عليك بلونه ويزاحمك على المرعى، ولو تركتني أخلصك منه لبقيت الغابة لك وحدك بمراعيها، ولونك الأسود يخفيك عن أعين الصيادين في ظل الغابة، فوافق الثور الأسود فترك الأحمر للأسد وتخلى عن نصرته، فأكله الأسد، فلما كان بعد مدة جاء الأسد ليأكل الثور الأسود، فلما رأى منه ذلك، قال له: اسمع أيها الأسد، أنت الآن ستأكلني، ولكن اعلم أنني أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض. ثم قال عليٌّ رضي الله عنه: «وأنا قُتِلتُ يوم قُتِلَ عثمان، إن الناس يظنون أنني كنت أريد قتل عثمان رضي الله عنه وأرضاه، ألا لَعَنَ اللهُ من قتل عثمان، لَعنَ اللهُ من أشار بقتل عثمان، لَعَنَ اللهُ من رضيَ بقتل عثمان.

تمهيد

ما هو التصوف؟

لو وجّهنا هذا السؤال إلى أربعة أشخاص، كل منهم ينتمي إلى شريحة اجتماعية مختلفة عن البقية، لوجدنا الإجابات الآتية:

أولاً: مثقف بعيد عن الدراسات الدينية، سيقول: التصوف حلقات رقص وسماع أناشيد تثير هياج المريدين فيغيبيون عن الوعي ويتشنجون ويتلفظون بكلام مفهوم وآخر غير مفهوم يزعمون أنه بلغة الأولياء، وآخرون يزعمون أنه بالسريانية، ويتعلقون بأشياخهم ويعدونهم معصومين، فيبررون أخطاءهم ويربطونها بأمور غيبية بينهم وبين الله سبحانه وتعالى لا نعلمها، وأتباعه اتّكاليون تركوا العلم والعمل وانصرفوا إلى الزهد والتقشف، يجتمعون على جفنات الطعام وموائد الأثرياء ليملؤوا بطونهم، ثم يقيمون طقوسهم بين إنشاد وذكر ورقص، فلا يُرجَون لإعمار دنيا ولا لنصرة دين!

ثانياً: متدين ينتمي إلى تيار مناوئ للتصوف، سيقول: الصوفية قوم منحرفو العقيدة، جاهلون في الفقه وعلوم الشريعة، يقيمون منهجهم على الشرك، ويعتقدون أن أشياخهم يعلمون الغيب ويتحكمون بالكون وقادرون على الإغاثة والنجدة والإعطاء والمنع والضر والنفع والوصل والقطع والتفريق والجمع، من الصفات

التي يختص بها الله سبحانه، سواءٌ أكان أولئك المشايخ أحياءً أم أمواتاً، وبذلك تراهم يعبدون القبور ويتمسحون بها ويسألون أصحابها قضاء حوائجهم، وخالفوا سنة النبي ﷺ إلى سنن مشايخهم وأقوال المجاذيب، وهم طلاب كرامات وخوارق، تركوا العمل في شبه رهبانية، وتركوا مجاهدة العدوِّ المحتل بلادَهم بحجة أنه قدر الله الذي سَلّط على العباد عدوَّهم بذنوبهم، ولَبّس عليهم الشيطانُ فحرفهم عن الصراط المستقيم، واستدرجهم فمنحهم بعض الخوارق ليتمسكوا بما هم عليه، وإذا قاموا إلى الذكر وهم يتمايلون تلبّست الشياطين بعضهم فصاروا يتشنجون، وينطق الشياطين بألسنتهم كلاماً بلغة لا يفهمها إلا الشياطين، ليلبِّس على الآخرين فيظنوا أن هؤلاء لهم خصوصية ورفعة مكانة، كما أن لمشايخهم الكبار شطحات لا توافق عقلاً ولا نقلاً، كالحلاج الذي صاح «أنا الحق»، ومحيي الدين بن عربي الذي يسمونه الشيخ الأكبر، وقد تناثرت في كتبه العبارات الموحية بالاتحاد (أي اتحاده مع الله) سبحانه وتعالى عما لا يليق به، أو بالحلول (أي حلول الله فيه) سبحانه وتعالى عما لا ينبغي له علواً كبيراً.

ثالثاً: صوفي جاهل، سيقول: التصوف اتّباع شيخٍ، فمن لا شيخ له فشيخه الشيطان، ولزوم محبة النبي ﷺ لأنه باب الله والشافع المشفَّع، وبه تقضى الحوائج وتُنال الرغائب.

رابعاً: صوفي عالم، سيقول: التصوف علم تزكية النفوس، وسعي إلى مرتبة الإحسان، وهي كما قال النبي ﷺ: ﴿أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاك﴾[١٧]، والتدرج في منازل هذه المرتبة للوصول إلى المراقبة والشهود، من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين، والتزام الشرع، واتباع السنة ونبذ البدع، وسلوك إلى الحق بإخلاص العبودية والتسليم له، وإفراده سبحانه بالقدرة والفعل، والعبادة والمسألة، واليقين بأنه لا يضر ولا ينفع ولا يصل ولا يقطع ولا يعطي ولا يمنع ولا يفرق ولا يجمع إلا الله، ولا تتحرك ذرة في الكون إلا بإذنه، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١٨]**، فنحن لا نرى قدرة لمخلوق على شيء، وإنما الكل صُوَرٌ، والله سبحانه هو الفاعل، وهذا ما نسميه «وحدة الشهود» أي ألا نشهد وجوداً لغير الله سبحانه، و ربما سماه بعضنا «وحدة الوجود»، ليس بمعنى اتحاد الموجودات مع الموجد سبحانه، فذلك فَهْمُ مَن أراد تشويه التصوف، وإنما المعنى أن**

---

[١٧] صحيح البخاري، برقم ٥٠.
[١٨] سورة آل عمران: ٢٦، ٢٧.

الوجود واحد لله الواحد، وبقية الموجودات قامت به سبحانه، وهو الباقي، وهي كلها آيلة للزوال خاضعة لسلطان الوجود الإلهي، فلا وجود لها لو لم يوجدها، ولا بقاء لها إن لم يبقها، فهو الوجود ذاته سبحانه، وكل الموجودات قائمة به، وإن اختلف المصطلحان (وحدة الشهود ووحدة الوجود) فالمدلول اللغوي قد يختلف بين مجتمع وآخر، فيعبر أحدهم بلفظ «وحدة الوجود» يقصد بها «وحدة الشهود»، ومعلوم أن القبائل العربية كان في دلالات ألفاظها اختلاف، فمثلاً قبيلة تميم تطلق «السدفة» على الظلمة، في حين تطلقها قبائل قيس على النور، وقصة سيدنا خالد بن الوليد، رضي الله عنه، مع أسرى الردة معروفة وشاهدة على وجود الاختلاف بين لغتي قريش وكنانة[١٩]، أما مزاعم الاتحاد والحلول وما إليها فهي كفرٌ وزندقة لا نُقِرُّ به ولا نُسلّم لقائل به ولو انتسب إلى التصوف ادعاءً، أو كان من الصوفية فلبّس عليه الشيطان فانحرف، وهذا أمر وارد، فقد كان «بلعام» على الدين الحق، وكان إذا نظر إلى أعلى أبصر عرش الرحمن[٢٠]، وقيل إن الله آتاه اسمه الأعظم[٢١]، فأضله الشيطان، وقد ذكره الله في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى

---

[١٩] لما أسر المسلمون أناساً من المرتدين، وكان يوماً بارداً، نادى خالد بن الوليد رضي الله عنه «أدفئوا أسراكم» (أي أشعلوا لهم ناراً ليدفؤوا) وكان معنى العبارة في لغة كنانة القتل، وكان الحرس منها، فقتلوهم. ينظر تاريخ الطبري: ج٣، ص٢٧٧-٢٧٩.

[٢٠] ينظر تفسير القرطبي للآية ١٧٥ في سورة الأعراف.

[٢١] ينظر تفسير الطبري للآية نفسها.

آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٢٢]، **فلا عصمة لغير الأنبياء عليهم السلام، وقد قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ﴾[٢٣]. وكذلك كان برصيصا عابداً[٢٤]، وفيه قال الله تعالى:** ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٢٥]، **فمن ضل أو خرج أو حاد عن الكتاب والسنة فليس من الصوفية وإن كان منتسباً إلينا في أول أمره! وفي هذا قول الشيخ بهاء الدين الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس:**

---

[٢٢] سورة الأعراف: ١٧٥.

[٢٣] صحيح مسلم، برقم ٢٦٥٤.

[٢٤] عابد من بني إسرائيل، ينظر تفسير الطبري للآية، قال ابن عباس: كان راهب من بني إسرائيل يعبد الله فيحسن عبادته، وكان يُؤتى من كلّ أرض فيُسأل عن الفقه، وكان عالمًا، وإن ثلاثة إخوة كانت لهم أخت حسنة من أحسن الناس، وإنهم أرادوا أن يسافروا، فكبر عليهم أن يخلفوها ضائعة، فجعلوا يأتمرون ما يفعلون بها؛ فقال أحدهم: أدلكم على من تتركونها عنده؟ قالوا: من هو؟ قال: راهب بني إسرائيل، إن ماتت قام عليها، وإن عاشت حفظها حتى ترجعوا إليه؛ فعمدوا إليه فقالوا: إنا نريد السفر، ولا نجد أحدًا أوثق فى أنفسنا، ولا أحفظ لما وُلِّيَ منك لما جعل عندك، فإن رأيت أن نجعل أختنا عندك فإنها ضائعة شديدة الوجع، فإن ماتت فقم عليها، وإن عاشت فأصلح إليها حتى نرجع، فقال: أفيكم إن شاء الله؛ فانطلقوا فقام عليها فداواها حتى بَرَأَت، وعاد إليها حسنها، فاطلع إليها فوجدها متصنعة، فلم يزل به الشيطان حتى يزين له أن يقع عليها حتى وقع عليها، فحملت، ثم ندمه الشيطان فزين له قتلها؛ قال: إن لم تقتلها افتضحت وعرف شبهك في الولد، فلم يكن لك معذرة، فلم يزل به حتى قتلها؛ فلما قدم إخوتها سألوه ما فعلت؟ قال: ماتت فدفنتها، قالوا: قد أحسنت، ثم جعلوا يرون في المنام، ويخبرون أن الراهب هو قتلها، وأنها تحت شجرة كذا وكذا، فعمدوا إلى الشجرة فوجدوها تحتها قد قتلت، فعمدوا إليه فأخذوه، فقال له الشيطان: أنا زيَّنت لك الزنا وقتلها بعد الزنا، فهل لك أن أنجيك؟ قال: نعم، قال: أفتطيعني؟ قال: نعم قال: فاسجد لي سجدة واحدة، فسجد له، فتخلى عنه وقال له إني بريء منك، فقتل.

[٢٥] سورة الحشر: ١٦.

مَحبَّتُنا لجنسِ الأَولِياءِ وقُدْوَتُنا إِمامُ الأَنبِياءِ
ونَحْفَظُ للوليِّ العهدَ إِلاَّ إذا ما شذَّ عن كُتُبِ السَّماءِ
نُحَكِّمُ في الشُّؤونِ اللهَ حقّاً ونُعرِضُ عن صِياحِ الأَغبياءِ
ونأخُذُ شِرْعَةَ المُختارِ سيفاً بِنَشْرٍ في الحَقائقِ وانْطِواءِ
وغيْرُ الشَّرعِ في الإِسلام رَدٌّ ودينُ الشَّرعِ دينُ الأَولياءِ[٢٦]

والله سبحانه وتعالى خلقنا لعبادته، وخلق لنا أسباباً للحياة الدنيا، كالطعام والشراب والدواء واتخاذ عمل للمعيشة، وأسباباً أخرى لطلب الآخرة، كالعبادات وطلب العلم والنصيحة وتربية الأبناء، وكلها نأخذ بها موقنين بأن الفعل لله وليس لنا، فربما خسر التاجر وربما تلف الزرع وربما هلك الضرع، وربما بورك في القليل فأثمر أكثر من الكثير، وربما فُتِن العابد فزلّ مثل برصيصا، وربما ضل الرجل الصالح كما ضل بلعام، فليس للإنسان شيء من أفعال الخير والهدى، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢٧]، **وقال عز وجل:** ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ

---

[٢٦] مشكاة اليقين، للرواس، ص٢٢، ٢٣.
[٢٧] سورة الحجرات: ١٧.

شَهِيدًا﴾[٢٨]، **والخير والشر كلاهما بيده تعالى، قدَّر كل شيء** ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[٢٩]، **وكذلك شأن الأسباب، فليس لها دور في الفعل، وإنما مرجع ذلك إلى الله وحده، فإذا أراد قضاء أمرٍ هيأ له أسبابه، فإذا انقطعت الأسباب استسلمنا لقدره سبحانه برضاً تام، وتوجهنا إليه بالدعاء، فالأخذ بالأسباب عندنا واجب، وتركها فسوق، والاعتماد عليها شرك. ولا يدفعنا هذا إلى ترك العمل معتمدين على أن ما قدّر الله كائن لا محالة، فقد أمرنا رسول الله ﷺ بالعمل لأنه من تيسير الله لأسباب قضائه، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ﴿كانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ، ذَاتَ يَومٍ جَالِسًا وفي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ به، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقالَ: ما مِنكُم مِن نَفْسٍ إلا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ. قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفلا نَتَّكِلُ؟ قالَ: لا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[٣٠]﴾[٣١]. **نجتمع على**

---

[٢٨] سورة النساء: ٧٩.
[٢٩] سورة النساء: ٧٨.
[٣٠] سورة الليل: ٥-١٠.
[٣١] صحيح مسلم، برقم ٢٦٤٧.

ذكر الله تعالى، سالكين سبل التعبد والبذل والحب واليقين، متخذين شيوخاً مرشدين مشهوداً لهم بالعلم والصلاح يقوّموننا إذا أخطأنا، ويوقظوننا إذا غفلنا، وينبهوننا إلى خطوات الشيطان كي لا نتبعها، ويحذّروننا من تلبيسه علينا، لا نعبدهم ولا نظن فيهم القدرة على ما ليس لهم، ولا نتّبعهم إذا أحلّوا ما حرّم اللهُ أو حرّموا ما أحلَّ، فإن أكرمهم الله بكرامة تظهر على يد أحدهم نظرنا إلى المُكرِم سبحانه وليس إلى من ظهرت على يده الكرامة، فقلنا سبحان الله! إنه على كل شيء قدير، فإن ماتوا زرناهم في قبورهم وألقينا السلام عليهم كما فعل النبي ﷺ مع أصحاب البقيع، وكما يفعل المسلمون حين يزورون قبور إخوانهم، فيسلّمون على أصحابها، أو عندما يزورون قبر النبي ﷺ، ومنهم من تأخذه العَبرة فرحاً بزيارته، ومنهم من يبثه شوقه إلى رؤيته ولقائه، ويقيننا تام بأنهم أحياء حياةً برزخية يسمعوننا، وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿ما من رجُلٍ يمرُّ بقبرِ الرَّجلِ كانَ يعرفُهُ في الدُّنيا فيسلِّمُ عليْهِ إلا ردَّ اللَّهُ عليْهِ روحَهُ حتَّى يردَّ عليْهِ السَّلامَ﴾[٣٢]، كما خاطب النبي ﷺ قتلى بدر من المشركين، فعن ابن عمر قال: ﴿اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ علَى أهْلِ القَلِيبِ، فَقَالَ: وجَدْتُمْ ما وعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فقِيلَ له: تَدْعُو

[٣٢] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢٤، ص١٧٣، وينظر: نيل الأوطار، للشوكاني، ٣/ ٣٠٥.

أمْوَاتًا؟ فَقَالَ: ما أنتُمْ بأَسْمع منهمْ، ولَكِنْ لا يُجِيبُونَ﴾[٣٣]، وفي حديثه ﷺ: ﴿إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه وتَولَّى عنه أصحابُه، وإنه ليَسمعُ قَرْعَ نعالِهم، يأتيه مَلَكَانِ فيقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ يعني: محمدًا ﷺ؟ قال : فأمَّا المؤمنُ فيقولُ: آمنتُ أنه عبدُ اللهِ ورسولُه، فيُقالُ له: انظرْ إلى مقعدِك في النارِ قد أبْدَلَكَ اللهُ مقعدًا في الجنةِ، فيراهُما جميعًا﴾[٣٤]، ولا ريب أن من يسمع قرع نعالهم يسمع سلامهم وقراءتهم، ولا نظن فيهم القدرة على إغاثة ولا عطاء، فذلك لا ينبغي لغير الله، فحتى الأحياء الذين يسيرون ويتحركون في الدنيا في اعتقادنا لا يملكون ذلك، فضلاً عن الأموات، وربما دعونا الله لهم وأن يجمعنا بهم في مستقر رحمته، وربما دعونا لأنفسنا مستشفعين بمكانتهم عند الله تعالى أن يقضي لنا حوائجنا بقدرته ورحمته هو وحده سبحانه. أما غايتنا فهي رضا الله سبحانه والتقرب إليه حباً به وخضوعا له لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما لأنه رب يستحق العبادة، وكل ما ذكرناه مفهوم من معنى «لا إله إلا الله»، وفي ذلك قول رابعة العدوية رحمها الله: «اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها، وإن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأرسلني فيها، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد»[٣٥]،

---

[٣٣] صحيح البخاري، برقم ١٣٧٠.
[٣٤] السنن الكبرى، للبيهقي، ج٤، ص٨٠.
[٣٥] موقع الإمام الشعراوي: https://www.goodreads.com/quotes/5221565

ونحب الله سبحانه لما أكرمنا به من نعم لا يؤدّى شكرها، ونحب رسوله ﷺ لأنه مصطفاه، ولما كتب لنا من الهداية على يده وبصبره وتحمله المشاق والجهاد حتى أوصل إلينا رسالة الله كاملة، وإنما يأخذ علينا بعضُهم المبالغة في حبه ﷺ وكأنه لم يقرأ قوله ﷺ: ﴿لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾[٣٦]، وهل بعد هذا من مبالغة؟! فإنّا، والله، نحبُّه أكثر من كل أولئك، ومن أنفسنا أيضاً، وقد قدّم الصحابة رضي الله عنهم أنفسهم فداء له في غير موضع، فنام علي رضي الله عنه في فراشه ليلة هجرته، والمشركون على بابه يكادون ينقضون عليه فيقتلونه، ووقف أبو دجانة مدافعاً عنه ﷺ وجعل من نفسه درعاً دون جسده الشريف يتلقى السهام والطعنات بدلاً منه ﷺ كي يقيه السهام والرماح حتى أصبح ظهره كالقنفد من كثرة ما أصابه من السهام. ونحب لقاء الله سبحانه ونشتاق إليه، نحبه عز وجل حبين؛ حبَّ من يتلقى الإحسان للمحسن، فهو سبحانه أهلٌ لهذه المحبة لعظيم إحسانه ومزيد مننه وفواضل عطائه، وحبَّ المتعلق بالمحبوب، الذي تشرّبه القلب وأحاط بشغافه وتشبث بمناط عروقه، وهيمن على الروح فأصبحت هائمة في ملكوته، واستولى على الجوارح فخضعت للقلب وأطاعته في طاعته والسعي إلى رضاه، حبّاً يدمع

---

[٣٦] صحيح البخاري، برقم ١٥.

له المحب عند الفكر، ويطير قلبه عند الذكر، ويحترق بنار الشوق إلى لقاء المحبوب، وفي ذلك قول ذي النون المصري:

أُحِبُّكَ حُبَّينِ؛ حُبَّ الهَوى ... وَحُبّاً لأنّكَ أَهْلٌ لِذاكا

فَأمّا الذي هُو حُبُّ الهَوى ... فَشُغلي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِواكا

وَأمّا الّذي أنتَ أَهْلٌ لَهُ ... فَكَشفُكَ لي الحُجْبَ حَتّى أَراكا

لا نغفل لحظة عن مراقبته سبحانه، فنراه معنا على كل حال، فنبكي بين يديه عز وجل في الدياجي شوقاً، ونذوب وجداً، ونهيم هُياماً أين منه الهيامُ الذي أصاب قيساً وأمثاله بالجنون؟ وفي ذلك قول الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله:

عَجِبْتُ لمنْ يقولُ ذَكَرْت رَبّي ... وَهَلْ أَنسى فَأَذْكُرُ مَنْ نَسيتُ

أَموتُ إذا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحيا ... وَلَولا ماءُ وَصْلِكَ ما حَيِيْتُ

فَأحيا بِالْمُنى وأَموتُ شَوقاً ... فَكَمْ أَحيا عَلَيْكَ وَكَمْ أَموتُ

شَرِبْتُ الحُبَّ كَأساً بَعدَ كأسٍ ... فَلا نَفِدَ الشَّرابُ وَلا رَوِيْتُ[٣٧]

فلا قرار لنا في الدنيا ولا استقرار ولا راحة ولا هناءة عيش حتى نلقى الله سبحانه وتعالى، وهل يهنأ محب في عيش إذا لم ير محبوبه، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا راحة لمؤمن دون

---

٣٧ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٤٩.

لقاء ربه عزوجل»[٣٨]، وكما قتل الحب والشوق أناساً ممن تذكرهم كتب الأدب وتاريخه، فكذلك قد تبلغ شدة الشوق والهيام بالصوفي الموت، وكذلك كان سبب موت الشيخ أحمد الرفاعي، رحمه الله، إذ زاره الزاهد عبد الغنيّ بن محمد بن نقطة، فأنشد بين يديه:

إذا جَنَّ لَيلي هامَ قَلبي بِذِكْرِكُمْ
أَنُوحُ كَما ناحَ الحَمامُ الُمطَوَّقُ

وَفَوقِي سَحابٌ يُمْطِرُ الهَمَّ والأَسى
وَتَحْتي بِحارٌ بِالأَسى تَتَدَفَّقُ

سَلُوا أمَّ عَمْروٍ كيفَ باتَ أسيرُها
تَفُكُّ الأُسارى حَولَهُ وَهْوَ مُوثَقُ

فَلا هُوَ مَقْتولٌ فِفي القَتْلِ راحةٌ
وَلا هُوَ مَمْنونٌ عَلَيهِ فَيُطْلَقُ

فلما سمعها الشيخ أخذه الوجد، ثم سقط مغشياً عليه، فمرض مرضه الذي مات منه[٣٩]. وخلاصة القول إن التصوف سلوك على

---

[٣٨] الزهد والرقائق، لعبد الله بن المبارك، برقم ١٥، ص١١٥.

[٣٩] وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج١، ص١٧٢، ونسب الأبيات إلى الرفاعي، كما نسبها إليه الذهبي في «تاريخ الإسلام» وعزا خبرها إلى ابن الجوزي، وكذلك نسبها الزركلي في «الأعلام» وابن العماد في «الشذرات»، وابن الملقن في «طبقات الأولياء»، ونسبها الأبشيهي في «المستطرف» إلى البهاء زهير.

الكتاب والسنة ومكارم الأخلاق، وقد قال النبي ﷺ: ﴿إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقاً﴾[٤٠]، فكل من التزمها صوفي في نظرنا، وإن لم يتبع طريقة أو ينسب نفسه إلى التصوف، وقد سئل أبو محمد الجريري عن التصوف، فقال: «الدخول في كل خُلُق سَنِيّ والخروج من كل خُلُق دَنيّ». ويقول الإمام الجنيد: «التصوف خُلق، فمن زاد عليك بالخلق فقد زاد عليك في التصوف».

وأمام هذه الإجابات الأربع نقع في حيرة! والمشكلة أن لكل منها أدلتها من واقع المجتمع الصوفي، ولكن أين هو التصوف الحقيقي منها؟ أو ما هي حقيقة التصوف بين كل ما ذكر؟ هذا ما سوف نناقشه في صفحات هذا البحث بحيادية تامة، إن شاء الله، نسأله سبحانه أن يفتح لنا مغاليق الأبواب، ويلهمنا الرشد، ويرينا الحق حقاً ويرزقنا اتّباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ويجري الحق في كلامنا ويجنبنا الزلل والخطأ والغلط والمغالطات، ويرزقنا العدل في القول والعمل، والإنصاف في الحكم، والصدق في النصح، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٤٠ صحيح الترمذي، للألباني، برقم ٢٠١٨.

مدخل

لأنني نشأت في مجتمع يغلب على أهله التصوف سلوكاً أو اعتقاداً، عرفت نهج العامة في تصوفهم عن قرب، وربطتني بكثير منهم علاقات قرابة أو صداقة أو زمالة دراسة، فجالستهم واستمعت إليهم وشاركتهم في بعض حلقاتهم، ووجدت نفسي محباً لهم معجباً بأخلاقهم ومعاملاتهم، وتوثقت العلاقة أكثر بعد أن صرت خطيباً في مسجد «السادة» الذي بناه الشيخ عبد المجيد الشيخ عيسى الصيادي الرفاعي، رحمه الله، و أنشأ إلى جانبه زاوية لمريديه وغيرهم ممن يأتون لحضور مجالس الذكر فيها، وأستطيع أن أقول إنني في تلك الفترة تماهيت مع الصوفية، واستفدت منهم أشياء كثيرة، لكنني أيضاً كنت آخذ على بعضهم مآخذ تبيَّن لي في ما بعد أنها من عند أنفسهم لا من المنهج ولا المشايخ، وهناك التقيت الشيخ عادل الأمين رحمه الله، الذي كان من تلاميذ الشيخ محمود الشقفة، رحمه الله، ويختلف عن كثير من «المتصوفة» بنهجه وسلوكه ومعرفته، فوجّهني إلى قراءة كتاب «البرهان المؤيد» للشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله، فقرأت الكتاب لأجد أن التصوف مختلف كلياً عما نشهده في محيطنا في هذه المنطقة النائية من سورية، إذ وجدت في الكتاب نهجاً لا يخرج قيد شعرة عن الكتاب

والسنة، والتركيز على ظاهر الشرع والأخذ به، وأن كثيراً مما نشهده من سلوكات بعض المتصوفة لا ينتمي إلى التصوف مطلقاً، وقد أنكره الشيخ الرفاعي في كتابه، حتى إنه لما ذكر «الحلاج» في كتابه قال: «أخطأ بوهمه، لو كان على الحق ما قال أنا الحق»[٤١]، وكثيراً ما كان يقول: «أي بطّال» كقوله: «أي بطال تعلمت علم الكِبْر، تعلمت علم الدعوى، تعلمت علم التعالي، أيشِ حصل لك من كل ذلك؟ تطلب هذه الدنيا الجايفة بظاهر حال الآخرة! لبئس ما صنعت، ما أنت إلا كمشتري النجاسة بالنجاسة، كيف تغفل نفسك بنفسك وتكذب على نفسك وأبناء جنسك؟ لا يقرب المحب من محبوبه حتى يبعد عن عدوه... من أثبت نفسه مريداً صار مراداً»[٤٢]، ويؤكد أن التصوف حقيقة قلب لا مظهرٌ وزيٌّ، فيقول: «أي حبيبي تظن أن هذه الطريقة تورث من أبيك، تسلسل من جدك... حسِبت هذه البضاعة ثوبَ شعر وتاجاً وعكازاً ودلقاً وعمامة كبيرة وزيّاً صالحاً! لا والله، إن الله لا ينظر إلى كل هذا، ينظر إلى قلبك كيف يفرغ فيه سره وبركة قربه، وأنت غافل عنه بحجاب التاج، بحجاب الخرقة، بحجاب السبحة، بحجاب العصا، بحجاب المسوح»[٤٣] وأن الطريقة التزام كامل بالسنة وسير

---

٤١ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٣٦.
٤٢ المصدر السابق، ص٥٢.
٤٣ المصدر نفسه، ص٥٠.

إلى الله بالقلب والروح: «مفتاح السعادة الأبدية الاقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده وهيئته وأكله وشربه وقعوده وقيامه ونومه وكلامه حتى يصح لكم الاتباع المطلق، وإياكم أن تقولوا إن هذه الخصال من الأمور التي تتعلق بالعادات فتهملوها، فإن إهمالها يغلق باباً عظيماً من أبواب السعادة»[٤٤] ويستشهد بأن أحد الصوفية أخطأ فلبس الخف الشمال قبل اليمين، فاستعظم خطأه فتصدّق بشيء من حنطة كفارةً، لشدة تعظيمه للسنة الشريفة وحرصه على عدم مخالفتها! هذا في العادات، أما العبادات فيقول: «وأما العبادات فلا أعرف لعدم اتباعه ﷺ فيها من عذر إلا أن يحصل ذلك من كفر خفي أو حمق جلي»[٤٥]، ويؤكد أن التصوف تمسّك بالشرع، فيقول: «معروف الكرخي وداود الطائي والحسن البصري ومن تأدب بصحبتهم من هذه الطائفة، رضي الله عنهم، اختصروا أسباب السير على كلمتين: التمسك بالشرع وطلب الحق وحده، هذه الشريعة أمامك»[٤٦] لأجد بعد ذلك أن الشيخ عادل الأمين رحمه الله إنما كان يسير على منهج «البرهان المؤيد»، بعد ذلك تعرفت إلى عدد من مجالس أصحاب الطرق، وهي كثيرة ومنتشرة، وعاينت عدداً من مرتاديها ومريدي مشايخها، فلم أجد في

---

[٤٤] البرهان المؤيد، للرفاعي، ص١٠٦.
[٤٥] المصدر السابق، ص١٠٦.
[٤٦] المصدر نفسه، ص٩٣.

مجالسهم إلا قليلاً مما قرأت في «البرهان المؤيد» وفي سلوك الشيخ عادل الأمين رحمه الله، إلى أن جمعني الله بأفراد من أتباع الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي، رحمه الله، وحضرت عدداً من جلساتهم، فرأيت أمراً مختلفاً عما كنت أراه في أحوال بعض الصوفية في المجالس الأخرى، فهناك مجلس علم وفقه ومدارسة، إلى جانب الذكر، إضافة إلى إنشاد خالٍ من المعازف، وإذا قاموا إلى الذكر كانوا هادئين، يتحركون مع الذكر بسكينة لا صخب فيها ولا اندفاع، وكأنهم سلسال ماء يجري وخريره التهليل والتسبيح، وهناك رأيت الشيخ عادل رحمه الله، الذي تبسم لي حين رآني، وكأنه يقول لي أحسنت بمجيئك إلى هذا المجلس. ولازمتهم مدة، وشهدت في مجالسهم خيراً كثيراً، كالذي كنت أشهده في الرجال الكُمّل في زاوية الشيخ عبد المجيد في زمن سابق، وفي تلك الفترة نصحني بعض مشايخ الشاذلية بقراءة كتاب «حقائق عن التصوف»، للشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله، فقرأته لأجده مثل البرهان المؤيد، لا يخرج عن القرآن الكريم والسنة الشريفة مقدار شعرة، إضافة إلى ما فيه من شروح وإرشادات ورقائق مأثورة عن آباء التصوف ومرسّخي منهجه، كما أهدى إلي مرشد الشاذلية كتاب «نداء المؤمنين في القرآن الكريم»، للشيخ أحمد الجامي أحد شيوخ الطريقة الشاذلية، فوجدت في الكتاب مادة مثرية من العلم والمعرفة،

فاتخذته بعد ذلك مادة لخطب الجمعة التي ألقيها في مسجد «السادة»، وشوقني إلى لقاء صاحب الكتاب بما تضمن من شروح ولفتات إيمانية رائعة تصدر عن علم واسع وفكر عميق ومعرفة عالية، وفي تلك الفترة زار مدينتنا الشيخ سعد الدين مراد أحد شيوخ الطريقة الشاذلية، رحمه الله، وكان ذا علم ومعرفة عظيمين، وقد حضرت له عدداً من المجالس، فلم يكن يتكلم بشيء خارج «قال الله، وقال رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يفعل كذا» وكان يصب كلامه في القلب، وحفظت من وعظه أشياء، منها قوله: «قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ تعالى لا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأمْوالِكُمْ ، ولكنْ إِنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم﴾[٤٧]، فأصلحوا محطَّ نظر الله، لا ينظر الله إلينا فيرى أمثال حاويات الزبالة لما فيها من سوء النية أو فساد الطوية».

لقد كان نشاط وإقبال أتباع الطريقة الشاذلية وقتها في كل سورية مبشراً بنهضة إسلامية صوفية نقية علمية فقهية عظيمة، تلتقي مع السلفية الحقيقية وتتطابق معها، لكن سبحان مقلب القلوب ومغير الأحوال الذي لا يتغير، قدر بحكمة وقضى بعدل، وإليه ترجع الأمور.

[٤٧] صحيح الجامع للألباني، برقم ١٨٦٢.

الخلاف

لم يكن الخلاف داخل الفرق شيئاً جديداً على أهل التصوف أو غيرهم من جماعات المسلمين، فقد بدأ من زمن الصحابة رضي الله عنهم، وموقعتا «الجمل» و«صفّين» تشهدان بذلك، والطرفان في كلتيهما مسلمون، وجُلُّهم من صحابة النبي ﷺ. وقد تعرض الإمام الشافعي، رحمه الله، لمحاولة قتل في مصر، فتلقى طعنة بليغة من جاهل زعم أن الشافعي بانتشار علمه في مصر سيطمس المذهب المالكي! واستمر التعصب للمناهج والمدارس الفقهية في العصور التالية، حتى بلغ الأمر أن بعض أئمة الفقه الحنفي لم يجيزوا الزواج من أتباع المذهب الشافعي، وهذه المعاملة لا تكون إلا مع المشركين، وقال بعض أئمة المذهب الشافعي: يحل لنا أن نتزوج من الحنفية ولا يحل أن نزوّجهم، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب! ومازالت الآثار إلى اليوم شاهدة على ذلك الخلاف البغيض، الذي لم يَعُدْ لَهُ وجودٌ في عصرنا، والحمد لله، إذ إن في مسجد دمشق الكبير محرابين، كان أحدهما للحنفية، والآخر للشافعية، ومثلهما في عدد من المساجد القديمة في مصر والعراق وربما في غيرهما.

وقد بقيت مع هذه الصحبة الطيبة حتى افترقوا في مجلسين بسبب خلافات كالتي تحصل بين أتباع المدارس الأخرى، وكان ذلك آخر عهدي بحضور مجالسهم، مع حفاظي على المودة مع الجميع.

الشيخ عادل الأمين

بعد اعتزالي مجالس الصوفية عادت علاقتي مع الشيخ عادل الأمين وتوثقت أكثر، وهو الذي أخذ معي منذ البداية دور المرشد والموجه، مع أنه لم يكن شيخاً وليس له أتباع أو مريدون، مع كثرة رواد منزله من الصوفية من أتباع كل الطرق والمشارب، الذين يجتمعون عنده للذكر والمدارسة، ومنهم من يطلب منه الدعاء، فقد كان رحمه الله مجاب الدعوة، وكان لي ولغيري في ذلك شواهد كثيرة، ولكنه كان يلزم أسلوباً مختلفاً عن أساليب المشايخ والصالحين الذين يُطلب منهم الدعاء، فإذا طلب أحد منه الدعاء لتحقيق أمر ما، يطلب منه أن يصلي ركعتين، أو أكثر، أو يطلب منه قراءة أجزاء من القرآن، أو الصلاة على النبي ﷺ مئة مرة، ثم الدعاء لنفسه، وبعد ذهابه يدعو له، فكان حين يرفع يديه ويدعو له يَبكي ويُبكي الجالسين وهو يسأل الله تعالى ويرجوه أن يعطي ذلك العبد مسألته. وكان بذلك يقصد إلى ثلاثة أمور؛ الأول أن يعلّم صاحب الحاجة أن يدعو لنفسه، وأن الله رب الناس؛ يجيب الداعي إذا دعاه، والثاني أن يصرفه إلى عمل صالح يقدمه بين يدي دعائه فيؤجر، ويتعلم صاحب الحاجة آداب الدعاء وأسباب الإجابة، والثالث ألا ينسب صاحب الحاجة فضل الإجابة إلى دعاء الشيخ، وإنما إلى دعائه هو، فيعظم يقينه بالله سبحانه، ويصير ذلك له ديدناً فيلجأ

إلى اللّه ويدعوه بدلاً من اللجوء إلى عبد ليدعو له، إضافة إلى لفتةٍ قيّمة نمر بها عند مناقشة حديث الأعمى، فكان أسلوبه تربوياً عظيماً. ولم يكن، رحمه اللّه، يرضى من أحد أن يناديه «شيخي»، ولا يقبل من أحد شيئاً، وكان يقول: «كان الشيخ أحمد الرفاعي، رحمه اللّه، يوصي مريديه، إذا خرجوا للدعوة إلى اللّه، أن يأخذوا معهم كل ما يحتاجون إليه، حتى الإبرة والخيط، وألا يقبلوا من أحد شيئاً، ويقول لهم: من يأخذ لا يعطي»! وكان يخصني بجلسات بيني وبينه، فإذا قام الحاضرون في مجلسه للانصراف وأردت أن أقوم معهم أشار إلي أن اِبْقَ، فأجلس ليخصني ببعض المواعظ والتوجيهات، كان دائماً يبدؤها بقوله: «الغاية هو اللّه، والطريق اتباع محمد ﷺ» ويزيد في الكلام ويبلغ في الموعظة، وكان يقول لي: «لا تكن ككلب الصيد؛ جهده لغيره، فكن من أهل العمل لا من أهل القول»، ويدعوني إلى تعظيم اللّه سبحانه، ويحذرني قائلاً لا تكن ممن قال اللّه فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّه حَقّ قَدْرِهِ﴾[٤٨]، وكان يقول لي: «الطرق كلها واحد، كلها تؤدي إلى اللّه تعالى، فلا تنخدع بقول: هذا رفاعي وهذا قادري وهذا شاذلي، فالكل سائر إلى اللّه». وسأله أحدهم: هؤلاء المسلمون الذين لم يسيروا في طريق العبادة والزهد والتصوف، هل يدخلون الجنة؟ فقال له: وهل قال

[٤٨] سورة الزمر: ٦٧.

الله إن الجنة للصوفية وحدهم؟ يا بني ربما يدخل هؤلاء الجنة قبلنا، وربما دخلوا ولم ندخل». وكان يقول: «لله حكمة في كل شيء، فقد يُميت بقرةً ليطعم كلباً، فكلاهما من خلقه»، ومما قاله لي: «العطايا قِسَمٌ من الله، فلا يدركها ممن جد لها إلا من قسمها الله له»، وقال: «محمد ﷺ باب الله تعالى، فكل من يأتيه من غير طريق محمد ﷺ لا يُقبَل»، وكان كثيراً ما يردد: «اللهم أشغلني بك عن الناس، وأشغل الناس بك عني»، وفي المرة الأولى التي سمعته يرددها التفت إليّ وسألني: هل تعرف قائل هذا الكلام؟ فقلت: لا. قال: وأنا لا أدري من أين وقع على لساني! وكان كلما جئته وليس عنده أحد وجدته يقرأ في القرآن، فيرفع القرآن ويتركه مفتوحاً، ليرجع إليه بعد خروجي، ويقول لي: «ما فُتحَ على وليٍّ لله إلا بالقرآن»، وكان كثيراً ما يقرأ عليّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[٤٩]**، وكان يطوف على مجالس المتدينين من كل الاتجاهات، صوفية أو سلفية أو غيرهما، وعلى الأفراد المتدينين وأئمة وخطباء المساجد، فيذكّر بآية كريمة أو حديث شريف، أو يسمعهم موعظة، ثم يمضي. فكان لي مدرسة، جزاه الله خيراً، لا أرجع من عنده إلا بفائدة أو حكمة أو فهم جديد، وبين جنبيَّ طاقة دافعة إلى العمل الصالح والإقبال على الله تعالى، وكانت**

---

٤٩ سورة الأنعام: ١٥٢.

مجالسه مُثرِية للفكر، وشاحنة للقلب ودافعة للروح إلى الانطلاق في ملكوت الله، ومثبّتة على الاستقامة ولزوم الشرع، والصبر على الضر والأذى وصعوبات الحياة، وحاضّة على الجد في طلب العلم، وحاثّة على السعي في السير إلى الله تعالى. ولو أردت أن أصفها اليوم بعد مرور أكثر من عشرين عاماً على آخر مجلس، إذ سافرت إلى السعودية، لما استطعت أن أصف لذة تلك المجالس وأُنسها، والثمرات التي تحصلتُ عليها، رحمه الله ونفعه بما علّم وما ترك من آثار في نفوس أصحابه، ورفع درجته في الصالحين.

السلفيون

في تلك الفترة، وأنا أتردد على الشيخ عادل، وأخطب في مسجد السادة، دعاني بعض أصدقائي الذين سلكوا منهج السلفية، وكانوا يلتقون في بيوتهم، فاستجبت لدعوتهم وجالستهم، فوجدتهم أصحاب جد وجهد في تحري السنة الشريفة، والتزامها وعدم الخروج عنها ولو في زيادة صلاة ركعة أو زيادة حرف في الصلاة على ما ورد عن النبي ﷺ، معتبرين ذلك بدعة، مثل إضافة كلمة «سيدنا» في الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، ففي مجتمعنا تعلمنا صيغة الصلاة بهذه الطريقة، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى جواز هذه الزيادة، منهم: العز بن عبد السلام، والقرافي، والرملي، وجلال الدين المحلي، وقليوبي، والشرقاوي، والحصفكي، وابن عابدين، والنفراوي، وغيرهم[٥٠]. أما تتبعهم الدقيق لصحة الأحاديث الشريفة وتشددهم فيها فحدّث ولا حرج، وما أكثر الأحاديث التي كان الناس يتداولونها في حياتهم اليومية، وهي ضعيفة، وبعضها لم يكن أحاديث أصلاً، وإنما هي أقوال مأثورة وحكم، وكان مرشدهم في مسيرتهم كتب الشيخ ناصر الدين الألباني، وخصوصاً «سلسلة الأحاديث الصحيحة» «والأحاديث

---

٥٠ عن دائرة الإفتاء الأردنية: ينظر: مغني المحتاج، للخطيب الشربيني، ١/ ٣٨٤، وينظر أسنى المطالب، لزكريا الأنصاري، ٤/ ١٦٦، وحاشية تحفة المحتاج، ٢/ ٨٨، والموسوعة الفقهية، ١١/ ٣٤٦.

الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة» التي اعتمدوها في سيرهم إلى الله تعالى، فهم أيضاً كانوا يريدون الحق ويسعون إليه، ولكنهم لا يقبلونه إلا من المصادر السلفية، ككتب الشيخ الألباني أو محمد بن عبد الوهاب أو ابن باز أو ابن عثيمين، والكتب المنشورة في السعودية، لأنهم يرونها أكثر دقة وتحرياً للصحيح من الروايات، ولم يكونوا في ذلك على خطأ، فهذا مشهور عند الجميع بما فيهم الصوفية. وقد تماهيت معهم مدة من الزمن، وأحبوني وأحببتهم، كما أحبني الصوفية من قبل وأحببتهم ، ولكنهم كانوا لا يفرقون بين «الصوفية» و«المتصوفة» و«العوام» الذين أدخلوا بعض العادات في الدين، فكان السلفيون يضعون الجميع في بوتقة واحدة، ويأخذون عليهم بعض الاعتقادات الخرافية، التي هي في حقيقتها موروث اجتماعي أكثر منها موروثاً دينياً، والتي لم أجد شيئاً منها عند صوفية الشام، أما بلادنا (الجزيرة الفراتية) فكانت متصلة بالعراق جغرافياً واجتماعياً، فمعظم السكان ترجع أصولهم إلى العراق، وكثير من قبائلهم وأسرهم منقسمة بين العراق وسورية، وحتى ملابسنا واللهجة والعادات الاجتماعية صورة عن المجتمع العراقي، وعلى رغم تضاد المسلمين في العراق مع الرافضة والشيعة فقد تسللت بعض العادات إلى المجتمع عموماً ولم يقتصر الأمر على الصوفية وحدهم، وامتدت هذه العادات إلى جزيرتنا، فكان

موضوع زيارة الأضرحة موروثاً اجتماعياً تقوم به العجائز من العامة، وهن لسن من أهل التصوف ولا من المنتسبين إليه، فكانت زياراتهن مثلها مثل اتخاذ الخرز تمائم، والتبرك بآثار أهل البيت الشريف، فهناك عين ماء اسمها «عين علي» يزعمون أن سيدنا علياً رضي الله عنه اغتسل فيها أو أن الله أنبعها له، فكانت العجائز يذهبن سنوياً لزيارتها والتبرك بمائها، وهذه عادة اجتماعية، فمعظمهن جاهلات لا يعرفن من الدين إلا الصلاة والصيام، ولا علاقة لهن بمذهب أو منهج أو تيار، أما الأضرحة التي تُزار فكانت غالباً لرجال من الصوفية ممن شهد لهم المجتمع بالصلاح وظهرت لهم بعض الكرامات، فكنَّ يلجأن إليها في الملمات، وبعضهن جعلن لأنفسهن زيارة سنوية إليها لا بد منها من غير حاجة، لكنّ كون أصحاب الأضرحة من الصوفية جعل إخواني السلفيين يربطون هذه العادات بالتصوف شاء أهله أم أبوا، وكما كان إخوتي السلفيون يلحقون بالتصوف سمة «القبورية» كانوا يأخذون على المجتمع عامة ما وصفوه بأنه «بدع»، ومن ذلك صلاة النافلة بعد الفراغ من صلاة الجمعة، وإسبال اليدين بعد القيام من الركوع، واتخاذ المسبحة للذكر، ، وعدم تحريك السبابة في التشهد، وقراءة القرآن وإهداء ثوابه إلى الأموات. ويأخذون على «الصوفية» خاصة إقامة مجالس الذكر الجماعية، ولا نعني المختلطة، لأن الصوفية في بلاد

الشام ليس لديهم اختلاط بين الذكور والإناث، كالذي نسمع عنه في بعض البلاد، ولكن مأخذهم عليهم أنهم يجتمعون للذكر، فيعدون ذلك بدعة، محتجين بأن النبي ﷺ لم يجمع الصحابة على ذلك، كما يأخذون عليهم ما يحصل في مجالس الذكر من صعق وغشيان، أو يعقبها كالجذب، وما يصدر عن بعضهم من «شطحات»، ويأخذون عليهم مسألة «الخلوة»، ويحتجّون بأن النبي ﷺ والصحابة، رضي الله عنهم، لم يفعلوها، وكذلك ادعاء الكشف ومعرفة أشياء من الغيب، والتصرف بالأحوال، وكذلك يأخذون عليهم الأخذ بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال، فعندهم كل ما ضعفه الشيخ الألباني لا يؤخذ به حتى لو حسّنه غيره من السابقين، وينكرون عليهم التوسل بالنبي ﷺ في دعائهم، ويعدّونه بدعة عظيمة أقرب إلى الشرك. لكن الحقيقة أنهم كانت لديهم خمس مشكلات، الأولى ذكرناها آنفاً، وهي أنهم لم يكونوا يفرقون بين «المتصوفة» و«العوام» وبين «الصوفية»، والفرق كبير ولا ريب، وسنبيّنه، إن شاء الله في أثناء البحث، والمشكلة الثانية أنهم ربطوا بالتصوف بعض العادات البدعية في المجتمع، والمشكلة الثالثة أنهم يعدّون العمل بما لم يبلغهم بدعة، والآثار التي لم يقرؤوها في الكتب الصادرة عن السعودية مشكوكاً فيها، ومن ذلك أشياء حاربوها بشدة، فمن الأخبار ما أنكروه حتى استخرجتها لهم من كتاب

«الرحيق المختوم»، فقبلوها، وحين جئت إلى السعودية التي هي مركز ومنطلق السلفية، وجدت سلفية مختلفة، ومآخذ إخوتي السلفيين على العامة في سورية منتشرة، فهم يصلون نافلة بعد صلاة الجمعة، ولا يعترضون على إسبال اليدين بعد القيام من الركوع، ومنهم من يفعله. أما المشكلة الرابعة فهي أنهم يأخذون نتاج مشايخهم وكأنهم أنبياء معصومون، فما قاله ابن تيمية أو محمد بن عبد الوهاب أو ابن باز أو الألباني، رحمهم الله، مسلّمات غير قابلة للنقاش، وكأنهم لا يخطئون أو يفوتهم شيء، حتى إنهم يعتقدون أن الأمة كلها كانت على ضلالة قبل أن يظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويجدد الإسلام الذي اندثر وطغت على أتباعه البدع وغلب عليهم الشرك. والمشكلة الخامسة أنهم لم يكن مشربهم من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب وارث علمه تلميذه ابن قيم الجوزية، رحمهما الله، وإنما يأخذون من كتب معاصرين من حملة لواء السلفية المتشددة، الذين يختارون من كتب ابن تيمية وابن القيم أشياء ويتركون أشياء، وخصوصاً في الحديث عن الصوفية والأشاعرة، تلك الفقرات والمقولات التي تعمق الشروخ بين الفرق وتكاد تخرج غيرهم من الإسلام، مع أن زعيمي المدرسة السلفية؛ ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله لهما كلام عظيم في الصوفية والتصوف، وسنمر به إن شاء الله،

وكذلك زعيم المدرسة السلفية المعاصرة ابن باز رحمه الله له كلام طيب في هذا الجانب، نذكره في موضعه من البحث، إن شاء الله.

لقد كان إخواني السلفيون أهل علم ومدارسة وحرص على توحيد الله تعالى، وتجنب أي شيء فيه رائحة الشرك، ويقاومون البدع بكل صورها، فكل ما لم يفعله النبي ﷺ والصحابة يُعدُّ عندهم بدعة، وأي إيمان بأن الوليّ يفعل أو يقدر على ما لا ينبغي للبشر فهو شرك.

وهكذا أيضاً كان الصوفية الذين قرأت عنهم في كتابَي «البرهان المؤيد» و«حقائق عن التصوف»، ولمسته في عدد من المشايخ، فكلا الكتابين حذّر من البدع وأوجب تركها، وحث على التوحيد وحذّر من الشرك الأصغر قبل الأكبر، وأما القدرة على فعل الخوارق فأكتفي بنص من البرهان المؤيد، قاله الشيخ الرفاعي رحمه الله في خطبة شهدها آلاف من مريديه وأبناء بلده: «أنا لست بشيخ، لست بمقدم على هذا الجمع، لست بواعظ، لست بمعلم، حُشِرتُ مع فرعونَ وهامانَ إن خطر لي أني شيخُ على أحد من خلق الله... كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خيرٌ مني... أنا أُحَيمِدُ اللاشِ، أنا لاشِ اللاشِ... أي فقير، اقتدِ بالقرآن المجيد، أيشِ أنا حتى أدعوَ لك؟ ما مثلي إلا كمثل ناموسة على الحائط لا قدر لها»[٥١].

وعلى هذا فالمنهجان متطابقان، فأين المشكلة؟

---

٥١ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٣١، و٣٢، وص٧١، على الترتيب.

المشكلة في اللَّبس الذي تشكّله المشكلات الخمس التي ذكرناها آنفاً، ومن هنا كان السلفيون يعلنونها حرباً إعلامية على الصوفية، وفي الوقت نفسه كان للصوفية رد فعلهم، إلا أنهم لم يجاهروا بالعداوة مع السلفية، وإنما يبغضونهم ويحذّرون منهم في ما بينهم. فكان السلفيون يصِمون الصوفيين بأنهم مشركون مبتدعة، والصوفيون يصِمون السلفيين بأنهم مجسمة ومنكرون لعلو مكانة النبي ﷺ، ومخالفون لسنته ﷺ، ويستشهدون بأن بعض علمائهم قال: «عصاي هذه خير من محمد، لأنها ينتفع بها في قتل الحية ونحوها، ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع أصلاً»[٥٢]، ولا ريب أن مثل هذا الكلام خطأ عظيم، بل خطيئة قد تخرج قائلها من الملة، سواء أكان قائله عالماً أم جاهلاً، وهو مردود على قائله، ولكن هذا لا يعني أن كل السلفيين يقولون بهذا أو يقرون قائله عليه، كما أن خطيئة الحلاج في قوله: «أنا الحق» لا تنسحب على كل الصوفية.

لقد كنتُ أجالس الطرفين، وأرى أن كلاً منهما لديه صواب ولديه خطأ، ففي هذا الجانب إفراط في أمور، وفي الجانب الآخر تفريط بها، والعكس بالعكس، فكنت أحاول تقريب وجهات النظر بين الطرفين، وإبراز حسنات الصوفية في مجالس السلفية، وإبراز حسنات السلفية في مجالس الصوفية، فكنت إذا خرجت من مجلس

---

٥٢ الدرر السنية، (كتاب) لمفتي مكة المكرمة الشيخ أحمد زيني دحلان، ص١٤٦.

هؤلاء قالوا: هذا صوفي، وإذا خرجت من مجلس أولئك قالوا: هذا وهابي! فلم أستطع استمالة طرف إلى طرف، وخصوصاً السلفيين الذين وصل الأمر ببعضهم إلى تكفير الصوفية مطلقاً، وللأسف.

في تلك الفترة قرأت كتاب «الشيعة والتصحيح» لموسى الموسوي، الذي دعا فيه إخوانه الشيعة إلى الحق وتصحيح منهجهم الذي وضع كثيراً من أصوله أشخاص حرصوا على شق عصا الأمة، وعلى أن تظل هناك فجوة عميقة وواسعة بينهم وبين المسلمين، ودعم الموسوي أقواله بالحجج والأدلة، وأظهر لهم الصورة الناصعة للمسلمين عموماً والصحابة خصوصاً، وأن ما يتداوله الشيعة عنهم كذب وتزوير وتدجيل لا أساس له من الصحة، فأعجبتني فكرته ومنهجه وهدفه، فخطر لي تصنيف كتاب بعنوان «الصوفية والسلفية والتصحيح» لدعوة عامتهم إلى العودة إلى مناهج أشياخهم، لكنني لم أكن وقتها أمتلك المادة العلمية التي تؤهلني لتصنيف مثل هذا الكتاب، لكنني مع ذلك كلمت خليفة الشيخ عبد المجيد ولده الشيخ عبد الغفور، الذي كان متعلماً ومتنوراً وله معرفة بالفقه والسلوك، فأعجبه الكلام وقال لي: ضع يدك بيدي لنتعاون على توجيه المريدين وإرشادهم وإبعادهم عن المخالفات الشرعية والبدع، وجمعهم على العلم إضافة إلى الذكر، واتفقنا على أن نقرأ عليهم في كل جلسة، بعد القرآن الكريم وحلقة الذكر

وجلسة السماع صفحات من كتاب البرهان المؤيد، الذي يعد منهاج الطريقة الرفاعية، والذي يحث على التوحيد وتجنب الشركيات والتزام الشرع ونبذ البدع، والسير إلى الله على نهج النبي ﷺ وأصحابه والتابعين من بعدهم، ولكن قدر الله لي السفر إلى السعودية، وهناك تعرفت إلى السلفية أكثر، وكذلك إلى التصوف من خلال كتب السلفية، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، كما قرأت عدداً من كتب ورسائل عدد من أعلام الصوفية كالهروي والجنيد والسري السقطي ومعروف الكرخي وشقيق البلخي والقشيري وابن عطاء الله السكندري وأحمد زروق، والعز بن عبد السلام، وابن عجيبة، والشيخ عبد الله سراج الدين، كما قرأت لمفكرين إسلاميين أمثال سعيد حوى ومصطفى محمود ممن تناولوا التصوف في بعض كتاباتهم، فاكتشفت أن التصوف ليس مجرد سلوك، وإنما هو مدرسة فكرية وتربوية ذات مبادئ وأصول وأسس، تقوم على التربية والتزكية والإرشاد بعد الإلمام بالفقه والعلوم الشرعية اللازمة للمسلم في حياته وعباداته، أي ما يمكن تسميته «ما بعد الإجازة الجامعية» التي تُسمّى في بعض البلاد «البكالوريوس»، فهي دراسات عليا، ألَمَّ المريد قبلها بالفقه فانتقل إلى السلوك، وبذلك أصبحتْ بين يديَّ المادة الكافية لإنجاز هذا الكتاب، الذي أعده مشروعاً للأمة، يهدف

إلى جمع كلمتها وإزالة الحواجز بين صفوفها، وردم الشروخ التي صارت خنادق عميقة وواسعة، فإن نجحت فيه فذلك بفضل الله، وإن فشلت فذلك من قلة علمي وسوء فهمي، والله ولي التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مآخذ السلفيين على المجتمع

أولاً: صلاة النافلة بعد الفراغ من صلاة الجمعة:

يحتج السلفيون بما رواه عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ ﴿كانَ لا يُصَلِّي بَعْدَ الجُمُعَةِ حتَّى يَنْصَرِفَ، فيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ﴾[٥٣]. ولعلهم لم يبلغهم ما رواه أبو هريرة ﴿عن النبي ﷺ أنه قال: إذا صلَّى أحدُكم الجمعةَ فليُصَلِّ بعدَها أربعًا﴾[٥٤] ولا تعارض بين الحديثين، فقد جاء عن أبي هريرة ﴿أن النبي ﷺ قال: إذا صَلَّيْتُمْ بَعْدَ الجُمُعَةِ فَصَلُّوا أَرْبَعًا. زادَ عَمْرٌو فِي رِوايَتِهِ: قالَ ابنُ إدْرِيسَ: قالَ سُهَيْلٌ: فإنْ عَجِلَ بكَ شيءٌ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ فِي المَسْجِدِ، ورَكْعَتَيْنِ إذا رَجَعْتَ﴾[٥٥]، وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية بين الحديثين، فقال: «إنْ صلَّى في المسجد صلَّى أربعاً، وإنْ صلَّى في بيته صلَّى ركعتين»[٥٦]. وبذلك رأيت سلفيي السعودية يعملون، فتبديع سلفيي سورية للمجتمع كان ظنّياً ولم يقم على دليل، وليس كل ما لم يبلغه علم المرء بدعة.

ثانياً: إسبال اليدين بعد القيام من الركوع:

قال الشيخ الألباني، في حديث النبي ﷺ: ﴿فإذا رفعتَ رأسَك فأَقِمْ صُلبَك وارفع رأسك حتى ترجعَ العظامُ إلى مفاصلِها...﴾: «إن

---

[٥٣] صحيح البخاري، برقم ٩٣٧.

[٥٤] صحيح ابن حبان، برقم: ٢٤٧٨، وينظر صحيح النسائي، للألباني، برقم ٤٢٥.

[٥٥] صحيح مسلم، برقم ٨٨١.

[٥٦] المستدرك على مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٣/ ١٢٩.

المراد من هذا الحديث بَيِّنٌ واضح، وهو الاطمئنان في هذا القيام، وأما استدلال بعض إخواننا من أهل الحجاز وغيرها على مشروعية وضع اليمنى على اليسرى في هذا القيام فبعيد جداً عن مجموع روايات الحديث، وهو المعروف عند الفقهاء بـ«حديث المسيء صلاته»، بل هو استدلال باطل؛ لأن الوضع المذكور لم يرد له ذكر في القيام الأول في شيء من طرق الحديث وألفاظه، فكيف يسوغ تفسير الأخذ المذكور فيه بأخذ اليسرى باليمنى بعد الركوع؟ هذا لو ساعد في ذلك مجموع ألفاظ الحديث، في هذا الموطن؛ فكيف وهي تدل دلالة ظاهرة على خلاف ذلك؟ ثم إن الوضع المذكور غير متبادر من الحديث البتة، لأن المقصود بـ«العظام» فيه عظام الظهر - كما تقدم - ويؤيد ما سبق من فعله ﷺ (... استوى حتى يعود كل فقار مكانه)، فتأمل منصفاً. ولست أشك في أن وضع اليدين على الصدر في هذا القيام بدعة وضلالة، لأنه لم يرد مطلقاً في شيء من أحاديث الصلاة - وما أكثرها! - ولو كان له أصل لنقل إلينا ولو من طريق واحد، ويؤيده أن أحداً من السلف لم يفعله، ولا ذكره أحد من أئمة الحديث، في ما أعلم. ولا يخالف هذا ما نقله الشيخ التويجري في «رسالته» (ص١٨، ١٩) عن الإمام أحمد رحمه الله، أنه قال: «إن شاء أرسل يديه بعد الرفع من الركوع، وإن شاء وضعهما (هذا معنى ما ذكره صالح ابن الإمام أحمد في مسائله «ص٩٠» عن أبيه)، لأنه لم

يرفع ذلك إلى النبي ﷺ، وإنما قاله باجتهاده، والرأي قد يخطئ، فإذا قام الدليل الصحيح على بدعية أمر ما - كهذا الذي نحن في صدده - فقول إمام به لا ينفي بدعيته - كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، في بعض كتبه - بل إني أجد في كلام الإمام أحمد هذا ما يدل على أن الوضع المذكور لم يثبت في السنة، فإنه خَيَّر في فعله وتركه، فهل يظن الشيخ الفاضل أن الإمام يُخَيِّرُ أيضاً كذلك في الوضع قبل الركوع؟ فثبت أن الوضع المذكور ليس من السنة، وهو المراد»[٥٧]. ولا تعليق لنا على المسألة لإخواننا السلفيين، الذين يعدون الشيخ الألباني مرجعهم، وكلامه في أول حججهم.

ثالثاً: اتخاذ المسبحة للذكر:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَعَدُّ التَّسْبِيحِ بِالأَصَابِعِ سُنَّةٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلنِّسَاءِ: ﴿سَبِّحْنَ وَاعْقِدْنَ بِالأَصَابِعِ فَإِنَّهُنَّ مَسْؤُولاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ﴾[٥٨]. وَأَمَّا عَدُّهُ بِالنَّوَى وَالْحَصَى وَنَحْوُ ذَلِكَ فَحَسَنٌ، وَكَانَ مِنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ تُسَبِّحُ بِالْحَصَى وَأَقَرَّهَا عَلَى ذَلِكَ، وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يُسَبِّحُ بِهِ، وَأَمَّا التَّسْبِيحُ بِمَا يُجْعَلُ فِي نِظَامٍ مِنْ الْخَرَزِ وَنَحْوِهِ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ كَرِهَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكْرَهْهُ وَإِذَا أُحْسِنَتْ فِيهِ النِّيَّةُ

---

[٥٧] صفة صلاة النبي ﷺ، للألباني، هامش ص١٣٨، ١٣٩.

[٥٨] هكذا في المصدر، وجاء لفظه «بالأنامل» في صحيح أبي داود، للألباني، برقم ١٥٠١، وتخريج مشكاة المصابيح، ابن حجر، ٢/ ٤٣٩.

فَهُوَ حَسَنٌ غَيْرُ مَكْرُوهٍ، وَأَمَّا اتِّخَاذُهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، أَوْ إظْهَارُهُ لِلنَّاسِ مِثْلُ تَعْلِيقِهِ فِي الْعُنُقِ أَوْ جَعْلِهِ كَالسُّوَارِ فِي الْيَدِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَهَذَا إمَّا رِيَاءٌ لِلنَّاسِ أَوْ مَظِنَّةُ الْمُرَاءَاةِ، وَمُشَابَهَةِ الْمُرَائِينَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ: الْأَوَّلُ مُحَرَّمٌ، وَالثَّانِي أَقَلُّ أَحْوَالِهِ الْكَرَاهَةُ، فَإِنَّ مُرَاءَاةَ النَّاسِ فِي الْعِبَادَاتِ الْمُخْتَصَّةِ كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ»[٥٩].

ولا نرى أن لنا كلاماً بعد كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، فهو حجة لمن جاء بعده.

رابعاً: الإشارةُ بالسَّبَّابةِ وعدمُ تحريكِها في التشهد:

قال صاحب موسوعة «الدرر السنية» علوي بن عبد القادر السقاف: «يُسَنُّ الإشارةُ بالسَّبَّابةِ في التشهُّدِ، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفِقهيَّةِ الأربعةِ: الحنفيَّةِ[٦٠]، والمالكيَّةِ[٦١]، والشافعيَّةِ[٦٢]، والحنابلةِ»[٦٣]. وذكر الأدلَّة مِنَ السُّنَّة:

١- ﴿عن وائلِ بنِ حُجرٍ قالَ: قلتُ: لأنظرنَّ إلى صلاةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ كيفَ يصلِّي، فقامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فاستَقبلَ القبلةَ فكبَّرَ، فرفعَ يدَيهِ

---

٥٩ مجموع الفتاوى، ج٢٢، ص٥٠٦.

٦٠ تبيين الحقائق، للزيلعي، ١/ ١٢١، وينظر الدر المختار، للحصكفي، ١/ ٥٠٨، وينظر: شرح مختصر خليل، للخرشي، ١/ ٢٨٧، والذخيرة، للقرافي، ٢/ ٢١٢.

٦١ حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني، ١/ ٢٨٢.

٦٢ تحفة المحتاج، للهيتمي، ٢/ ٨٠، وينظر «مغني المحتاج»، للشربيني، ١/ ١٧٣.

٦٣ الإنصاف، للمرداوي، ٢/ ٥٦، وينظر: «المغني»، لابن قدامة، ٢/ ٦.

حتَّى حاذَتا بأُذنَيهِ، ثمَّ أخذَ شمالَهُ بيمينِهِ، فلمَّا أرادَ أن يركعَ رفعَهما مثلَ ذلِك، قالَ ثمَّ جلسَ فافترشَ رجلَهُ اليُسرَى ووضعَ يدَهُ اليُسرَى علَى فخِذِهِ اليُسرَى وحدَّ مِرفقَهُ الأيمنَ علَى فخِذِهِ اليُمنَى، وقبضَ ثِنتَينِ وحلَّقَ حلقةً، ورأيتُهُ يقولُ هَكذا؛ وحلَّقَ بِشْرٌ الإبهامَ والوُسطَى وأشارَ بالسَّبَّابةِ»[٦٤].

٢- عن عبد الله بن عمر «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا جلَسَ في الصَّلاةِ وضعَ يدَهُ اليُمنى علَى رُكْبتِهِ، ورفعَ إصبعَهُ الَّتي تلي الإبهامَ يدعو بِها، ويدُهُ اليُسرى علَى رُكْبتِهِ باسطَها علَيهِ»[٦٥]

ولا يُشرَع تحريكُ السَّبَّابةِ في التشهُّدِ، وهو مذهبُ الشافعيَّةِ[٦٦]، والحنابلةِ[٦٧]، وابنُ حزمٍ؛ قال ابنُ حزم: «ونستحبُّ أن يُشير المصلِّي إذا جلس للتشهُّد بإصبعه ولا يُحرِّكها»[٦٨] وذلك لضعف الأدلة الواردة فيه[٦٩] (أي في التحريك).

خامساً: قراءة القرآن وإهداء الثواب إلى الأموات:

عَدُّوْها بدعة، واستشهدوا بقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا

[٦٤] رواه النسائي، برقم ١٢٦٤، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، ٩٥٧.
[٦٥] صحيح مسلم، برقم ٥٨٠، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، ٢٩٤.
[٦٦] المجموع، للنووي، ٣/ ٤٥٤، وينظر: الحاوي الكبير، للماوردي، ٢/ ١٣٣.
[٦٧] الإنصاف، للمرداوي، ٢/ ٥٦، وينظر شرح منتهى الإرادات، للبهوتي، ١/ ٢٠١.
[٦٨] المحلى، ابن حزم، ٣/٦٤.
[٦٩] موقع الدرر السنية، الموسوعة الفقهية: https://cutt.us/tshahud

مَا سَعَى﴾[٧٠]، وبحديث النبي ﷺ: ﴿إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إلا مِن ثَلاثَةٍ: إِلا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له﴾[٧١]، ويقولون إن هذه القراءة لا يصل ثوابها إلى الميت، وإنما ثوابها للقارئ فقط، إلا أن القارئ بعمله هذا يرتكب بدعة. ومذهب مالك والشافعي أن العبادات البدنية لا يصل ثوابها إلى الميت. أما عند الإمامين أبي حنيفة وأحمد بن حنبل وطائفة من أصحاب مالك والشافعي فإن ثوابها يصل، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:«من قرأ القرآن محتسباً، وأهداه إلى الميت نفعه ذلك»[٧٢]. وقد تبع ابن القيم أستاذه في ذلك، فقال: «وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يُقرأ عند قبورهم وقت الدفن؛ قال عبد الحق: يروى أن ابن عمر أمر أن يُقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأى ذلك المعلّى بن عبد الرحمن، وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولاً حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك. وقال الخلال في الجامع، كتاب القراءة عند القبور: أخبرنا العباس بن محمد الدوري... عن العلاء بن اللجلاج، عن أبيه قال: قال أبي: إذا أنا مِتُّ فضعني في اللحد، وقل: بسم الله، وعلى سنة رسول الله ﷺ، وسن عليّ التراب سنّاً، واقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة، فإني سمعت عبد الله بن

---

٧٠ سورة النجم: ٣٩.
٧١ صحيح مسلم، برقم ١٦٣١.
٧٢ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢٤، ص٣٠٠.

عمر يقول ذلك. قال عباس الدوري: سألت أحمد بن حنبل، قلت: تحفظ في القراءة على القبر شيئاً؟ قال: لا. وسألت يحيى بن معين، فحدثني بهذا الحديث»[٧٣].

ولا نرى حاجة إلى مزيد بعد قول شيخ الإسلام، وأثر ابن عمر، وقول ابن القيم، ورواية يحيى بن معين.

فهذه كانت ردود علماء وأئمة السلفية على مآخذ إخواني السلفيين على المجتمع في سورية، التي ينتمي معظم أهلها إلى المذهبين؛ الحنفي والشافعي، وتبين أن كل ما وصفوه بأنه بدعة كان أصلاً، بشهادة مراجعهم الفقهية وأئمتهم، بل ثبت في بعضها أن البدعة ما دعا إليه إخوتنا، هداهم الله، لمجرد أن الأثر لم يبلغهم، أو أن علمهم لم يصل إلى دليل عليه!

---

٧٣ الروح، لابن القيم، ص١٧.

التصوف

بغض النظر عن أصل المصطلح، وهل نسبته إلى لبس الصوف تقشفاً، أو التشبه بأهل الصفة من فقراء المهاجرين، أو إلى الصفاء، أو الصفوة، أو إلى النُّسّاك من بني صوفة بن أد بن طابخة، فقد تناول ذلك كل من كتب عن التصوف، وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية أن التسمية نسبة إلى لبس الصوف من أجل الاخشيشان والتقشف وعدم التنعم بمتاع الدنيا، فقال: «فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة للصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن (يعني الحسن البصري)، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا يُقال: فقهٌ كوفي وعبادة بصرية»[٧٤]، ويقول: أيضاً «وهؤلاء نُسِبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم (صوفي) وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال»[٧٥]، وكلام شيخ الإسلام يفنّد ما ذهب إليه بعض المحدثين، متبعين في ذلك أقوال بعض المستشرقين، أن كلمة

---

[٧٤] مجموع الفتاوى، ج١١، ص٥، ٦.

[٧٥] المصدر السابق، ص١٥.

«صوفي» مأخوذة من «صوفيا» اليونانية بمعنى «الحكمة»، وأن المسلمين عندما فلسفوا عبادتهم (أي قرنوها بالفلسفة) حرفوا الكلمة وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الروحية! أو أنها مأخوذة من «ثيوصوفيا» بمعنى «الإشراق» أو «محب الحكمة الإلهية». وقد وقعوا في هذا الخطأ بسبب المشابهة الصوتية بين كلمة «صوفي» والكلمة اليونانية «صوفيا»، وللشبه الموجود بين كلمة «تصوف» و«تيوصوفيا»، إلا أن المستشرق «نولدكه» أثبت خطأ هذا الزعم، وأيده آخرون، للبراهين القوية التي أقامها[٧٦]. وروي عن سفيان الثوري، رحمه الله، أنه قال: «لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء»[٧٧]، وسفيان الثوري ولد في نهاية القرن الأول (٩٧-١٦١هـ)، وهذا يعضد ما ذكره شيخ الإسلام؛ أي أن مصطلح «الصوفية» ظهر في القرن الثاني عند أصحاب الحسن البصري، وكان الحسن البصري، رحمه الله، شديد الخوف من الله، «قال أبو عبيد الله المرزباني: شهد الحسن جنازة النوار امرأة الفرزدق، فقال له وهو عند القبر: يا أبا فراس، ما أعددت لهذا المضجع؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله مُذْ ثمانون سنة، فقال له الحسن: هذا العمود

---

[٧٦] موسوعة ويكيبيديا.

[٧٧] اللمع للطوسي ص ٤٢، ٤٣، وينظر «الفتوحات الإلهية» لابن عجيبة الحسني ص٥٣.

فأين الطنب؟ فقال الفرزدق:

أَخـافُ وراءَ القَـبرِ إنْ لَـمْ يُعـافِني
أشَـدَّ مِـنَ المـوتِ الْتِهـاباً وَأَضْيَقـا

إِذا جَـاءني يـومَ الـقيـامـةِ قـائـدٌ
عَنيفٌ وَسَـوّاقٌ يَســوقُ الفَرَزْدقـا

لَقَدْ خابَ مِن أولادِ آدمَ مَن مشـى
إلى الـنـارِ مَغـلـولَ الـقِلادةِ أَزرَقـا

يُـقـادُ إلى نـارِ الجحـيـمِ مُسـَرْبَـلاً
سَـرابيـلَ قَطْـرانٍ لِباسـاً مُحَـرّقـا

قال: فرأيت الحسن يدخل بعضه في بعض (أي ينكمش من شدة الخوف، ثم قال: حسبك!»[٧٨]، وروى الحادثة ابن منظور في «مختصر تاريخ دمشق»، وابن كثير في «البداية والنهاية، مع زيادة «فبكى الحسن حتى بلَّ الثرى»[٧٩]، وكان الحسن رحمه الله إمام أهل البصرة، فترك في أتباعه هذه الخشية والخوف من الله تعالى، وهذا

---

٧٨ شرح شافية ابن الحاجب، لرضي الدين الأسترابادي، ج٤، ص٧٨.
٧٩ البداية والنهاية، لابن كثير، ج٩، ص٢٩٥.

ما يؤكد ما أورده شيخ الإسلام ابن تيمية عن نشوء التصوف في البصرة على يد أصحاب عبد الواحد بن زيد، الذي كان من أصحاب الحسن البصري. وقد احتج المعترضون على التصوف بأن هذه التسمية لم تظهر إلا في القرن الثالث، فهو مذهب ابتداعي محدث، والنبي ﷺ يقول: ﴿شرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ﴾[٨٠]، ويقول الصوفية إن مذهبهم على الكتاب والسنة، وإن هذه كانت أحوال عدد من الصحابة، فيها النسك وفيها الزهد وفيها السعي الحثيث إلى الله تعالى بالذكر والعبادة، وهناك آيات كثيرة وأحاديث تأمر أو تذكّر بذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا قَلِيلا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٨١]، **وقوله سبحانه:** ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۞ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

---

[٨٠] المجتبى، للنسائي، ٣/ ١٨٨، ومسند أحمد، ٣/ ٣١٠، باختلاف يسير.

[٨١] سورة الذاريات: ١٥-١٩.

يُنفِقُونَ ۞ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٨٢]، **وقوله جل اسمه:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٨٣]، **وجاء أمره عز وجل واضحاً، في قوله:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، **والكثير لا حد له، وكثير من الناس يعملون بذلك دون أن يتسموا بمسمى «صوفية» أو غيره، فالتصوف سلوك، وهو بمعاييره وأسسه التي مرّ ذكرها كان موجوداً، بغض النظر عن المصطلح الذي أطلق في ما بعد. وإطلاق التسميات على جماعات بعينها كان في أيام النبي ﷺ، فظهرت مصطلحات «المهاجرين» و«الأنصار» و«أهل الصفة» و«أهل البيت» و«الصحابة» و«القرّاء» و«المؤلفة قلوبهم»، وكلهم مشمولون بمسمى «المسلمين»، ونزل قرآن في الذين سخروا من القراء ووَصَمَهُم بالكفر، إذ «قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنةً،**

---

[٨٢] سورة السجدة: ٢٥-١٧.
[٨٣] سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

وأجبننا عند اللقاء»[٨٤] **فأنزل الله تعالى:** ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٨٥]، **ثم أطلقت بعد ذلك العصر مسميات على الفرق، سواء في ذلك الضالة منها أم التي على الهدى، فكان هناك «النواصب» و«الشيعة» و«الخوارج» و«الرافضة» و«المعتزلة» و«الجهمية» و«القدرية» و«الدهرية»، كما كان هناك «الأشاعرة» و«الماتريدية» و«أهل الحديث» و«المالكية» و«الحنفية» و«الشافعية» و«الحنابلة» و«أهل السنة والجماعة» و«الجمهور» و«الصوفية»، ولم تطلق هذه المصطلحات على الفرق والجماعات إلا بعد انتشار مناهجها ودعوة أتباعها إليها، فكثير منها كان سلوكاً قائماً بلا تسميات، ثم تحولت مع الزمن إلى مدارس أكسبتها المسميات لتمييز أتباعها من غيرهم ، وحتى مصطلح «السلفية» لم**

---

[٨٤] تفسير ابن كثير للآية.
[٨٥] سورة التوبة: ٦٤-٦٦.

يكن ـ في القرون الثلاثة الأولى، والابتداع لا يكون في المسميات وإنما في السلوك، ونحن هنا لا نبحث في التسمية أو الاصطلاح، وإنما في مدلولها وممارسة أصحابها في الواقع، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أما لفظ (الصوفية) فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري»[٨٦] ومن يدقق في كلام ابن تيمية رحمه الله، وهو العالم العربي القح الفصيح، يقف عند كلمة (لم يكن مشهوراً) وهذا لا يعني أنه لم يكن موجوداً، وإنما لم يشتهر، ويؤكد ذلك ما ذكره بأمانة العالم الفقيه النزيه أنه روي التكلم به عن عدد من الأئمة، ومنهم الحسن البصري الذي ولد في خلافة عمر بن الخطاب (٢١هـ)، وأرضعته أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي ﷺ، ودعا له عمر بن الخطاب وعدد من الصحابة، وقد سمع من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو تابعيٌّ من أهل القرن الأول، وسفيان الثوري رحمه الله ولد في نهاية القرن الأول (٩٧هـ)، وأما ما قصده شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله «تكلم به» فلا يعني أنه ذكر مسمى

---

٨٦ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٥.

«التصوف» وإنما قصد أنه تكلم بمضامينه قبل أن ينتشر ويتخذ المسمى الجديد. ويقول ابن تيمية: «ثم (التصوف) عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم: الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوي. وأشباه ذلك، وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى (الصِّدّيق)، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصّدّيقون، كما قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٨٧]**، لهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصّدّيقين، فهو الصّدّيق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصّدّيق من أهل هذه الطريق، فهو أخصُّ من الصّديق المطلق، ودون الصّدّيق الكامل الصّدّيقيّة من الصحابة والتابعين وتابعيهم»[٨٨]. وهذا إنصاف بَيِّنٌ من شيخ الإسلام رحمه الله، وإظهار للوجه المشرق للتصوف، ولو تكلّم بعض أهل التصوف عنه لما قدموا صورة أنصع منها.**

---

[٨٧] سورة النساء: ٦٩.

[٨٨] مجموع الفتاوى، ج١١، ص١٧.

أصناف الصوفية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولأجل ما وقع منهم (يعني الصوفية) من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنّة، ونُقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم، وادّعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكِلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاصٍ لربه. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم؛ كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطرق أنكروه وأخرجوه من الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في (طبقات الصوفية)، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ

بغداد، فهذا أصل التصوف»[٨٩]. ونلاحظ أن شيخ الإسلام لم يصف الصوفية بالتبديع ولا الشركيات، كما ادعى كثير ممن جاء بعده بقرون، فحين وصفهم قال: «الصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله» وقال: «ففيهم السابق وفيهم المقتصد»، لكنه حين ذكر الظالم العاصي فلم يقل «وفيهم» وإنما قال: «ومن المنتسبين إليهم» أي مدّعِي الانتساب إليهم وليس منهم، وكذلك فعل حين ذكر طوائف أهل البدع والزندقة، فقال: «وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة» أي ادعوا الانتساب إليهم، وأكد أنها مجرد دعوى لا حقيقة لها حين أضاف: «وعند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، وضرب مثلاً لذلك الحلاج وما قاله فيه أئمة الصوفية، ثم ختم بكلمة فصل، فقال: «فهذا أصل التصوف»، أي ما ذكره عنهم في النص السابق. ثم يصنفهم بعد ذلك في ثلاثة أصناف، فيقول: «ثم إنه (يعني التصوف) بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم. فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم، (يعني الذين ذكرهم في النص السابق ولا غبار عليهم وقد زكاهم رحمه الله)، وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وُقِفت عليهم الوقوف

---

[٨٩] مجموع الفتاوى، ج١١، ص١٨.

كالخوانك (الخانقاهات أو التكايا)، فلا يشترط أن يكونوا من أهل الحقائق، فإن هذا عزيز، وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك، ولكن يشترط فيهم (صوفية الخوانك) ثلاثة شروط: أحدها العدالة الشرعية، بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم. والثاني التأدب بآداب أهل الطريق، وهي الآداب الشرعية، في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها. والثالث ألا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جمّاعاً للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقاً، فإنه لا يستحق ذلك. وأما صوفية الرسم فهم المقتصرون على النسبة (الانتساب الاسمي) فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم»[٩٠]. وهذا التصنيف من شيخ الإسلام جاء منصفاً، فلم يَسِمْ أحداً منهم بالتبديع أو بالشرك، بل أكد صحة منهجهم في الشرط الثالث، وفي نفي استحقاق التصنيف عن الفاسق أو الخالي من الآداب الشرعية، وأن هناك صنفاً ينتسب إليهم ادّعاء وزوراً بلا

---

[٩٠] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص١٨-٢٠.

حقيقة عمل أو سلوك، وأن الجاهل يظنه منهم، والحقيقة أنه «ليس منهم». ومع ذلك فقد يخطئ المجتهد ويزل العالم، سواء من الصوفية أم من غيرهم، والإنصاف يقتضي ألا يُحسب خطؤه على المنهج، ولا يُخرَج الجماعة بخطأ فرد أو أفراد من دائرة الإسلام أو يصنفوا في المبتدعين، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإن كثيراً من المؤمنين - المتقين أولياء الله - قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة، فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده، فلا بد أن يصدر منه خطأ إما في علومه وأقواله، وإما في أعماله وأحواله، ويثابون على طاعتهم، ويغفر لهم خطاياهم، فإن الله تعالى قال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٩١] **... ومن**

---

[٩١] سورة البقرة: ٢٠٤-٢٠٦.

جعل كلَّ مجتهد أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً فهو مخطئ ضال مبتدع»[٩٢]. وهذا ما يقع فيه كثير منا عند تصنيف الجماعات أو تقويم العلماء، فكثرت المطاعن ومواطن الإعابة، وتأجج التنافر، وتجذّرت البغضاء، وبلغ الأمر حدّ التكفير الصريح، أو بألفاظ غير مباشرة، للتحذير النبوي: ﴿أَيُّما رَجُلٍ قالَ لأَخِيهِ: يا كافِرُ، فقَدْ باءَ بها أحَدُهُما﴾[٩٣]، فأين إخوتي السلفيون من كلام شيخ الإسلام وأحكامه؟ وأين الصوفية من اتّباع منهج أسلافهم؟ أم أن كلاً من الطرفين يأخذ من الكلام والعبارات أشياء مجتَزأة تخدم رأيه وترجحه، ليروّجها ويطمس الحقيقة الناصعة في منهج شيخ الإسلام ونقده النزيه البعيد عن الهوى والخالي من الجور والافتراء، ليبقى العداء قائماً بين فئتين عظيمتين من المسلمين تشكلان النسبة الأكبر والأوسع انتشاراً في العالم الإسلامي، فمتى نصحو يا أمة محمد ﷺ، ونعمل بقول ربنا: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٩٤]، وقول نبينا ﷺ: ﴿لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخْوانًا﴾[٩٥].

---

٩٢ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص١٥.
٩٣ صحيح البخاري، برقم٦١٠٤.
٩٤ سورة آل عمران: ١٠٣.
٩٥ صحيح البخاري، برقم ٦٠٦٥.

الصوفي والمتصوف

من جماليات اللغة العربية أن أي زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، فصيغة «تفعّل» من دلالاتها المطاوعة، مثل: تفكّك وتكسّر، والصيرورة، مثل: تحجّر وتهوّد وتنصّر وتمجّس، والتكلف، مثل: تحلّم، وتجلّد، وقد يكون في الصيرورة معنى الانتساب، مثل: تكوّف وتمصّر، ومثل ذلك يقال في «تصوّف» و«تسلّف»، فقد يكون صيرورة حقيقية، أي صار صوفياً أو سلفياً، مثل «تنصّر»، وقد يكون صيرورة انتساب بالسكنى، مثل: تكوّف. ولذلك فرّق أهل العلم بين «الصوفي» و«المتصوف»، ومرّ بنا في تصنيف شيخ الإسلام ابن تيمية الصنف الثالث، «صوفية الرسم» أي مدّعو التصوف، أو من يسميهم أئمة التصوف «المتصوفة» للتمييز بينهم وبين «الصوفية» الذين صنفهم شيخ الإسلام في المرتبتين: «صوفية الحقائق»، و«صوفية الأرزاق»، وأخرج منهم صوفية الرسم (المتصوفة) فقال: «فهم المقتصرون على النسبة... بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم»[٩٦]. وقد فرّق الشيخ أحمد الرفاعي، رحمه الله، بين المتصوف والصوفي صراحةً، فقال: «أيها المتصوف، لِمَ هذه البطالة؟ صِرْ صوفياً حتى نقول لك: أيها الصوفي»[٩٧].

---

[٩٦] سبق ذكر المصدر في الهامش ٩٠.

[٩٧] البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٥٠.

الصوفية والمتصوفة:

لو قدّمنا إلى العالم صوراً لأفراد من تنظيم «داعش» وهم يرتكبون الجرائم التي تقشعر لها الأبدان، أو لشبان من المسلمين الذين يتسكعون في بارات أوربا ومواخيرها، أو من المسلمين الذين يسهرون في النوادي الليلية مع نسائهم بملابسهن نصف العارية فيشربون الخمور معاً ويراقص بعضهم نساء بعض، كما يحصل في بعض البلاد العربية، أو صوراً لأناس من الرافضة وهم يجلدون أنفسهم بالسلاسل حتى تَدمى أجسادهم، وقلنا لهم «هؤلاء هم المسلمون أتباع محمد ﷺ»، فهل يوافقنا على ذلك أحد؟ مع أن المذكورين جميعاً لو سألتهم لقالوا إنهم مسلمون! ولكن الحقيقة أن إسلامهم انتمائي مجرد لا يتطابق مع المنهج الذي جاء به نبي الإسلام محمد ﷺ. وربما يتوب بعضهم ويعود إلى المنهج الصحيح، لكننا في الوقت ذاته لا يمكننا أن نُخرج من إطار الإسلام من ينطق بالشهادتين ولا يشرك بالله في قول أو فعل أو اعتقاد من أمثال أقوال كثير من الرافضة وأفعالهم واعتقادهم، وكذلك لا نستطيع تقديمهم إلى العالم على أنهم نموذج للإسلام. وهذه حال المتصوفة في المجتمع الصوفي، فهناك «صوفي» لزم المنهج فسار على الكتاب والسنة ولازم حسن الخلق، واشتغل بالفكر والذكر والعبادة والطاعات والقربات، وهناك «متصوف» أخذ الرداء وتسمّى بالاسم، ولُبِّسَ عليه فَضَلَّ،

فعمل بما يوسوس له به الشيطان ظاناً أنه إلهام، فتمسَّح بالقبور واستغاث بالأولياء وانزلق إلى سبل الشرك، واستبدل بالسُّنّة البدعة، وبالهدى الغي، وهذا لا يمكن في حال من الأحوال تقديمه على أنه نموذج للتصوف. وهذا ما أكدته مضامين كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ الصوفي أحمد الرفاعي، رحمهما الله.

فإذا نظرنا إلى التصوف من خلال ما مر بنا، بعيداً عما أحدث «المتصوفة» في القرون الأخيرة من بدع وشركيات، وجدنا أن منهج «الصوفية» صحيح، وسلوكهم إلى الله صادق، وسيرهم حثيث على خطا النبي ﷺ، ملازم للشرع، عامل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، نابذ للبدع، منكر للمحدثات، حتى إنه ليصحَّ أن نسميه «سلفية ذلك العصر»، لكن السلفيين يأخذون عليهم اليوم مآخذ أخرى غير التسمية، وسنفرد لكل منها مبحثاً، إن شاء الله تعالى، نبين فيه وجهتي النظر؛ السلفية والصوفية، وحجة كل منهما ومستنده، ونثبت ما كان حقاً واتباعاً، وننكر ما كان باطلاً وابتداعاً.

البدع

البدعة لغةً: ابتداءُ الشيء وصنعُه لا عن مِثال سابق.

البدعة شرعاً: اختلف العلماء في صياغة ألفاظ تعريف البدعة، لكن معانيهم كانت متقاربة، ومن ذلك:

الشاطبي: «عبارة عن طريقة في الدين مُختَرَعة تُضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبُّد لله سبحانه».

السيوطي: «عبارة عن فعلةٍ تُصادم الشريعة بالمُخالفة، أو تُوجِب التعاطي عليها بزيادةٍ أو نُقصان».

ابن عثيمين: «التعبد لله بما لم يَشرعه، أو بما ليس عليه النبي ﷺ، ولا خلفاؤه الراشدون».

ابن باز: «هي العبادة المحدثة، التي ما جاء بها الشرع».

وخلاصة أقوالهم أن البدعة «ما أُحدث في الدين على خلاف ما شرع الله تعالى أو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من عقيدةٍ أو عمل».

أو «إحداث شيء في الدين ليس منه» والضابط في كل ما سبق قول النبي ﷺ: ﴿مَن أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا ما ليسَ فِيهِ، فَهو رَدٌّ﴾[٩٨]. قال النووي رحمه الله: «الردُّ: هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتَدٍّ به».

ولكن هذه التعريفات تتعارض مع ما جاء عن السيدة عائشة رضي

---

[٩٨] صحيح البخاري، برقم ٣٦٩٧.

الله عنها في قولها: «أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشِّبْعُ، إن القوم لما شبعت بطونهم، جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا»[٩٩]، كما يتناقض مع ما يراه بعضهم من شأن أكل المنخول، والأكل على خوان (طاولة)، لأن النبي ﷺ لم يفعله، مع أن هذه من أمور الدنيا وليست من أمور الدين! فقال بعضهم إنها من البدع التي لا حرمة فيها، فقسموا البدع خمسة أقسام، قال بذلك طائفة من العلماء والأئمة، منهم العز بن عبد السلام، والنووي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والسخاوي وابن حزم، وغيرهم، ونظمها الإمام ابن غازي المكناسي في قوله:

كُنْ تـابِعـاً وَوَافِقَنْ مَنِ اتَّبَعْ ... وَقَسِّـمَنْ لِخَمْسـةٍ هَذي البِدَعْ:

واجِبـةٌ: كَمِثْـلِ كَتْـبِ العِلْمِ ... وَنَقْطِ مُصْـحَفٍ لأجْلِ الفَهْمِ

وَمُسْـتَحَبَّةٌ: كَمِثْـلِ الكانِسِ ... وَالجِسْـرِ وَالمِحْرابِ وَالمَدارِسِ

ثُمَّ مُبـاحـةٌ: كَمِثْـلِ المِنْخُـلِ ... وَذاتِ كُـرْهٍ كِـخِـوانِ المَـأْكَـلِ

ثُمَّ حَرامٌ كَاغْتِسـالٍ بِالفُتاتْ ... وَكَاسِياتٌ عـارِياتٌ مائِـلاتْ

الكانس: عامل النظافة. واغتسال بالفتات: بماء فيه بقايا طعام.

وقد احتج بعضهم بما مر بنا من قول عمر بن الخطاب، رضي الله

---

[٩٩] قوت القلوب، لأبي طالب المكي، ٢٨٣/٢، وينظر إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ٨٦/٣، وسبل السلام، للصنعاني، ٦٥٢/٢، وضعفه الألباني.

عنه، حين جمع الناس على صلاة التراويح: «نعم البدعة». إلا أن بدعة عمر تدخل في السُّنّة، لقوله ﷺ: ﴿فعليكم بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدين المهديِّينَ، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ﴾[١٠٠]، فلا حجة فيه، وبذلك نعود إلى تعريف ابن عثيمين رحمه اللّه: «التعبد للّه بما لم يَشرعه، أو بما ليس عليه النبي ﷺ، ولا خلفاؤه الراشدون» لأن فيه أكثر من احتراز، فقد خص في تعريفه «التعبد للّه» فأخرج منه ما يتعلق بأمور الدنيا، وحصر هذا التعبد البدعي بما لم يرد في ثلاثة مصادر: «ما شرعه اللّه»، و«بما ليس عليه النبي ﷺ» وهو السنة الشريفة، وهي كل قول أو عمل أو تقرير نبوي، «وبما ليس عليه الخلفاء الراشدون»، فلا يعم الصحابة، لأن النص خص الخلفاء الراشدين، فتعريفه، رحمه اللّه، أشمل وأحصن من غيره.

وإلحاق النبي ﷺ سنة الخلفاء الراشدين بسنته لم يأت من فراغ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١٠١]**، فهو دليل على أن اللّه سبحانه سيلهمهم ويسدد آراءهم ويلزمهم «الشورى»، وكان أبو بكر يستشير عمر، رضي اللّه عنهما، وأحياناً يرجع عن رأيه إلى رأي عمر، وكان عمر، وهو المخصوص بالإلهام في الحديث المشهور،**

---

[١٠٠] موافقة الخبر الخبر، لابن حجر العسقلاني، ١/ ١٣٦. من حديث العرباض بن سارية، ورواه الترمذي والسيوطي وأحمد والوادعي وأبو داوود وابن تيمية، بألفاظ مختلفة.
[١٠١] سورة النجم: ٣، ٤.

يستشير علياً، رضي الله عنهما، وكان إذا جاءته مسألة لا علم له فيها سأل الصحابة رضي الله عنهم؛ إن كان أحدهم سمع من رسول الله ﷺ شيئاً في ذلك، كما حدث في طاعون الشام، وفي بعض مسائل المواريث، فلا عمر ولا علي ولا غيرهما من الصحابة، رضي الله عنهم، سمعوا كل ما قاله رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا يذهبون إلى أعمالهم من زراعة وتجارة، وكان أبو هريرة أكثرهم رواية للحديث؛ لأنه كان من أصحاب الصُّفّة، يقيم في المسجد النبوي وليس لديه عمل يصرفه فيفوته شيء كالذي يفوتهم، فكان عمر يسأل الصحابة في ما لم يسمعه من النبي ﷺ، وحتى ابنه عبد الله؛ حين سمع حديث اتّباع الجنائز من أبي هريرة ذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ليتأكد منها، فقالت: «صدق أبو هريرة»، فقال: «كم فاتنا من قراريط»! وبقية الصحابة رضي الله عنهم مثلهم في ذلك مثل عمر، فقد ينكر أحدهم أمراً فيخبره صحابي آخر بشيء عن النبي ﷺ في ذلك الأمر فيرجع عن رأيه، وكون الصحابة عُدولاً، ومنهم من هو مبشرٌ بالجنة، لا يعني أنهم لا يخطئون، فهم بَشرٌ، ولا عصمة إلا للأنبياء، لكن معنى «عدول» أنهم لا يكذبون على رسول الله ﷺ ولا يفترون على الله، لكنهم قد يخطئون، كما حصل عند ابن عباس في قوله بجواز متعة النساء، فلما أنكر عليه الصحابة ذلك وذكروا

له الحديث النبوي في تحريمها، ولم يكن سمعه، رجع عن قوله، وكقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في جواز إرضاع الكبير من أجل النظر، فخالفها في ذلك سائر أمهات المؤمنين وجميع الصحابة، رضي الله عنهم. ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، ويقول: «إنهما ليستا من كتاب الله، وإنما أُمِرَ النبي ﷺ بأن بالتعوّذ بهما»، قال ابن حجر العسقلاني: «قَالَ الْبَزَّار: وَلَمْ يُتَابِع اِبْنَ مَسْعُود عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَة. وَقَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَهُمَا فِي الصَّلَاة... وَقَدْ تَأَوَّلَ الْقَاضِي أَبُو بَكْر الْبَاقِلَانِيّ فِي كِتَاب «الانْتِصَار» وَتَبِعَهُ عِيَاض وَغَيْره مَا حُكِيَ عَنْ اِبْن مَسْعُود فَقَالَ: لَمْ يُنْكِر اِبْن مَسْعُود كَوْنهمَا مِنْ الْقُرْآن، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ إِثْبَاتهمَا فِي الْمُصْحَف، فَإِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنْ لا يَكْتُب فِي الْمُصْحَف شَيْئًا إِلا إِنْ كَانَ النَّبِيّ ﷺ أَذِنَ فِي كِتَابَته فِيهِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغهُ الإِذْن فِي ذَلِكَ، قَالَ: فَهَذَا تَأْوِيل مِنْهُ وَلَيْسَ جَحْدًا لِكَوْنِهِمَا قُرْآنًا»[١٠٢]، وشاهدنا قول الباقلاني: «وَكَأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغهُ الإِذْن فِي ذَلِكَ»، وهذا بالتأكيد أصح المحامل، فلا يمكن لمثل ابن مسعود أن ينكر شيئاً إلا أن يكون لم يبلغه فيه شيء عن رسول الله ﷺ، وذلك من تشدده في التزام السنة واجتناب البدع، ومن أهم صفات الصحابة

---

[١٠٢] فتح الباري، لابن حجر، ٨/ ٧٤٣.

رضي اللّه عنهم أنهم رجّاعون إلى الحق غير متعصبين لآرائهم.

البدعة عند أئمة الصوفية:

قال الجنيد البغدادي: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول اللّه ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»[١٠٣]. وقال: «مَذْهَبُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»[١٠٤].

قال عبد القادر الجيلي: «طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة، فمن خالفهما فليس منا». وقال: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طِرْ إلى الحق عزَّ وجلَّ بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد رسول اللّه ﷺ»[١٠٥].

قال أحمد الرفاعي: «فَالنَّصَّ النَّصَّ، وإياكم والأخذ بالرأي، فما هلك من هلك إلا بالرأي، هذا الدين لا يحكم فيه بالرأي أبداً، حكّموا آراءكم في المباحات، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله... أيّدوا هذه العصابة بترك الدعوى، شيّدوا أركان هذه الطريقة المحمدية بإحياء السُّنّة وإماتة البدعة... الفقير على الطريق ما دام

---

١٠٣ الطبقات الصوفية، للسلمي، ص ٥٠.
١٠٤ الاعتصام، للشاطبي، ج١، ص١٢٨.
١٠٥ الفتح الرباني، للكيلاني، ص ١٧٩.

على السنّة، فإن حاد عنها زل عن الطريق [١٠٦]. وقال: «إذا رأيتم واعظاً أو قاصاً أو مدرّساً فخذوا منه كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام أئمة الدين الذين يحكمون عدلاً ويقولون حقاً، واطرحوا ما زاد، وإن أتى بما لم يأت به رسول الله ﷺ فاضربوا به وجهه، الحذر الحذر من مخالفة أمر النبي العظيم صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[١٠٧]... كان العراق أخّاذة المشايخ، وعيبةَ العارفين، مات القوم، الله الله بمتابعتهم، اخلفوهم بحسن الخلق، اعقبوهم بصحة الصدق، لا تلبسوا ثوب قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[١٠٨]...»[١٠٩]

قال أبو الحسن الشاذلي: إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إنَّ الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة»[١١٠]

---

١٠٦ البرهان المؤيد، ص٢٦، ٢٧.
١٠٧ سورة النور: ٣٦.
١٠٨ سورة مريم: ٥٩.
١٠٩ البرهان المؤيد، ص٣٨، ٣٩.
١١٠ ذكره محقق كتاب التفسير الكبير، لابن تيمية، ج٢، هامش ص٥٤.

قال: أبو القاسم النَّصرآباذِي: «أَصْلُ التَّصَوُّفِ مُلازَمَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَرْكُ الْبِدَعِ وَالأَهْوَاءِ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِ الْمَشَايِخِ، وَرُؤْيَةُ أَعْذَارِ الْخَلْقِ، وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الأَوْرَادِ، وَتَرْكُ ارْتِكَابِ الرُّخَصِ وَالتَّأْوِيلاتِ»[١١١].

قال ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ: «مِنْ عَلامَةِ حُبِّ اللَّهِ مُتَابَعَةُ حَبِيبِ اللَّهِ ﷺ فِي أَخْلاقِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَمْرِهِ وَسُنَّتِهِ»[١١٢].

قال يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ: «اخْتِلافُ النَّاسِ كُلِّهِمْ يَرْجِعُ إِلَى ثَلاثَةِ أُصُولٍ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ضِدٌّ، فَمَنْ سَقَطَ عَنْهُ، وَقَعَ فِي ضِدِّهِ: «التَّوْحِيدُ، وضده الشرك»، و«السنة، وضدها البدعة»، و«الطاعة، وضدها المعصية»[١١٣].

قال أبو بكر الدَّقّاق: «كُنْتُ مَارًّا فِي تِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَخَطَرَ بِبَالِي أَنَّ عِلْمَ الْحَقِيقَةِ مُبَايِنٌ لِعِلْمِ الشَّرِيعَةِ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ: كُلُّ حَقِيقَةٍ لا تَتْبَعُهَا الشَّرِيعَةُ فَهِيَ كُفْرٌ»[١١٤].

قال الحسن بن عليّ الجوزجانِيّ: «الطُّرُقُ إِلَى اللَّهِ كَثِيرَةٌ، وَأَوْضَحُ

---

١١١ الاعتصام، للشاطبي، ج١، ص١٣١.
١١٢ المصدر السابق، ص١٢١.
١١٣ المصدر نفسه، ص١٢٢.
١١٤ المصدر نفسه، ص١٢٣.

الطُّرُقِ وَأَبْعَدُهَا عَنِ الشُّبَهِ: اتِّبَاعُ السُّنَّةِ قَوْلاً وَفِعْلاً وَعَزْماً وَعَقْداً وَنِيَّةً، لأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[١١٥]، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى السُّنَّةِ؟ فَقَالَ: مُجَانَبَةُ الْبِدَعِ، وَاتِّبَاعُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الأَوَّلُ مِنْ عُلَمَاءِ الإِسْلامِ، وَالتَّبَاعُدُ عَنْ مَجَالِسِ الْكَلامِ وَأَهْلِهِ، وَلُزُومُ طَرِيقَةِ الاقْتِدَاءِ، وَبِذَلِكَ أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾[١١٦]»[١١٧].

قال أبو محمد بن عبد الوهّاب الثَّقفيّ: «لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ إلا مَا كَانَ صَوَاباً، وَمِنْ صَوَابِهَا إلا مَا كَانَ خَالِصًا، وَمِنْ خَالِصِهَا إلا مَا وَافَقَ السُّنَّةَ»[١١٨].

قال أبو حفص الحداد: «مَنْ لَمْ يَزِنْ أَفْعَالَهُ وَأَحْوَالَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَتَّهِمْ خَوَاطِرَهُ، فَلا تَعُدَّهُ فِي دِيوَانِ الرِّجَالِ».

وَسُئِلَ عَنْ الْبِدْعَةِ؟ فَقَالَ: «التَّعَدِّي فِي الأَحْكَامِ، وَالتَّهَاوُنُ فِي السُّنَنِ، وَاتِّبَاعُ الآرَاءِ وَالأَهْوَاءِ، وَتَرْكُ الاتِّبَاعِ وَالاقْتِدَاءِ»[١١٩].

قال أبو حامد الغزالي: إنَّ سالك سبيل الله قليل، والمدّعي فيه

---

[١١٥] سورة النور: ٥٤.

[١١٦] سورة النحل: ١٢٣.

[١١٧] الاعتصام، للشاطبي، ج١، ص١٢٣.

[١١٨] المصدر السابق، ج١، ص١٢٤.

[١١٩] المصدر نفسه، ج١، ص١٢٧.

كثير، ونحن نعرّفك علامتين له، الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذه السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، والثانية: لا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض؟!(١٢٠).

قال السّري السّقطي: «التصوف اسم لثلاثة معانٍ، هو الذي لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلم بباطن في علمٍ ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار المحارم»(١٢١).

قال أَبُو بَكْرِ بْنُ سَعْدَانَ: «الاعْتِصَامُ بِاللَّهِ هُوَ الامْتِنَاعُ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْمَعَاصِي وَالْبِدَعِ وَالضَّلالاتِ»(١٢٢)

قال الشاطبي: لأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْجُهَّالِ يَعْتَقِدُونَ فِيهِمْ (في الصوفية) أَنَّهُمْ مُتَسَاهِلُونَ فِي الاتِّبَاعِ، وَأَنَّ اخْتِرَاعَ الْعِبَادَاتِ وَالْتِزَامَ مَا لَمْ يَأْتِ فِي الشَّرْعِ الْتِزَامُهُ مِمَّا يَقُولُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ عَلَيْهِ، وَحَاشَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِدُوهُ أَوْ يَقُولُوا بِهِ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ بَنَوْا عَلَيْهِ طَرِيقَتَهُمْ: اتِّبَاعُ

---

[١٢٠] ميزان العمل، للغزالي، ص٩٩.
[١٢١] مفاهيم يجب ان تصحح، محمد بن علوي المالكي، ص١١١.
[١٢٢] الاعتصام، للشاطبي، ج١، ص١٢٤.

السُّنَّةِ، وَاجْتِنَابُ مَا خَالَفَهَا، حَتَّى زَعَمَ مُذَكِّرُهُمْ، وَحَافِظُ مَأْخَذِهِمْ، وَعَمُودُ نِحْلَتِهِمْ «أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ» أَنَّهُمْ إِنَّمَا اخْتُصُّوا بِاسْمِ التَّصَوُّفِ انْفِرَادًا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْبِدَعِ... فَانْفَرَدَ خَوَاصُّ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُرَاعُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ اللَّهِ الْحَافِظُونَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْغَفْلَةِ بِاسْمِ التَّصَوُّفِ»[١٢٣].

قال السيوطي: «إن التصوف في نفسه علم شريف وأن مداره على أتباع السنة وترك البدع، وعلمت أيضاً أنه قد كثر الدخيل فيه من قوم تشبّهوا بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع»[١٢٤].

قال سهل التّستري: «أصول طريقتنا سبعة: التَّمسُّك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق».[١٢٥].

وقد مر بنا قول محمد مهدي الرواس:

وغَيْرُ الشَّرْعِ في الإسلامِ رَدٌّ   وَدِينُ الشَّرعِ دِيْنُ الأَوْلِياءِ[١٢٦]

---

[١٢٣] الاعتصام للشاطبي، ج١، ص١١٩، ١٢٠.
[١٢٤] تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص٥٧.
[١٢٥] قضية التصوف المنقذ من الضلال، عبد الحليم محمود ص ١٣٠.
[١٢٦] سبق بالهامش رقم ٢٦.

وهذا غيض من فيض من أقوال أئمتهم في التشديد على التزام السنة والتحذير من البدع، ومن أراد الاستزادة ففي المصادر التي أخذنا منها ما يروي الغليل.

وبعد أن ناقشنا ما أخذه إخواني السلفيون على المجتمع، ننتقل إلى مآخذهم على الصوفية، وبالله التوفيق.

الذكر الجماعي

يأخذ السلفيون على الصوفية أنهم يجتمعون للذكر، ويعقدون له المجالس، ويقولون: هذا لم يفعله رسول الله ﷺ وأصحابه، فهو بدعة، ثم يسألون: هل هناك خير لم يدلَّ النبيُّ ﷺ أمته عليه؟ فلو كان في هذه المجالس خير لأرشد أمته إليها وأمرهم بها، إلا أنْ يظن الصوفية غير ذلك!

والحق أن النبي ﷺ لو فعلها لكانت سنة ووجب فعلها، وقد كان ﷺ حريصاً على ألا يكلف أمته ما لا يستطيعون المداومة عليه، ويشهد بذلك مراجعته لله سبحانه ليلة عرج به إلى السماء في تخفيف الصلاة بعد أن كانت خمسين، إذ نصحه نبي الله موسى عليه السلام بأن أمته لن تطيق، وكذلك كان شأن صلاة التراويح في رمضان، فحين صلى في المسجد واصطف الناس خلفه جعل صلاته في اليوم التالي في بيته، لكي لا تصبح سنة وتجب على الناس، وإنما الذي جمع الناس على صلاة التراويح عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، فعن عبدالرحمن بن عبد القاري، قال: «خَرَجْتُ مع عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنْه لَيْلَةً في رَمَضَانَ إلى المَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ؛ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، ويُصَلِّي الرَّجُلُ فيُصَلِّي

بصَلاتِهِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عُمَرُ: إنِّي أرَى لو جَمَعْتُ هَؤُلاءِ علَى قَارِئٍ واحِدٍ، لَكانَ أمْثَلَ. ثُمَّ عَزَمَ، فَجَمعهُمْ على أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ معهُ لَيْلَةً أُخْرَى والنَّاسُ يُصَلُّونَ بصَلاةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ: نِعْمَ البِدْعَةُ هذِه، والَّتي يَنَامُونَ عَنْهَا أفْضَلُ مِنَ الَّتي يَقُومُونَ. يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وكانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أوَّلَهُ»[١٢٧]. وقد جمع عمر الناس على عشرين ركعة، واليوم نجد أهل بلدان يصلونها ثمانية، وآخرين يصلونها اثنتي عشرة، وغيرهم يصلونها عشرين، ولا يُبَدِّع أحدٌ أحداً، ولو شاء أحد أن يصلي اثنتين، أو أربعاً أو غير ذلك لكان له ذلك، فالنبي ﷺ لم يلزم بها الأمة، ولكنه ﷺ كان إذا استحب أمراً ولم يرد إيجابه ذَكّر به أو أشار إليه، كقوله ﷺ في ابن عمر: ﴿نِعْمَ الرَّجُلُ عبدُ اللَّهِ، لو كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ﴾ فَكانَ بَعْدُ لا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إلا قَلِيلاً[١٢٨].

ويؤكد ذلك ما رواه أبو هريرة، قال: ﴿خطبَنا رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: أيها الناسُ، قد فُرِضَ عليكم الحجُّ فحُجُّوا، فقال رجلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسكتَ حتى قالها ثلاثًا. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: لو قلتُ: «نعَم» لوجبَتْ ولما استطعتُم، ثم قال: ذَروني ما تركتُكم، فإنما هلك من كان قبلَكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم، فإذا

---

[١٢٧] صحيح البخاري، برقم ٢٠١٠.
[١٢٨] المصدر السابق، برقم ١١٢١.

أمرْتُكم بشيءٍ فأْتُوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدَعُوه﴾[١٢٩] . أما القول إن النبي ﷺ لم يرشد أمته إلى إقامة مجالس الذكر فَوَهْمٌ، لأن النبي ﷺ وإن لم يأمر بها كي لا تجب فقد أرشد إليها وأغرى بثوابها. لكن إخوتي السلفيين يأبون هذا الالتفاف ويحتجون بالأثر المروي عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه: «عن عمرو بنِ سلَمةَ الهمْدانيِّ قال كنا نجلسُ على بابِ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ قَبل صلاةِ الغداةِ فإذا خرج مَشينا معه إلى المسجدِ فجاءنا أبو موسى الأشعريُّ فقال أخَرَجَ إليكم أبو عبد الرحمنِ بعدُ قلنا لا. فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قُمْنا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرَّحمنِ إني رأيتُ في المسجدِ آنفاً أمرًا أنكرتُه، ولم أرَ، والحمدُ للّهِ، إلا خيراً، قال فما هو فقال إن عشتَ فستراه، قال رأيتُ في المسجدِ قومًا حِلَقاً جلوساً ينتظرون الصلاةَ، في كلِّ حلْقةٍ رجلٌ وفي أيديهم حصًى، فيقول كَبِّرُوا مئةً فيُكبِّرونَ مئةً، فيقول هلِّلُوا مئةً فيُهلِّلون مئةً، ويقول سبِّحوا مئةً فيُسبِّحون مئةً، قال فماذا قلتَ لهم؟ قال ما قلتُ لهم شيئاً، انتظارَ رأيِك، قال أفلا أمرتَهم أن يعُدُّوا سيئاتِهم وضمنتَ لهم ألا يضيعَ من حسناتهم شيءٌ؟ ثم مضى ومضَينا معه حتى أتى حلقةً من تلك الحلقِ فوقف عليهم، فقال

---

[١٢٩] السنن الصغير للبيهقي، ١٣٨/٢، وينظر صحيح البخاري ٧٢٨٨.

ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا يا أبا عبدَ الرَّحمنِ حصًى نعُدُّ به التكبيرَ والتهليلَ والتَّسبيحَ. قال فعُدُّوا سيئاتِكم فأنا ضامنٌ ألا يضيعَ من حسناتكم شيءٌ، ويحكم يا أمّةَ محمدٍ (ﷺ)ما أسرعَ هلَكَتِكم! هؤلاءِ صحابةُ نبيِّكم ﷺ مُتوافرون، وهذه ثيابُه لم تَبلَ وآنيتُه لم تُكسَرْ، والذي نفسي بيده إنكم لعلى مِلَّةٍ هي أهدى من ملةِ محمدٍ (ﷺ) أو مُفتتِحو بابِ ضلالةٍ. قالوا والله يا أبا عبدَ الرَّحمنِ ما أردْنا إلا الخيرَ! قال وكم من مُريدٍ للخيرِ لن يُصيبَه، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حدَّثنا أنَّ قومًا يقرؤون القرآنَ لا يجاوزُ تراقيهم يمرُقونَ من الإسلامِ كما يمرُقُ السَّهمُ منَ الرَّميّةِ، وايمُ اللهِ ما أدري لعلَّ أكثرَهم منكم. ثم تولى عنهم، فقال عمرو بنُ سلَمةَ فرأينا عامّةَ أولئك الحِلَقِ يُطاعِنونا[١٣٠] يومَ النَّهروانِ مع الخوارجِ»[١٣١]. ولم يَرْوِ هذا الأثر أحد من أئمة الحديث الستة، وفي رواياته اضطراب في الأوقات والأمكنة، ففي رواية الدارمي أنه قبل صلاة الغداة (الفجر) في المسجد، وفي رواية أبي نعيم أنه بعد المغرب في المسجد، قَالَ: «أَخْبَرَ رَجُلٌ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ قَوْمًا يَجْلِسُونَ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ...»[١٣٢]، وفي رواية عبد الرزاق أنه في البرية: قَالَ: «سَمِعَ ابْنَ

---

١٣٠ الصواب: «يطاعنوننا» فلا وجه لحذف النون بلا عامل نصب أو جزم لفظي أو معنوي.

١٣١ سنن الدارمي، برقم ٢١٠.

١٣٢ حلية الأولياء، لأبي نعيم، ج٤، ص٣٨١.

مَسْعُودٍ، بِقَوْمٍ يَخْرُجُونَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مَعَهُمْ قَاصٌّ يَقُولُ: سَبِّحُوا...»[١٣٣] هذا الاضطراب، إضافة إلى ما في راويه وأحد رجاله من قول، جعل عدداً من الأئمة يردونه، فَردَّه السيوطي، وقال ابن حجر العسقلاني: «عمرو بن يحيى بن عمرو بن سلمة، قال يحيى بن معين ليس حديثه بشيء»[١٣٤]، وقال ابن عدي: «قال يحيى بن معين: عمرو بن يحيى بن سلمة سمعت منه مالم يكن يرضي»[١٣٥]، وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ من طريق مُجَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ[١٣٦]، وقال الهيثمي: «مُجَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ، وَثَّقَهُ النَّسَائِيُّ، وَضَعَّفَهُ الْبُخَارِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى»[١٣٧] وقد انفرد الألباني بقوله فيه: صحيح[١٣٨]. وقد قال الإمام الصنعاني: «التصحيح والتضعيف من المسائل الاجتهادية النظرية»[١٣٩]، وقال ابن الجوزي: «فمتى رأيت الحديث خارجاً عن دواوين الإسلام كالموطأ، ومسند أحمد، والصحيحين، وسنن أبي داود ونحوها فانظر فيه، فإن كان له نظير من الصحاح والحسان قرب أمره، وإن ارتبت فيه ورأيته يباين الأصول فتأمل رجال

---

١٣٣ المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني، ج٣، ص٢٢٢.
١٣٤ لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، ٤/ ٣٧٨.
١٣٥ الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، ج٥، ص١٢٢.
١٣٦ المعجم الكبير، للطبراني، برقم ٨٦٣٦.
١٣٧ مجمع الزوائد، للهيثمي، ج١، ص١٨١.
١٣٨ السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم ٢٠٠٥.
١٣٩ إرشاد النقاد، للصنعاني، ص٢.

إسناده»[١٤٠]، وتبعاً لكلام ابن الجوزي السابق، فإن رجال إسناده فيهم ضعف، وأولهم راويه عمرو بنِ سلَمةَ، قال فيه يحيى بن معين: «ليس بشيء»، وقال: «سمعت منه ما لم يكن يرضي»، والراوي عنه مجالد بن سعيد، ضعّفه ثلاثة من أئمة الحديث، على رأسهم الإمام البخاري، وأما نظائره في الصحاح فإننا نجد أحاديث تضادّه في المعنى، منها: عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ﴿لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلا حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عليهمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي مَن عِنْدَهُ﴾[١٤١]. كما أنه ﷺ رأى أصحابه مجتمعين للذكر فلم ينكر عليهم، بل العكس، فقد بشرهم بأن الله سبحانه يباهي بهم الملائكة، فعن معاوية بن أبي سفيان ﴿أن رَسولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ علَى حَلْقَةٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: ما أَجْلَسَكُمْ؟ قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ علَى ما هَدَانَا لِلإِسْلامِ، وَمَنَّ به عَلَيْنَا، قالَ: آللَّهِ ما أَجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ؟ قالوا: وَاللَّهِ ما أَجْلَسَنَا إلا ذَاكَ، قالَ: أَما إنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فأخْبَرَنِي، أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بكُمُ المَلائِكَةَ﴾[١٤٢]. فهي خيرٌ دلَّ النبي ﷺ أصحابه عليه وبشّرهم بفضله،

---

١٤٠ الموضوعات، لابن الجوزي، ج١، ص٩٩.

١٤١ صحيح مسلم، برقم ٢٧٠٠.

١٤٢ المصدر السابق، برقم ٢٧٠١.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُمْ قالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، قالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وهو أعْلَمُ منهمْ - ما يَقولُ عِبادِي؟ قالوا: يَقولونَ: يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ، ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ، قالَ: فيَقولُ: هلْ رَأَوْنِي؟ قالَ: فيَقولونَ: لا واللَّهِ ما رَأَوْكَ، قالَ: فيَقولُ: وكيفَ لو رَأَوْنِي؟ قالَ: يقولونَ: لو رَأَوْكَ كانُوا أشَدَّ لكَ عِبادَةً، وأَشَدَّ لكَ تَمْجِيداً وتَحْمِيداً، وأَكْثَرَ لكَ تَسْبِيحاً، قالَ: يقولُ: فَما يَسْأَلُونَنِي؟ قالَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ: وهلْ رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لا واللَّهِ يا رَبِّ ما رَأَوْها، قالَ: يقولُ: فَكيفَ لو أنَّهُمْ رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لو أنَّهُمْ رَأَوْها كانُوا أشَدَّ عليها حِرْصاً، وأَشَدَّ لها طَلَباً، وأَعْظَمَ فيها رَغْبَةً، قالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قالَ: يقولونَ: مِنَ النَّارِ قالَ: يقولُ: وهلْ رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لا واللَّهِ يا رَبِّ ما رَأَوْها، قالَ: يقولُ: فَكيفَ لو رَأَوْها؟ قالَ: يقولونَ: لو رَأَوْها كانُوا أشَدَّ مِنْها فِراراً، وأَشَدَّ لها مَخافَةً، قالَ: فيَقولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أنِّي قدْ غَفَرْتُ لهمْ، قالَ: يقولُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ: فيهم فُلانٌ ليسَ منهمْ، إنَّما جاءَ لِحاجَةٍ، قالَ: هُمُ الجُلَساءُ لا يَشْقَى بهِمْ جَلِيسُهُمْ﴾[143]، وهل بعد هذا

---

[143] صحيح البخاري، برقم ٦٤٠٨.

بيان؟ وهل بعده حث أو حض أو ندب؟ ألا يكفي أن يغفر الله لأهل مجلس الذكر، بل ويغفر بسببهم لرجل لم يأت لأجل الذكر، وإنما جاء في حاجة أخرى؟ هذا هو الندب النبوي المتسم بالأدب وعدم إحراج الأتباع والإثقال عليهم بما قد لا يطيقون أو يلزمهم فيتكلفون له. فالأثر المنسوب إلى ابن مسعود رضي الله عنه، ظاهره يتعارض مع الأحاديث الصحاح السابقة، فإن صح عنه فليس له إلا تأويل واحد؛ هو أنه لم تبلغه هذه الأحاديث النبوية في الندب إلى مجالس الذكر، ورضا النبي ﷺ عن فاعليها وتبشيرهم بأن الله يباهي بهم الملائكة، وقد مر بنا قول ابن مسعود رضي الله عنه في المعوذتين، وتأول العلماء أن الحديث لم يبلغه. أما ما ذهب إليه بعضهم من أن اعتراضه رضي الله عنه لم يكن على مجلس الذكر، وإنما على عَدّ الأذكار، لما نسب إليه من قوله: «فعُدُّوا سيئاتِكم فأنا ضامنٌ أن لا يضيعَ من حسناتكم شيءٌ»، فإن هذا التخريج غير منطقي، لأن عَدّ الأذكار جاءت فيه أحاديث صحيحة، فقد كان النبي ﷺ يَعدُّ أذكاره أو بعضها، فقال: ﴿واللَّهِ إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إلَيْهِ في اليَومِ أكْثَرَ مِن سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[144]. وقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا

[144] صحيح البخاري، برقم ٦٣٠٧.

النَّاسُ تُوبُوا إلى اللهِ، فإنِّي أَتُوبُ في اليَومِ إلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ﴾[١٤٥]، والمئة عدد، ومجاوزة السبعين مجاوزة عدد، وقد حث ﷺ أمته على عَدّ بعضها، وحدد بعض الأذكار بأعدادٍ معينة، كالتسبيح ثلاثاً وثلاثين بعد الصلوات المكتوبة، وحث على بلوغ أعداد معينة، كقوله ﷺ: ﴿مَن قال: سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، في يَومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطاياهُ وإنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ﴾[١٤٦]، وقال ﷺ: ﴿مَن قالَ: لا إلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مِرَارٍ كانَ كَمَن أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِن وَلَدِ إسْمَاعِيلَ﴾[١٤٧]، وقال ﷺ: ﴿مَن قالَ: لا إلَهَ إلا اللَّهُ، وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، في يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ كانَتْ له عَدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وكُتِبَتْ له مِئَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عنْه مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ له حِرْزًا مِنَ الشَّيْطانِ يَومَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسِيَ، ولَمْ يَأْتِ أحَدٌ بأَفْضَلَ ممَّا جاءَ به، إلا أحَدٌ عَمِلَ أكْثَرَ مِن ذلكَ﴾[١٤٨]، فالثلاث والثلاثون عدد، والعشرة عدد، والمئة عدد، وكان عَدُّ الأذكار بالحصى قائماً أيام النبي ﷺ، كما مرّ بنا في رواية شيخ الإسلام ابن تيمية، فلا بدعة في إقامة

---

١٤٥ صحيح البخاري، برقم ٢٧٠٢.
١٤٦ المصدر السابق، برقم ٦٤٠٥.
١٤٧ صحيح مسلم، برقم ٢٦٩٣.
١٤٨ صحيح البخاري، برقم ٣٢٩٣.

مجالس الذكر والاجتماع لها، ولا بدعة في عد الأذكار. وقد يقول قائل: إن الأعداد الواردة في الأحاديث مخصوصة بأذكار بعينها، ولا يقاس عليها غيرها، فعند ذلك نسأل ما الدليل على ذلك؟ ولا دليل إلا الأثر الذي نسب إلى عبد الله بن مسعود، وقد ناقشناه، وهو، على ما قيل فيه، ليس حديثاً نبوياً، فحتى لو صح فإنه ينطبق عليه القول المشهور للإمام مالك: «كلنا يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ»، وأما قول عمرو بنُ سلَمةَ: «فرأينا عامّةَ أولئك الحِلَقِ يُطاعِنو(ن)نا يومَ النَّهروانِ مع الخوارجِ» فليس دليلاً على أن اجتماعهم للذكر كان مخالفاً للشريعة، فالصحابة رضي الله عنهم اقتتلوا في يومي «الجمل» و«صفين»، فهل يدل ذلك على أنهم كانوا أهل بدع؟ فلا رابط بين الأمرين، فالفتنة حين تضرب تمس الجميع، إلا من رحم ربي. وعموماً فإن الصوفية يحددون أعداد الأذكار لكي يكون العدد هو الحد الأدنى، وليس للاقتصار عليها، فهم دائماً يزيدون عليها بعد الوصول إلى العدد المحدد، والغاية ألا تكون أقل من العدد وليس لحصرها به، فلو رجعنا إلى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[١٤٩]، وسألنا: كم

---

[١٤٩] سورة الأحزاب: ٤١.

هو الكثير؟ فمن يجيبنا برقم؟ ومن يستطيع حد هذا الكثير المطلق؟ ومن يستطيع تحقيق هذا المطلق؟ فلو ذكرناه مليون مرة لما كان كثيراً! فهل على من زاد عليها في مجالس الذكر إثم؟ فأين «الكثير» إذاً؟!

ونرجع إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، لنقرأ: «وسئل عن رَجُلٍ يُنْكِرُ عَلَى أَهْلِ الذِّكْرِ، يَقُولُ لَهُمْ: هَذَا الذِّكْرُ بِدْعَةٌ، وَجَهْرُكُمْ فِي الذِّكْرِ بِدْعَةٌ. وَهُمْ يَفْتَتِحُونَ بِالْقُرْآنِ وَيَخْتَتِمُونَ، ثُمَّ يَدْعُونَ لِلْمُسْلِمِينَ الأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، وَيَجْمَعُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّكْبِيرَ وَالْحَوْقَلَةَ، وَيُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُنْكِرُ يُعْمِلُ السَّمَاعَ مَرَّاتٍ بِالتَّصْفِيقِ، وَيَبْطُلُ الذِّكْرُ فِي وَقْتِ عَمَلِ السَّمَاعِ.

الْجَوَابُ: الاجْتِمَاعُ لِذِكْرِ اللَّهِ وَاسْتِمَاعِ كِتَابِهِ وَالدُّعَاءُ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ وَالْعِبَادَاتِ فِي الأَوْقَاتِ، فَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿إنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ، فَإِذَا مَرُّوا بِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إلَى حَاجَتِكُمْ...﴾ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: ﴿وَجَدْنَاهُمْ يُسَبِّحُونَك وَيَحْمَدُونَك﴾[١٥٠].

ويقول إخواني السلفيون: «إن الصوفية يجعلون مجالسهم دورية

---

[١٥٠] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢٢، ص٥٢٠-٥٢١.

ثابتة مخصوصة بليالٍ بعينها (ليلتي الإثنين والجمعة)، لاعتقاد فضل فيها، وهذه بدعة أخرى»! والحق أن تخصيص هاتين الليلتين للمجلس لم يأت من فراغ؛ إذ إن مرجعه أمران: تنظيمي، وتأصيلي، فأما التنظيمي فلأن ليلة الإثنين تتوسط الأسبوع، والجمعة آخره، وأما التأصيلي فإن يوم الإثنين صامه النبي ﷺ، وهو يوم مولده، فلا شك أنه يوم مبارك، وأما يوم الجمعة فلا يجهل مسلم ما فيه من البركات وما له من الفضل، فكان اختيار موعد المجلس في ليلتيهما (مساء الأحد والخميس) عن حكمة دنيوية ودينية.

وزعم بعضهم أن المقصود بمجالس الذكر في الأحاديث النبوية «مجالس العلم»، وزعم آخرون أنها «مجالس تلاوة القرآن الكريم»، وهذا كله وَهْمٌ، لأن الحديث واضح في جواب الملائكة: «يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ، ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ» ولو كان غير ذلك لقالوا يتلون كتابك، أو لقالوا يتدارسون كتابك.

ويأتي آخرون ليؤكدوا أن كل ما ذكرناه صحيح لا غبار عليه، وأنه لا حجة لمعترض على مجالس الذكر بإقامتها ولا أيامها ولا أعداد أذكارها، وإنما الاعتراض على إقران الذكر بـ«السماع والرقص»!

السماع والرقص

اعتاد الصوفية على إقران الذكر بحركات تبدأ بحركات انحناء واستقامة هادئة مع نغمات الأذكار، تنتهي لدى بعضهم إلى رقص أو ما يشبه الرقص! فأين ذلك من الدين، وأينه من السنة؟

الحق أن موضوع الرقص لم يأت الاعتراض عليه من السلفيين فحسب، وإنما جاء من بعض الصوفية، بل وحتى من الملاحدة، الذين نظروا إليه على أنه تخلّف وجهل، أما في صالات «الديسكو» و«الراب» فهو حضارة، وفي المسارح والساحات فهو فن!

ولو تحرينا لوجدنا أن أبا العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) كان من أوائل المعترضين على هذا الرقص، وعلى التصوف بمجمله، إذ روى الخطيب التبريزي، قال: أنشدني أبو العلاء المعري لنفسه:[١٥١]

أرى جيلَ التَّصوُّفِ شَرَّ جِيلٍ ... فَقُلْ لَهُمُ وأَهْوِنْ بِالحلولِ

أَقالَ اللهُ حينَ عَبَدتُموهُ ... كُلوا أكلَ البهائمِ وارقُصوا لِي

ومع أن المعري حجة في اللغة والأدب، إلا أنه في جانب الدين لا يؤبه له، ليس لاعتراضه على رقص الصوفية فحسب، وإنما لاعتراضه على أحكام الإسلام في أكثر من مناسبة، منها اعتراضه على ما أحل

---

[١٥١] معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ١/ ١١٨.

الله من الطعام، واستنكاره لذلك، وأن العمل به قلة دين وقلة عقل! والمعريُّ عدّه كثيرٌ من معاصريه في الملاحدة والزنادقة، وهو - وإن حاول بعض المعاصرين حمايته من هذه التهم ودفعها عنه، ووصفه بأنه «المعري المفترى عليه» - فإن كلامه يظل شاهداً على كفره وزندقته، ولعله تاب في ما بعد، إذ يروى له شعر في ذلك، أما اعتراضه على ما أحل الله ففي لزوميّته الحائية[١٥٢]، التي بدأها بخطاب إلى الإنسان (المسلم) بأنه صار مريض العقل والدين، وأن الصواب عند المعري وحده، فليقبل عليه ليسمع الخبر الصحيح، وذلك في قوله:

غَـدَوتَ مَريضَ العَـقـلِ وَالـدينِ فَـالْـقَني
لِـتَـسـمَعَ أَنْبـاءَ الأُمـورِ الصَحـائِحِ

فَـلا تَـأكُـلَـن مـا أَخـرَجَ المـاءُ ظـالِمـاً
وَلا تَبـغِ قـوتـاً مِن غَـريضِ الذَبائِحِ

وَأَبْـيَـضَ أُمّـاتٍ أَرادَت صَـريحَـهُ
لأَطفالِـها دونَ الغَـواني الصَـرائِحِ

١٥٢ شرح اللزوميات، ج١، رقم القصيدة ٣٠٩، ص٣٦٢، ٣٦٣.

وَلا تَـفـجَـعَـنَّ الـطَـيرَ وَهـيَ غَـوافِـلٌ
بِما وَضَعَت فَـالـظُـلمُ شَـرُّ القَـبـائِحِ
وَدَع ضَربَ الـنَـحـلِ الَّـذي بَـكَـرَت لَـهُ
كَـواسِـبَ مِـن أَزهـارِ نَبتٍ فَـوائِـحِ
فَـما أَحـرَزَتـهُ كَـي يَـكـونَ لِـغَـيرِها
وَلا جَمَّـعَـتـهُ لِـلـنَـدى وَالمَـنـائِـحِ
مَـسَـحتُ يَـدَي مِـن كُـلِّ هَـذا فَـلَـيـتَـني
أَبَهتُ لِشَـأني قَبلَ شَـيـبِ المَسـائِحِ

فالمسلم - في رأيه - صار مريض العقل والدين لأنه يأكل بيض الحيوانات، وحليبها ولحمها، والسمك، والعسل، وذلك - عنده - لا يجوز أكله، وأنه قد تدارك نفسه فتاب عن هذه الأفعال، ثم يقول:

بَـنـي زَمـنـي هَـل تَـعـلَـمـونَ سَرائِـراً
عَـلِـمـتُ وَلَـكِـنّـي بِهـا غَـيرُ بـائِـحِ
سَـرَيـتُـم عَـلى غَـيٍّ فَـهَـلا اِهـتَـدَيـتُـمُ
بِـما خَـيَّرَتْـكُـم صـافِـيـاتُ الـقَـرائِـحِ

فهو يزعم أنه قد علم أسراراً لا يبوح بها، ولعلها كأسرار الملاحدة الذين يرون أنه لا إله لهذا العالم وأن الديانات كلها افتراء من الأنبياء، ثم يؤكد أن القرآن الذي نتبعه - في رأيه - «غَيٌّ»، والهدى في ما جادت به قريحته من شعر! ثم يؤكد:

وَصاحَ بِكُم داعِيَ الضَّلالِ فَما لَكُم

أَجَبتُم عَلى ما خَيَّلَت كُلَّ صائِحِ

فمن هو داعي الضلال - في رأي المعري - الذي دعانا فأجبناه؟ يقول:

مَتى ما كَشَفتُم عَن حَقائِقِ دينِكُم

تَكَشَّفتُم عَن مُخزَياتِ الفَضائِحِ

وهنا اتضح مقصوده بأن ديننا - في رأيه - هو الضلال، وأن من وصفه بأنه «داعي الضلال» إنما قصد به نبينا محمداً ﷺ! وأضاف مبيناً سبيل الرشاد في اعتقاده المريض:

فَإِن تَرشُدوا لا تَخضِبوا السَيفَ مِن دَمٍ

وَلا تُلزِموا الأَميالَ سَبرَ الجَرائِحِ

ثم أضاف أنه يفضل دأب الرهبان - أي نهجهم، وهو من دين النصارى - لولا استحلالهم المأكولات التي ذكرها، فيقول:

وَيُـعـجِـبُـنـي دَأَبُ الَّـذيـنَ تَـرَهَّـبـوا

سِــوى أَكلِهِم كَدَّ النُفوسِ الشَــحائِحِ

وأما اعتراضه على ما حد الله تعالى من حدود فإنه حين رأى أن الشريعة، التي جعلت ديّة قطع اليد خمسمئة دينار ذهبي، أمرت بقطع يد السارق في مبلغ ضئيل وهو ربع دينار! فتوهّم أن ثمة تناقضاً في الأحكام؛ إذ كيف ليد تساوي خمسمئة دينار أن تُقطع في ربع دينار؟! فلم يستطع السكوت ولم يقدر على التصريح بما في نفسه، فقال شعراً[153]:

تَـــنَـــاقُـــضٌ مَا لَنَا إِلاَّ السُّـــكوتُ لَهُ

وَأَن نَـعُـــوذَ بِمَـــوْلاَنَـــا مِـــنَ الـــنَّـــارِ

يَـــدٌ بِخَمْسِـــمئـيـــنٍ عَسْـــجَـدٍ وُدِيَتْ

مَـا بِـالُهَـا قُـطِـعَـتْ فِي رُبْـعِ دِيْـنَـارِ

فالشرع - في رأيه - فيه تناقض، لكنه لا يستطيع إلا التسليم، ولا تخفى السخرية في البيت الأول (ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار). ومع أنه يقدم العقل حتى على الدين فإنه لم

---

[153] شرح اللزوميات، ج٢، رقم القصيدة ٦٤٢، ص٢٠٣.)

يستطع استنباط الحكمة، فجاءه الجواب من الشريف الرضي، الذي فهم الحكمة من الحكم الشرعي، فقال:

صِيانةُ النّـفـسِ أغْـلَـتْها وأرخَصَها   خـيانةُ المالِ فانْظـرْ حكمةَ الباري

فأجابه رجل آخر من أهل المجلس:

هُـناكَ مَظلومةٌ غالَت بقيمتِها   وَعِندما ظَلَمتْ هانَتْ على الباري

ثم بلغ الخبر شاعراً آخر، فقال:

قُـلْ لِـلْـمَعَـرِيِّ: عـارٌ أيَّما عـار
جَهْلُ الفَتى وَهْوَ مِنْ ثَوْبِ التُّـقى عارِ
عِـزُّ الأمانـةِ أغْـلاهـا وَأرْخَصَها
ذِلُّ الخِـيانـةِ فَـافْـهَـمْ حِـكْمـةَ الـباري

وكان المعري يسمي ديوان المتنبي «معجز أحمد» تشبيهاً له بالقرآن الكريم الذي وصف بأنه «معجز». فالمعري انتقد الإسلام كله وعاب تشريعاته، فلا عجب أن ينقد الصوفية، وهم من أتباع هذا الدين، باحثاً عن مطعن، وكما نضرب عرض الحائط بانتقاده الإسلام وما أحل وحرم وما حد وحكم، فكذلك نفعل بنقده التصوف، لكن المعري تاب ورجع إلى الإسلام، وسيأتي خبره في مبحث «الحلاج».

وموضوع الرقص مُشكِلٌ في الإحاطة به، وقد تحدث عنه كل من كتب عن التصوف، ونحن هنا لا نسعى إلى تبرير باطل أو منكر، ولا ننكر أو نخفي باطلاً، فغايتنا أولاً وآخراً هي تقريب وجهات النظر وإنهاء هذه الحرب الإعلامية والاجتماعية بين طائفتين عظيمتين من المسلمين كلتاهما على الحق، وتريد التمسك بالحق والدعوة إليه، لذلك سنطرح موضوع السماع أولاً، لأنه الأكثر ارتباطاً بالرقص، ثم نعود إلى اقتران الرقص بالذكر.

النفس الإنسانية تميل إلى ما يبعث فيها النشوة ويحرك مشاعرها ويطربها، والطرب هو الاهتزاز من فرح أو حزن، والعرب حين كانوا ينشدون الشعر يراعون أوزانه، فينغّمونه بهيئة التغنّي، وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

تَغَنَّ بالشِّعرِ إمّا كُنْتَ قائِلَهُ   إنَّ الغِناءَ لِهذا الشِّعرِ مِضمارُ

وكان الناس يَحْدون الإبل بالتَّغني بالشعر، وكانت تسير على الحُداء منطلقة، وخصوصاً إذا كان صوت الحادي جميلاً، وقد ﴿كانَ للنَّبيِّ ﷺ حَادٍ يُقَالُ له: أنْجَشَةُ، وكانَ حَسَنَ الصَّوْتِ، فَقالَ له النَّبيُّ ﷺ: رُوَيْدَكَ يا أنْجَشَةُ، لا تَكْسِرِ القَوَارِيرَ. قالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي

ضَعَفَةَ النِّسَاءِ﴾[١٥٤]. فقد أسرعت الإبل على صوت الحادي واشتد جريها، فاضطربت الهوادج بالنساء، فأمره النبي ﷺ أن يخفّف كي لا يتأذين. وكان الأنصار من قبل الإسلام يحبّون الغناء، وحين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة استقبلته جوارٍ لبني النجار يضربن بالدفوف ويغنين:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنا مِنْ ثَنِيّاتِ الوَداعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنا مَا دَعَا للهِ داعْ
أَيُّها المَبْعوثُ فِيْنا جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطاعْ
جِئْتَ شَرَّفْتَ المَدينهْ مَرْحَباً يا خَيْرَ داعْ

وقد قيل إنهن كنّ بناتٍ صغاراً، وقد يكون ذلك صحيحاً، فالعرب تطلق لفظ «جارية» على الطفلة غير البالغة لكثرة جريها، وكذلك أطلقوه على الجارية المملوكة لكثرة جريها في خدمة مالكيها، وحتى لو كنَّ جواريَ مملوكاتٍ بالغاتٍ فإن ذلك حدث والمدينة المنورة حديثة عهد بالإسلام، ولم تُسْتَكْمَلِ التشريعات بعد، ومعلوم أن الحجاب ومعظم التشريعات نزلت بعد الهجرة، لكن بعد أن استقر النبي ﷺ في المدينة المنورة، يقول شيخ الإسلام: «لم يشرع

---

[١٥٤] صحيح البخاري، برقم ٦٢١٠.

لصالحي أمته وعبّادهم وزهّادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحّنة مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب أو الدف... ولكن رخص النبي ﷺ في أنواع من اللهو في العرس ونحوه، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح، وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ولا يصفق بكف»[155] وأما الحديث الذي يستشهد به بعضهم، وهو قوله ﷺ ﴿التَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ، والتَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ﴾[156] فليس هذا موضع استشهادٍ به، وإنما موضعه في الصلاة، لتنبيه المأموم إمامه إذا سها، فالرجل يسبّح، أما المرأة فلا تتكلم وإنما تصفق، فيفطن الإمام إلى أنه سها. وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها، قالت: ﴿دَخَلَ أبو بَكْرٍ وعِندِي جَارِيَتَانِ مِن جَوَارِي الأنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بما تَقَاوَلَتِ الأنْصَارُ يَومَ بُعَاثَ، قالَتْ: وليسَتَا بمُغَنِّيَتَيْنِ، فَقالَ أبو بَكْرٍ: أمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ في بَيْتِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ؟ وذلكَ في يَومِ عِيدٍ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: يا أبَا بَكْرٍ، إنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً وهذا عِيدُنَا﴾[157]، وقد كانت الجاريتان تغنيان بشعر حماسي لا غزل فيه ولا إثارة للغرائز، فهو شعر مما «تَقَاوَلَتِ الأنْصَارُ يَومَ بُعَاثَ»، ويوم بعاث هو آخر معركة جرت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام.

---

١٥٥ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٥٥٦.
١٥٦ صحيح البخاري، برقم ١٢٠٣.
١٥٧ المصدر السابق، برقم ٩٥٢.

وبهذا يلحق الترخيص في الأعياد كما في الأعراس، وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي، قال: ﴿خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في بعضِ مَغازيهِ، فلمَّا انصرفَ جاءت جاريةٌ سوداءُ، فقالت: يا رسولَ اللَّه، إنِّي كُنتُ نذرتُ إن ردَّكَ اللَّهُ سالماً أن أضربَ بينَ يديكَ بالدُّفِّ وأتغنَّى، فقالَ لَها رسولُ اللَّهِ ﷺ: إن كنتِ نذَرتِ فاضربي وإلا فلا. فجعَلت تضرِبُ، فدخلَ أبو بَكْرٍ وَهيَ تضربُ، ثمَّ دخلَ عليٌّ وَهيَ تضربُ، ثمَّ دخلَ عُثمانُ وَهيَ تضربُ، ثمَّ دخلَ عمرُ فألقتِ الدُّفَّ تحتَ استِها، ثمَّ قعَدت علَيهِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: إنَّ الشَّيطانَ ليخافُ منكَ يا عمرُ، إنِّي كنتُ جالساً وَهيَ تضربُ، فدخلَ أبو بَكْرٍ وَهيَ تضربُ، ثمَّ دخلَ عليٌّ وَهيَ تضربُ، ثمَّ دخلَ عثمانُ وَهيَ تضربُ، فلمَّا دخلتَ أنتَ يا عمرُ ألقتِ الدُّفَّ﴾[١٥٨]. وهذا ترخيص آخر يلحق بالأعراس والأعياد، وهو النذر بتحقق أمر مفرح كالانتصار في معركة أو العودة من غزوة سالماً، وفي حديث رواه أنس بن مالك وأبو هريرة رضي الله عنهما: ﴿دخل عمرُ بنُ الخطابِ والحَبَشَةُ يلعبونَ في المسجدِ فَزَجَرَهُمْ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: دَعْهم يا عمرُ فإنَّهم بنو أَرْفِدَةَ﴾[١٥٩]، ويشبه ذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها: ﴿وَكانَ يَوْمُ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ

---

[١٥٨] صحيح الترمذي، للألباني، برقم ٣٦٩٠.
[١٥٩] السلسلة الصحيحة للألباني، ٣٤٤/٧.

بالدَّرَقِ وَالحِرَابِ، فَإِمَّا سَأَلْتُ رَسولَ ﷺ، وإمَّا قالَ: تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟ فَقالَتْ: نَعَمْ. فأقَامَنِي وَرَاءَهُ، خَدِّي على خَدِّهِ، ويقولُ: دُونَكُمْ بَنِي أَرْفِدَةَ، حتَّى إذَا مَلِلْتُ، قالَ: حَسْبُكِ؟ قُلتُ: نَعَمْ، قالَ: فَاذْهَبِي﴾[١٦٠].

وقال صاحب موسوعة «الدرر السنية» في شرح الحديث: «فإنَّما هُم بنو أَرفِدةَ»، هو لَقَبٌ للحَبَشةِ، أو اسمُ أبيهم الأقدَمِ، وقيل: هم جِنسٌ منهم يَرقصونَ. وقيل: المعنى بنو الإماءِ؛ فكأنَّه يُبيِّنُ ﷺ أنَّ هذا شأنُهم، وطريقَتُهم، وهو مِن الأُمورِ المباحةِ؛ فلا إنكارَ عليهم، وفي الصَّحيحيْن من حَديثِ عائشةَ رضي اللهُ عنها: «دُونَكم يا بَني أرفِدةَ»، أي: تابِعوا اللَّعِبَ؛ ففيه إذنٌ، وتَنشيطٌ لهم. وكأنَّ عمرَ رضي اللهُ عنه بَنَى على الأصلِ في تَنزيهِ المساجدِ؛ فبيَّن له النَّبيُّ ﷺ وجهَ الجوازِ في ما كان هذا سَبيلَه، أو لعلَّ عمر لم يكُنْ على عِلمٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يَراهُم، وفي مُسندِ الحارثِ بيانٌ لِعلَّةِ قولِ النَّبيِّ ﷺ، حيثُ قال ﷺ: ﴿خُذوا يا بَني أرفِدةَ؛ حتَّى يعلمَ اليهودُ والنَّصارَى أنَّ في دينِنا فُسحةً﴾. وفي الحديثِ: بيانُ رِفقِ النَّبيِّ ﷺ بأصحابِه. وفيه: أنَّ الإسلامَ فيه فُسحةٌ مَشروعةٌ للَّعِبِ والتَّرويحِ في أوقاتٍ مَعلومةٍ بما لا يُخِلُّ بثوابتِ الشَّرعِ[١٦١]. ولم يبين الشارح ما هذا الوقت في «الأوقات

---

[١٦٠] صحيح البخاري، برقم ٢٩٠٦.

[١٦١] موقع الدرر السنية، لعلوي بن عبد القادر السقاف.

المعلومة»، ولكن رواية السيدة عائشة رضي الله عنها بينت أنه كان يوم عيد، إلا أن يكون الحديثان عن مناسبتين مختلفتين، وبذلك يُفهم أنهم وَفْدٌ جاؤوا إلى النبي ﷺ مسلمين، فعبّروا بطريقتهم عن فرحهم بإسلامهم ولقائه ﷺ، وهي الرقص بالحراب، وطالما أن الأمر فيه إباحة دون تحديد مناسبة بعينها، كالأعياد مثلاً، وهو يرفد الغاية «أن يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة» لمثل هذه الاستعراضات حتى في المسجد، فإن ذلك يعني أنها لا حرمة فيها، وقد نهاهم عمر رضي الله عنه، إلا أن النبي ﷺ أمرهم بالمتابعة وأمر عمر أن يدعهم يتابعون رقصهم.

ويقول الشيخ محمد صالح المنجد: «إن الاستشهاد بهذا الحديث على جواز رقص الصوفية باطل»، ونحن هنا لا نستشهد به لهذا الغرض، وإنما نستشهد على أنه مباح، وقد ذكر بعضهم أن وجه الإباحة فيه أنه رقص بالسلاح، لما في ذلك من التدريب على القتال. وهذا الكلام يفنّده قول النبي ﷺ في بيانه العلة فقال ﷺ: ﴿خُذوا يا بَني أرفِدةَ؛ حتَّى يعلمَ اليهودُ والنَّصارَى أنَّ في دينِنا فُسحةً﴾ فرقصهم لم يكن تدريباً وإنما كان استعراضاً بالسلاح ولعباً به في حركات الرقص، وطالما صرح النبي ﷺ بعلة الإباحة فكل العجب ممن لا

يأخذها عنه ﷺ، وإنما يجتهد في البحث عن علة غيرها، ولو كان ثمة علة أخرى لذكرها ﷺ.

«وما كاد عصر الخلافة الراشدة ينتهي ونصل إلى العصر الأموي حتى تصبح مكة المكرمة والمدينة المنورة مركزين من مراكز الشعر وتتحضّرا تحضراً واسعاً... وهيأت لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع ومما دخلها من عناصر أجنبية أسرعت إلى التحضر، بل الترف البالغ»[١٦٢]، «أما الثراء فمرجعه إلى ما خلفه الصحابة لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح»[١٦٣]، «وطبيعي أن يكثر في هذا المجتمع المترف الشباب العاطل الذي يريد أن يقطع أوقات فراغه بلهو بريء، وسرعان ما قدم لهم الرقيق الأجنبي هذا اللهو، إذ عُني بالغناء عناية بالغة»[١٦٤]، وانتشر في المدينة المنورة ومكة المكرمة المغنون، واشتهر منهم: طويس، وسائب خاثر، ومعبد، وابن عائشة، ومالك الطائي، وعطرد، ويونس الكاتب، واشتهرت من المغنيات: عزة الميلاء، وجميلة، وسلامة القس، وحبابة، وسلامة الزرقاء، وكان لبعضهن دور خاصة للغناء يقصدها الشبان ليستمعوا ويطربوا،

---

[١٦٢] العصر الإسلامي، لشوقي ضيف، ص١٣٩.
[١٦٣] مروج الذهب، للمسعودي، ٤/ ٢٥٤.
[١٦٤] العصر الإسلامي، شوقي ضيف، ص١٤٠.

«وكان عبد الله بن جعفر يستمع إلى الغناء، فلامه معاوية على ذلك، فدخل يوماً على معاوية ومعه بديح، ومعاوية واضع رجلاً على رجل، فقال عبد الله لبديح إيهٍ يا بديح، فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبد الله: مَهْ يا أمير المؤمنين! فقال معاوية: إن الكريم طروب. وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية، ومعه سائب خاثر، وكان مولى لبني ليث، وكان فاجراً، فقال معاوية لعبد الله: ارفع حوائجك، ففعل ورفع فيها حاجة سائب خاثر، فقال معاوية: من هذا؟ فخبره، فقال: أدخله، فلما قام على باب المجلس غنى:

إن الديارَ رسومُها قَفْرُ ... لعبَتْ بها الأرواحُ والقطرُ

وخَلا لها مِن بَعدِ ساكِنِها ... حِجَجٌ خَلَوْنَ ثَمانِ أو عشْرُ

والزعفرانُ على ترائِبِهَا ... شَرِقا به اللَّبَّاتُ والنَّحْرُ

فقال: أحسنت، وقضى حوائجه»[١٦٥].

وجاء في كتاب الأغاني عن إسحاق النخعي أن الإمام مالكاً رحمه الله، بدأ حياته بصحبة المغنين، وكان حسن الصوت، فنهته أمه ووجَّهته إلى الفقه، فصار عَلَماً وإمام المذهب المالكي، إلا أن ابن حجر العسقلاني كذّب هذه الرواية حين ترجم للنخعي وقال إنه زنديق

[١٦٥] تاريخ الطبري، ٢٦٨/٣، ٢٦٩.

كذاب واتهمه باختلاق هذه القصة على الإمام مالك.[١٦٦]. بعد ذلك وصل الغناء إلى قصور الخلفاء، وما نكاد نصل إلى العصر العباسي حتى نجد الغناء قد انتشر انتشاراً واسعاً، وكان هذا الانتشار سبباً في رد فعل المجتمع الملتزم، الذي أبرز تيار النسك والزهد والتصوف في مواجهة هذه الموجة العاتية، ولكي لا يتأثر هؤلاء بموجة الغناء أوجدوا «السماع»، وكان ينشد لهم بعض القصّادين أشعاراً في التوبة والزهد وذم الدنيا وطلب الآخرة، والشوق إلى لقاء الله سبحانه، وعدّوا ذلك فسحة وترويحاً لأنفسهم، مع الإقبال على العبادة وكثرة الذكر وتَواصُل النسك، فيجنحون لما تطرب له نفوسهم من إنشاد يتضمن أشعاراً مما تدور معانيها في فلك تديّنهم ونسكهم وزهدهم، وتحثهم على متابعة السير في مسلكهم وتشد عزائمهم ولا تخالف منهجهم، إضافة إلى ما تتضمنه من المواعظ والحكم، ومن الفقهاء والعباد أنفسهم من أبى ذلك وامتنع عن السماع، ومنهم من أجازه وعمل به، وكان ابن جامع فقيهاً ويغني في جلسات خواصّه، وله موقف شبيه بالمناظرة، مع تلميذ أبي حنيفة أبي يوسف قاضي القضاة، في مسألة الغناء: «قدم ابن جامع من مكة على الرشيد، وكان حسن السمت كثير الصلاة

---

١٦٦ لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، ج٢، ص٧١.

قد أخذ السجود جبهته، وكان يلبس لباس الفقهاء في زي أهل الحجاز، فبينا هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن، أقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل القلانس، فنظر إلى رجل يقف إلى جانبه ويحادثه، فوقعت عينه على ابن جامع، فرأى سمته وحلاوة هيئته، فجاء فوقف إلى جانبه، ثم قال له: أمتع الله بك، توسمت فيك الحجازية والقرشية، قال أصبت، قال فمن أي قريش أنت؟ قال من بني سهم، قال فأي الحرمين منزلك؟ قال مكة، قال ومن لقيت من فقهائهم؟ قال سَلْ عمّن شئت، ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب، فأعجب به. ونظر الناس إليهما فقالوا هذا القاضي قد أقبل على المغني! وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع، فلما كان الإذن الثاني ليحيى غدا عليه الناس، وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلب ابن جامع فرآه، فذهب فوقف إلى جانبه فحادثه طويلاً، كما فعل في المرة الأولى، فلما انصرف قال له بعض أصحابه أيها القاضي، أتعرف هذا الذي تُواقِف وتحادث؟ قال نعم رجل من قريش من أهل مكة من الفقهاء. قالوا هذا ابن جامع المغني. قال إنا لله! فلما كان الإذن الثالث جاء أبو يوسف ونظر إليه فتنكّبه، وعرف ابنُ جامع أنه قد أُنْذِرَ به، فجاء فوقف فسلم عليه، فرد السلام عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه به، ثم انحرف عنه، فدنا منه ابن

جامع، وكان جهيراً، فرفع صوته ثم قال: يا أبا يوسف، ما لك تنحرف عني؟ أي شيء أنكرت؟ قالوا لك إني ابن جامع المغني فكرهت مواقفتي لك! أسألك عن مسألة، ثم اصنع ما شئت. ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون، فقال يا أبا يوسف لو أن أعرابياً جلفاً وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال:

يا دارَ مَيَّةَ بِالعَلياءِ فَالسَّنَدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْها سَالِفُ الأَبَدِ[١٦٧]

أكنت ترى بذلك بأساً؟ قال: لا، وقد روي عن النبي ﷺ في الشعر قول، وروي في الحديث. قال ابن جامع: فإن قلت أنا هكذا؛ ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه، ثم قال يا أبا يوسف رأيتني زدت فيه أو نقصت منه؟ قال: عافاك الله أعفنا من ذلك. قال يا أبا يوسف أنت صاحب فُتيا، ما زدته على أن حسنته بألفاظي فحسن في السماع ووصل إلى القلب! ثم تنحى عنه ابن جامع[١٦٨].

وقال البيهقي: «عن يونس بن عبد الأعلى، قال: سألت الشافعي عن إباحة أهل المدينة السماع، فقال الشافعي: «لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع، إلا ما كان منه في الأوصاف، وأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار،

---

١٦٧ مطلع معلقة النابغة الذبياني، هكذا في الأغاني، وروي (سالف الأمد).
١٦٨ الأغاني لأبي الفرح الأصفهاني، ج٦، ص٢٣٩، ٢٤٠.

فمباح»[١٦٩]. وقال: «حدثني المزني، قال: مررنا مع الشافعي وإبراهيم بن إسماعيل بن عُلَيّة على دار قوم، وجارية تغنيهم:

خَلِيْلَيَّ ما بالُ المَطايا كَأنَّها   تَراها على الأَعْقابِ بِالقَوْمِ تَنْكُصُ

فقال الشافعي: ميلوا بنا نسمع. فلما فرَغَتْ قال الشافعي لإبراهيم: أيطربك هذا؟ قال: لا. قال: فما لك حِسٌّ»![١٧٠]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وبالجملة تكلم كثير من المتأخرين في السماع؛ هل هو محظور، أو مكروه، أو مباح؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج، بل مقصودهم بذلك أن يُتَّخَذَ طريقاً إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات (المتدينون) لصلاح القلوب والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب، والتحزين على فوات المطلوب، فتستنزل به الرحمة، وتُستجلب به النعمة، وتُحرَّك به مواجيد أهل الإيمان، وتُستجلى به مشاهد أهل العرفان»[١٧١]، وينكر شيخ الإسلام السماع، لأنه يصبح عادة وديدناً عند بعضهم، بل وبعضهم يصدهم عن القرآن والذكر، يقول: «حتى يقول بعضهم: إنه (السماع) أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه؛

---

[١٦٩] مناقب الشافعي، للبيهقي، ج٢، ص٢٠٩.
[١٧٠] مناقب الشافعي، للبيهقي، ج٢، ص٢٠٩.
[١٧١] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٥٦٧، ٥٦٨.

كي يجعلوه قُوتاً للقلوب، وغذاءً للأرواح، وحادياً للنفوس يحدوها إلى السير إلى الله، ويحثها على الإقبال عليه... ولهذا يوجد من اعتاده، واغتذى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات، وسكنت الحركات، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب»[١٧٢].

والمكاء والتصدية هما التصفيق والصفير، كان مشركو مكة يفعلونه حين يقرأ النبي ﷺ القرآن الكريم، كي لا يسمعوه، ولم يقصد شيخ الإسلام أن هؤلاء العبّاد يفعلونه، وإنما أراد الإشارة إلى ربط إقبال بعضهم على السماع وإعراضهم عن القرآن الكريم، بفعل المشركين مع القرآن، وكذلك قوله «وتعاطت المشروب» لم يقصد أنهم يشربون الخمر، وإنما يقصد حال النشوة التي يوصلهم إليها السماع كحال من شربوا الخمر، وقد عبر كثير من شعراء التصوف عن هذه الحال بالرمز لها بالخمر، وتأولها المحققون والباحثون في التصوف بأنها رمز إلى العلوم الإلهية، أو الفتوح

---

١٧٢ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٥٦٧، ٥٦٨.

الربانية، أما أهل التصوف فقالوا إنها رمز للنشوة التي تحصل مع بلوغهم حال الشهود، فيغيبون عن كل ما حولهم وعن أنفسهم ولا يشهدون في الوجود سوى الله. كابن الفارض، الذي تكلم عن قِدَمِها ووجودها قبل خلق العنب، فهي روحية وليست حسية، في قصيدته:

شَـرِبْـنَـا عـلى ذكْـرِ الحـبـيـبِ مُـدامَـةً

سـكِرْنَا بهـا من قبل أن يُخلق الكَرْمُ

ولـو لا شـذَاهـا مـا اهـتَـدَيتُ لِحانِهـا

ولولا سَـناها مـا تصَوّرهـا الـوَهْـمُ

ولم يُـبْـقِ منهـا الـدّهْـرُ غـيرَ حُشـاشَـةٍ

كـأنّ خَفـاهـا في صُـدور النُّهى كتْم

فـإن ذُكـرَتْ في الحَـيّ أصـبـحَ أهـلُـهُ

نَشـاوى ولا عـارٌ علـيهـمْ ولا إثْـمُ

وإن خَـطَـرَتْ يومـاً على خـاطـرِ امرئٍ

أقـامـتْ بـه الأفـراحُ وارتحَـلَ الهـمّ

أما بهاء الدين الرواس فكان أكثر توضيحاً، فقال:

هَـذي الـفـناجـينُ قـد دارتْ لَنـا عَـلَـنـاً

يـا سـاقِيَ القـومِ أَتْـرَعْتَ الفَـنـاجِـيـنا

ذِيْ خَمْرةٌ راحـــــةُ المُختارِ تَعْصـــــــرُها

وَصـــاحِـبُ الكَرْمِ فِينا صـــارَ جِبرينا

وكذلك أبو مدين التلمساني في قوله:

مِنْ خَـمْرِ أَهْلِ التُـقى اِسْـــقونِي يَـا نـاسْ

مَحْـفـوفـةٌ بِـالـبَـقـا مَمزوجـةٌ في الكـاسْ

ويقول شيخ الإسلام: «سئل الإمام أحمد عن السماع، فقال: أكرهه، هو مُحْدَثٌ. قيل: أتجلس معهم؟ قال: لا. وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ والصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد بن أبي الحواري والسري السقطي، وأمثالهم، والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم، وأعيان المشايخ عابوا أهله، كما فعل ذلك عبد القادر، والشيخ أبو البيان، وغيرهما من المشايخ»[١٧٣]، ونلاحظ أن الأسماء

---

[١٧٣] مجموع الفتاوى، ج١١، ص٥٦٩، ٥٧٠.

التي ذكرها شيخ الإسلام، ما عدا أحمد بن حنبل، كلهم من الصوفية، وقد وصفهم بأنهم «أكابر الشيوخ والصالحين، والشيوخ المحمودين» ومدحه لهم يعني أنهم لم يكونوا على باطل في اعتقاده، بل كان يرى فيهم خيراً وسلامة عقيدة وصحة منهج، وهذا هو التصوف في أصله، وكان منهج ابن تيمية موافقاً له غير متعارض معه، فالصوفية كانوا سلفيي ذلك العصر، كما ذكرنا.

وقال ابن الجوزي: «قال أبو حامد الخلفاني: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، هذه القصائد الرِّقاقُ التي في ذكر الجنة والنار، أي شيء تقول فيها؟ فقال (يسأل): مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إذا ما قالَ لي رَبِّي ... أَما اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِيني

وَتُخْفي الذَّنْبَ مِنْ خَلْقي ... وَبِالعِصيانِ تَأتِيني

فقال: أعد عَليَّ! فأعدت عليه، فقام ودخل بيته وردَّ الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت، وهو يردد البيتين...»

والإمام أحمد معذور في ذلك، فقد ضرب البيتان على وتر حساس عنده حرك خشيته لله تعالى، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[174]. **وذكر ابن الجوزي أيضاً حادثة أخرى: «قال**

---

[174] سورة فاطر: ٢٨.

صالح بن أحمد بن حنبل: كنت أحب السماع، وكان أبي أحمد يكره ذلك، فوعدت ليلة ابن الخبازة القصائدي، وكان يقول ويلحّن، فمكث عندي إلى أن علمت أن أبي قد نام، فأخذ يغني، فسمعت حسَّ أبي فوق السطح، فصعدت، فرأيت أبي فوق السطح يسمع وذيله تحت إبطه يتبخطر على السطح كأنه يرقص»[١٧٥]، ولا ريب أن هذا الرقص المقصود ليس الرقص الذي نعرفه اليوم في الدبكات أو المسارح أو الأعراس، إنما هو حركة الجسد تماهياً مع ما يسمع إذا استراح له القلب، ولو ذكرت الرواية لنا الأبيات التي كان ينشدها ابن الخبازة لرأينا أنه لا لوم على الإمام أحمد في ذلك، فربما كانت من صنف قصيدة شعيب أبي مدين:

يَا سَعْدَ قَوْمٍ بِاللَّهِ فَازُوا ولَمْ يَرَوْا في الوَرَى سِوَاهُ
قَرَّبَهُمْ مِنْهُ وَاجْتَبَاهُمْ فَنَزَّهُوا الفِكْرَ في عُلاهُ

أو قصيدة ابن النحوي بن التوزري:

طَرَقْتُ بابَ الرَّجا وَالنّاسُ قَدْ رَقَدُوا
وَقُمْتُ أَشْكو إلى مَوْلايَ ما أَجِدُ
وَقُلْتُ يَا أَمَلي في كُلِّ نائِبَةٍ

١٧٥ تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٣٢٣، وص٣٤٨.

يَا مَـــنْ عَلَيْهِ لِكَشْـــ ـفِ الـضُّـرِّ أَعْـتَـمِـدُ

فإن مضامينها من المعاني المفرحة للقلب الباعثة على الانشراح، وبحرهما مطرب للنفس محرك لكوامن الانفعالات دافع إلى التفاعل مع الإنشاد، والإمام أحمد في الحكايتين معذور، فقد طرب حزناً عند سماع الأبيات الأولى فبكى، ومضى يرددها وهو يبكي، وطرب فرحاً بمضمون ما أنشد ابن الخبازة من شعر لا نشك في أنه كان مفرحاً ببشارات للمؤمنين، أو تذكير برحمة الله، أو الأنس به سبحانه، والطرب - كما بيّنّا - ليس كما نفهمه في عصرنا، وإنما هو الاهتزاز من فرح أو حزن، فالحزين المنفعل طروب، وكذلك الفَرِحُ، وفي ذلك يقول هدبة بن خشرم:

طَرِبتَ وأَنـتَ أَحيانـاً طَروبُ وَكيفَ وَقَـد تعَلّاكَ المَشـيـبُ
يُجِـدّ الـنـأَيُ ذِكـرَكِ في فـؤَادي إِذا ذَهِلَت عَنِ النأي القُلوبُ
يـؤَرِّقُـني اكتِـئـابُ أَبي نُـمَـيرٍ فَقَلـبي مِـن كـآبَتِـهِ كَئيـبُ

فطربه هنا طرب حزن وكآبة، أكّده في البيت الثالث.

والطرب شعور إنساني محض، فقد يروي لك أحدهم قصة محزنة عن أحدٍ أصابه شرٌّ فتبكي، مع أنه لم يصبك من ذلك الشر، ويروي لك أحدهم قصة مفرحة عن أحد أصابه خير فتفرح، مع أنك لم

يصبك شيء من ذلك الخير، وهذا طبع النفوس السوية، إضافة إلى أن الإمام أحمد لم يتقصد السماع، ولم يذهب إلى مواطنه، وإنما جاءه السماع إلى بيته بلا طلب ولا استعداد.

وهنا أدخلتنا القصة في باب «الرقص» واقترانه بالسماع، كما حرك معاوية رجله، وتبخطر ابن حنبل على السطح، فكل نفس تطرب إذا سمعت الكلام المحزن فتبكي، وتطرب إذا سمعت الكلام المفرح فتهتز وتتحرك، وإذا امتنع الجسد من ذلك تحشماً للمكانة أو حياء من الطبع، فإن القلب يرقص، أما إذا لم ير المرء في ذلك بأسا، أو لم يكن حوله من يتحشم أو يستحيي منه فإنه ينطلق على سجيته، وهذا أهم أسباب إعراض كبار الصوفية عن السماع، وتراجع بعضهم الآخر عنه، كما ذكر شيخ الإسلام، وقد كان الجنيد البغدادي يمنع السماع عن السالك في بداياته، ويصرفه إلى الذكر والفقه والعبادة، ثم ترك السماع نهائياً في آخر الأمر، فلم يعد يحضره ولا يطلبه، فالحركة الانفعالية المستجيبة لسماع ما يطرب قد تصدر عن الإنسان دون أن يتعمدها، وربما يكون غافلاً عن نفسه وهو يقوم بها، لأن ذهنه متماهٍ مع ما يسمع، وهذه الاستجابة ردُّ فعل طبيعي لتذوق الإنسان للمعنى أو تماهيه مع المبنى الموزون في تركيب الأبيات الشعرية، كما يصفق الإنسان دون وعي إذا ما سمع شيئاً أعجبه، وقد يقف على قدميه وهو لا يشعر بنفسه، كما

حصل لشيخ الإسلام العز بن عبد السلام قاضي قضاة مصر، حين جاء ليعتقل الشيخ أبا الحسن الشاذلي، وكان العز منكراً للتصوف، ولعدله جاء متنكراً ليسمع كلامه ويتأكد، فلما سمع منه ما أدهشه كشف لثامه وخرج يجري في صحن الجامع وينادي: «تعالوا واسمعوا هذا الكلام الغريب العجيب القريب العهد من الله»! وكذلك قد يهتز المرء ويتحرك بلا وعي حركاتٍ خارجةً عن إرادته موازية لنغمة ما يسمع. و «سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواماً يتواجدون ويتمايلون؟ فقال دعوهم مع الله تعالى يفرحون، فإنهم قوم قطّعت الطريق أكبادَهم، ومزّق النَّصَبُ فؤادهم، وضاقوا ذرعاً، فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم»[١٧٦].

وطالما أن الأمر لا نهي فيه ولا انتهاك حرمة، وقد فعلها الحبشة في مسجد رسول الله، وهو ﷺ ينظر إليهم، وزجرهم عمر فنهاه النبي ﷺ، وأمرهم أن يتابعوا، فلا حرج؛ ليعلم اليهود والنصارى، وغيرهم ممن يَسِمون الإسلام بالتزمّت والتضييق والتشدد، أن في ديننا فسحة لنسمع المباح ونطرب له، ونتفرج على المباح ونستمتع به، ونقول لمن يذهب إلى المسارح ليسمع غناء مثيراً للشهوات والغرائز: تعال نُسْمِعْكَ كلاماً في حب الله والشوق إلى لقائه وإلى جنته،

---

[١٧٦] رسائل ابن عابدين، ج١، الرسالة السابعة: شفاء العليل، ص١٧٢، ١٧٣.

تعال نسمعك قصائد الوجد والرقة والسمو، تعال نسمعك مناجاة الحبيب الصادرة من قلوب متلهفة إليه وأرواح توّاقةٍ إلى الوقوف بين يديه، تعال فلدينا فسحة لإرواء العاطفة بلا وزر، وتحريك المشاعر بلا إثم، ولهو مباح بلا تهتك ولا خطايا.

كان بعض المشايخ، حين يحفّظون طلابهم المتون العلمية المنظومة، يأمرونهم بتحريك أجسادهم في انحناء جزئي إلى الأمام ثم الرجوع، في شكل متوالٍ مع أبيات المنظومة، وهي غالباً من بحر الرجز، فلماذا كانوا يفعلون ذلك؟

النّظمُ أَثبتُ في الذاكرة من النثر، وذلك لاتّصافه بالوزن الموسيقي، وأي خطأ يحصل في الاستذكار سَيُنْتَبَهُ إليه مِن كَسْرِ الوزن، لذلك عمد القدماء إلى نظم قواعد النحو والفقه والتجويد والمواريث وغير ذلك في أراجيز، كألفية ابن معطي وألفية ابن مالك والرحبية والجزرية، وغيرها، ليسهل حفظها، إضافة إلى ما يضفيه النظم الشعري من رتابة وتوازن للعبارات، فيجتمع عند قراءتها أو حفظها العلم والمتعة، أما تحريك الجسد مع القراءة بحيث يتوافق مع الرتابة الوزنية فإنه يشكل تماهياً كاملاً مع الكلام، إذ يشتغل به الفكر والجسد معاً، ما يؤدي إلى التفاعلِ معه وتوجُّهِ المرءِ إليه بكلِّيَّتِهِ، فلا يشرد فكره لتصير قراءته ببّغاوية، لأنه

إذا انشغل بهِ بكلّيّته اجتمع العقل والعاطفة والجسد في سبيل واحدة، ما يجعل ذلك أجدى في تثبيت ألفاظه وتوثيق دلالته وترسيخ معانيه. ومن الناس من يهتزّ ويتحرك وهو يقرأ القرآن الكريم، وذلك يأتي تلقائياً دون تكلف منه، وقد عرف علماؤنا السابقون أهمية هذا الأمر، فكانوا يوجهون طلابهم إليه حين يتلون المتون العلمية ويحفظونها. وهذا لا يُعَدُّ رقصاً، وإنما هو تمازج وتماهٍ مع ما يقرأ، وصرف للنفس عن الجمود. وقد أدرك قدماء الصوفية ذلك، كما أدركوا أهمية رياضة الجسد إلى جانب رياضة النفس، فاخترعوا فكرة الحركة الرتيبة المتوازنة مع الكلام، لدفع الخمول عن الجسد وإثارة نشاطه، وليتكامل مع القلب أو النفس أو الروح، لإِشغال الجسد بما يشتغل به اللسان والقلب، ألا وهو الذكر، فجعلوا يحركون أجسادهم حركة رتيبة مع نغمة الذكر، حركة لا رقص فيها ولا صخب ولا شدة ولا اختلال، وكان هذا دأبهم، ولا ريب أن أداء أي حركات رياضية مع الذكر لا حرمة فيه ولا منع، فهو ليس صلاة لها حركاتها المخصوصة، ولا تلاوة قرآن تستلزم السكينة وآداباً خاصة، وإنما هو ذكر مطلق أباحه الله تعالى في كل الوضعيات، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّه قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ﴾[١٧٧]، فلا تقييد بحركات ولا بسكون، فقال المتكلمون كالمعتزلة، والملاحدة كالمعري: «رَقَصَ الصوفيون» وتبعهم في ذلك القول آخرون، وخصوصاً حين صار بعض «المتصوفة» تشتد حماسته فيندفع في أداء هذه الحركات بعنف ومبالغة، حتى يخرج الأمر إلى الرقص، وهو ليس من التصوف بحال، وكثيراً ما كان المشرفون على حِلَقِ الذكر يوقفونهم ، فإن أبوا أخرجوهم. ونحن هنا لا ندعو إلى الرقص ولا إلى السماع، ولا نحض عليهما، ولكننا لا نكفّر ولا نبدّع من عمل بهما ولا نراه ضالاً، ففعله مباح، والله أعلم بنيته وهو يحاسبه، كما نرى أن الأكمل للصوفي أن يسير على منهج سلفه من أئمة التصوف كالإمام الجنيد والشيخ عبد القادر، وغيرهم ممن ذكرهم شيخ الإسلام ابن تمية، رحمهم الله جميعاً.

---

[١٧٧] سورة آل عمران: ١٩١.

الشطحات

بعض الصوفية حين تأخذهم حال وَجْدٍ تُغَيِّبُهم عن أنفسهم يتلفظون بكلام قد يخالف ظاهره الشرع، وهو ما أسمّوه شطحاً، والجمع «شطحات»، وألحقوا بها العبارات التي تصدر عن بعضهم في حال «الفناء»، وقد فسر أبو نصر السراج الطوسي الشطح الصوفي بأنه «عبارة مستغرقة في وصف وجدٍ فاض بقوّته، وهاج بشدة غليانه وغلبته»[١٧٨].

ويرجع الشطح إلى عدد من الأمور، منها أن يكون الصوفي ضعيف الهمة غير متمكّن، فتأخذه مثل حال السكر تغلبه فيتلفظ بكلام كالذي يتلفظ به سكارى الخمر، وقد ذكر هذه الحال ابن تيمية، رحمه الله، فقال: «وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه، كسماع لم يقصده فيهيج قاطنه، ويحرك ساكنه، ونحو ذلك، وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور، لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم، كالمُغَنّى عليه والمجنون ونحوهما»[١٧٩].

وقد يحصل الشطح بسبب خطأ تعبيري من شدة الحال التي صار

---

[١٧٨] اللمع، للطوسي، ص٤٥٣.
[١٧٩] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص١١.

إليها وانبهاره، فيخطئ في التعبير عما يريد قوله، فيأتي قوله في ظاهره كفراً صريحاً، كما في المثل الذي ضربه النبي ﷺ في الحديث: ﴿لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فأيِسَ منها، فأتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، قدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبيْنَا هو كَذلكَ إِذَا هو بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ﴾[١٨٠] فالرجل أراد أن يقول: «اللهم أنت ربي وأنا عبدك» أي أنك لم تتركني ضياعاً لأني عبدك وأنت ربي المتكفل أموري، لكنه ارتبك من شدة حال الفرح التي صار إليها فأخطأ وقال عكس ما يعني، وقد برر له النبي ﷺ هذا الخطأ بأنه كان من شدة الفرح، وضرب فرحته هذه مثلاً لشدة فرح الله بتوبة عبده، ولا يُفهم من هذا أن الله سبحانه وتعالى يخطئ، وإنما القصد بأنه يبسط يديه بالخير لهذا العبد التائب ويتقبله ويغفر له ذنوبه الماضية من شدة فرحه سبحانه بتوبته، بل ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[١٨١]**، وهذا من شدة فرح الله**

---

[١٨٠] صحيح مسلم، برقم ٢٧٤٧.

[١٨١] سورة الفرقان: ٧٠.

تعالى بتوبته، أما العبد فالمقصود أنه حين يكون في حال مع الله فإنه من شدة فرحه قد يزل لسانه فيخطئ التعبير ويقول عكس ما يعني.

ومن شطحاتهم ما يلحق بالمجاز، فإذا أخذناه على سبيل الحقيقة أَوْهَمَ الاتحاد أو الحلول، كما نُقل عن أبي يزيد البسطامي قوله: «أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيراً جسمه من الأحدية، وجناحاه من الديمومة فلم أزل أطير إلى أن صرت في ميدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحدية»، فهذا مجاز، والمجاز في اللغة: «استعمال الكلمة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب، على وجه يصح، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»، كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾[١٨٢]، وقد قال ابن القيم رحمه الله: «القلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى عُدم الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[١٨٣]، وهذا كله مجاز. ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنّ اللّه قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللّه

---

[١٨٢] سورة غافر: ١٨.

[١٨٣] مدارج السالكين، لابن القيم، ج١، ص٥١٣.

رَمَى﴾[١٨٤]، فالصحابة هم الذين قتلوا المشركين، والنبي ﷺ هو الذي رمى قبضة التراب التي حصب بها وجوه المشركين وقال: ﴿شاهت الوجوه﴾، ولكن الله عز وجل قال إنه سبحانه هو الذي قتلهم وهو الذي رمى، ولو أُخِذَ الكلام على ظاهره لكان معناه حلولاً، وإنما هو مجاز، لأن الله هو خالق أفعال العباد، وهو الذي وَفَّق النبي ﷺ وأصحابه لذلك وأعانهم، فنسب الفعل إلى نفسه. ومثل ذلك قول النبي ﷺ: ﴿إِنَّ العبدَ إذا تَصَدَّقَ من طَيِّبٍ تَقَبَّلَها اللهُ مِنْهُ، وأَخَذَها بِيَمِينِهِ فَرَبَّاها، كما يُربِّي أحدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلهُ، وإِنَّ الرجلَ لَيَتَصَدَّقُ بِاللُّقْمَةِ ، فَتَرْبُو في يَدِ اللهِ أَوْ قال: في كَفِّ اللهِ، حتى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ، فَتَصَدَّقُوا﴾[١٨٥]، فالصدقة يأخذها الفقير بيمينه، و مثل ذلك القول المنسوب إلى ابن القيم رحمه الله: «لو علم المتصدقُ حقّ العلم وتصور أن صدقته تقع في يد الله قبل يد الفقير لكانت لذة المعطي أكبر من لذة الآخذ»، ومثله ما نسب إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها كانت تُطَيِّبُ (تُعَطِّر) الصدقة وتقول «إنها تقع في يد الله»، وكل ذلك لو أُخذ على سبيل الحقيقة لأَوْهَمَ الحلول، ولكنه مجاز واضح بيّن، ومثل ذلك نزول الله تعالى إلى

---

[١٨٤] سورة الأنفال: ١٧.
[١٨٥] صحيح الترغيب، للألباني، برقم ٨٥٦.

السماء الدنيا، واستواؤه على العرش، فقد سئل عنه مالك بن أنس رحمه الله، فقال: استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر. وكذلك الحديث الشريف: ﴿إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يا رَبِّ كيفَ أعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أما عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟﴾[186] فإنه لو أخذ على ظاهره لأوهم بالاتحاد، ولكنه مجاز واضح، والمجاز في القرآن الكريم ثابت، وقد منعه وأنكره بعضهم ثم تراجعوا وأقروا به، فليس كل ما في القرآن الكريم يؤخذ على ظاهره، وإنما المجاز كثير فيه، وهي لغة العرب التي نزل بها.

ومن الشطح ما يكون سببه الاختلاط، وهو ناتج من حال الجذب التي يصل إليها بعضهم، وهؤلاء المجاذيب ينطقون أحياناً بحكم بليغة، ومعارف عميقة، لكنهم أيضاً ينطقون أحياناً بكلام لا يوافق شرعاً ولا عقلاً، فيختلط كلامهم ولا يميِّز حقه من باطله إلا العالم الفقيه، فيقبل منه ما وافق الشرع، ويترك ما كان غير ذلك.
ومن أسباب الشطح أيضاً اللَّبْسُ أو التَّلبيس، فقد يُغرِق أحدهم في

---

[186] صحيح مسلم، برقم ٢٥٦٩.

الفكر بلا علم ولا فقه، فيفهم ما يقرأ أو يسمع على غير وجهه، فتلتبس عليه الحال، فيظن وهمَه حقيقةً، كمن يرى السّراب في بيداء قاحلة، فيقسم أنه رأى الماء في ذلك الموضع، ولو أنه اقترب لانكشفت له حقيقة وهمه وخرج من اللّبس، ومنهم من يُلَبِّس عليه الشيطان أمرَه فيَزِلَّ أو يَضِلَّ، ولابن الجوزي كتاب أسماه «تلبيس إبليس» ذكر فيه تلبيسه على اليهود والنصارى وغيرهم، وعلى الفرق الضالة بعد الإسلام، كما ذكر تلبيسه على القرّاء وأهل الحديث وأهل الفقه والوعّاظ والقصّاص والكاملين من العلماء والعبّاد والغزاة والزّهّاد والصوفية.

تبرير الشطحات

يزعم بعض مناوئي التصوف أن الصوفية يبررون لبعضهم الشطحات ويتأولونها على غير ما صدرت عن أصحابها أو قصدهم، أو يخترعون لها تفسيرات على غير حقيقتها، وربما ربطوها بآيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف في فهم منحرف لها.

والحقيقة غير ذلك، وإنما يأتي هذا في ما يمكن تأوّله على الحق والصواب، لا على تلبيس معاني القرآن الكريم والحديث الشريف، فهو من باب حمل المسلم على المحمل الحسن ما أمكن، وقد قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «لا يحلُّ لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءاً، وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجاً»[١٨٧]. وقال سعيد بن المسيِّب: «كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: أن ضَعْ أمرَ أخيكَ على أحْسَنِهِ، ما لم يأتِكَ ما يغلبُكَ، ولا تظنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من امرئ مسلمٍ شرًّا وأنت تجد لها في الخير مَحْمَلاً»[١٨٨]. وقال المهلب: قد أوجب الله تعالى أن يكون ظنُّ المؤمن بالمؤمن حسناً أبداً، إذ يقول سبحانه: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[١٨٩]. أما

---

[١٨٧] الآداب الشرعية، لابن مفلح، ٤٧/١.

[١٨٨] الاستذكار، لابن عبد البر ٢٩١/٨.

[١٨٩] سورة النور: ١٢.

إذا تعارضت تلك الشطحات مع الشريعة فإنهم يعترضون عليها ولا يقرّونها، وقد عاتب أحدهم محيي الدين بن عربي حين سمعه يقول في مناجاته: «اللهم يا من يراني ولا أراه، وأراه ولا يراني...»، فقال له: يا بني، أنا في موقف مناجاة، والله سبحانه مطلع على السرائر يعلم ما أعني، فأنا أقول له: «يا من يراني مذنباً ولا أراه معاقباً، وأراه غافراً ولا يراني تائباً»! وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني في مجلس ذكر، فأخذته حال شهود، فراح يردد ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾، فلما عاد إلى نفسه قال له أحدهم: لقد شطحت فقلت كذا! فأجابه: إنما كنت أردد قوله تعالى في سورة طه ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[١٩٠]. وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ممن برّروا لصادقي الحال ما يطرأ عليهم من أحوال، وعدّهم أكمل إيماناً ممن لم يبلغ مبلغهم من ذوي القلوب القاسية، وشبه حالهم بحال نبي الله موسى عليه السلام، فقال: «فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السُّكْرُ أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها، كان محموداً على ما

---

[١٩٠] سورة طه: ١٤.

فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذوراً في ما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لِنَقْصِ إيمانهم بسبب قسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله. ولكنّ مَن لم يَزُلْ عقلُه، مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه، فهو أفضل منهم. وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم وحال نبينا ﷺ، فإنه أسري به إلى السماء وأراه الله ما أراه، وأصبح كبائتٍ لم تتغير عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسى ﷺ الذي خرّ صعقاً لمّا تجلى ربُّه للجبل، وحال موسى حال جليلة عليّة فاضلة، لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل»[١٩١]، وقد اعترض بعضهم على ما أصاب بعض الصوفية من الموت والصعق عند قراءة القرآن الكريم أو سماعه والمرور بآيات العذاب أو التخويف، فقال: لم يكن هؤلاء أشد خوفاً من الله أو أكثر خشية من النبي ﷺ وأصحابه، ومع ذلك لم نر منهم شيئاً من ذلك! ولنترك شيخ الإسلام رحمه الله يرد عليهم، يقول: «هذه الأمور التي خرجت من البصرة، وذلك لشدة الخوف، فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمي وأمثالهما أمر عظيم، ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن

[١٩١] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص١٣.

عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم. ومن خاف الله خوفاً مقتصداً يدعوه إلى فعل ما يحبه وترك ما يكرهه الله، من غير هذه الزيادة، فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء، وهي حال الصحابة رضي الله عنهم، وقد روي أن عطاء السليمي - رضي الله عنه - رؤي بعد موته، قيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي: يا عطاء! أما استحييت مني أن تخافني كل هذا؟! أما بلغك أني غفور رحيم؟!»[١٩٢]. وقد مر بنا تبرير شيخ الإسلام ابن تيمية لمن تصدر عنه أقوال أو تصرفات تحت تأثير «السكر بسبب لا فعل للعبد فيه»، فقال: «وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور، لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم، كالمغنّى عليه والمجنون ونحوهما»[١٩٣].

ولا ريب أن الشطحات تكثر في أحوالٍ كأحوالهم، حتى صُنِّف فيها، واحتج بها المنكرون على الصوفية، ومن العلماء من تأوَّل تلك الشطحات على الوجه الذي يبرِّئ أصحابها، مثل شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، الذي قال في قتل الحلاج لقوله «أنا الحق»: لو كنت بينهم لتأوّلت كلامه ومنعت عنه القتل! أما تَعاملُ أئمة

---

١٩٢ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص١٣.

١٩٣ سبق في الهامش رقم ١٧٩.

التصوف ومشايخه مع أصحاب الشطحات فقد كان مختلفاً تماماً، فلا بَرّروا لهم ولا تأوّلوا كلامهم، فهذا الجنيد البغدادي رحمه الله، يقدّم ظاهر الشريعة، ويترك نية الحلاج لله تعالى، فقال له يوم محاكمته: «يا بني، لقد فتحتَ في الإسلام ثغرةً لا يسدُّها إلا رأسُك»! وقد مر بنا قول الشيخ أحمد الرفاعي، رحمه الله، فيه: «أخطأ بِوَهمِهِ، لو كان على الحق ما قال أنا الحق»[١٩٤]، وقال أيضاً: لو كنت بينهم لحكمت عليه بما حكموا. وكثيراً ما كان علماء الصوفية يعترضون على شطحات بعضهم إذا لم يمكن تأولها بسهولة ووضوح، كما في المجاز، ويردّون عليهم ردوداً قاسية، كما فعل أبو بكر الشبلي، رحمه الله، حين بلغه قول أبي يزيد البسطامي الذي مرَّ بنا: «أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيراً جسمه من الأحدية، وجناحاه من الديمومة فلم أزل أطير إلى أن صرت في ميدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحدية» فمع ما فيه من وضوح المجاز، قال الشبلي: «لو كان أبو يزيد ها هنا لأسلم على يد بعض صبياننا»، وكان الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله، يقول: «أي سادة، تقولون: قال الحارث، قال أبو يزيد، قال الحلاج! ما هذه الحال؟! قبل هذه الكلمات قولوا: قال الشافعي، قال مالك، قال أحمد، قال نعمان

---

١٩٤ سبق بهامش ٤١.

(أبو حنيفة)، صحّحوا المعاملات البينية، وبعدها تفكّهوا بالمقولات الزائدة، قال الحارث وأبو يزيد لا ينقص ولا يزيد»[١٩٥]، فقد دعا إلى التركيز في أقوال علماء الفقه الأربعة رحمهم الله، وفهم أحكامهم، أما أقوال أمثال أبي يزيد فهي للتفكّه، وهي لا تنقص ولا تزيد، فالشرع واضح ومشروح في كلام الأئمة الأربعة الذين يؤخذ عنهم. أما الذين تلقوا عبارات الشطح المنكرة بالقبول، وبنوا عليها منهجهم فقد ضلوا وأضلوا، فكان الشيخ الرفاعي، وهو أحد أئمة التصوف وشيخ الطريقة الرفاعية، ينكر عليهم وعلى من أخذوا عنهم، فالطريقة تؤخذ عن عالم فقيه لا عن مجذوب يتخبط أو خاضع لحال سكر أو غياب عقل. وقد زعم بعض المناوئين للتصوف أن الصوفية عموماً يتأولون الشطحات ويفسرونها على وجه يظهرها بمظهر الحق والصواب، وهذا الكلام في تعميمه تجنٍّ، فأئمة التصوف يتعلقون بظاهر الشرع ويتركون البواطن والنيات لله تعالى، فيردون الشطحات إلى ضلال أصحابها أو وهمهم، كما رأينا عند الجنيد والرفاعي والشبلي، أما كلام الجهلة الذين انتسبوا إلى التصوف بلا علم ولا فقه، أو الزنادقة الذين تقنّعوا به ليخفوا وجوههم الشيطانية، فصاروا ينطقون بالفهم الذي يوسوس لهم

---

١٩٥ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٨٦.

الشيطان به وتتعالى صيحاتهم هنا وهناك، فضلّوا وأضلّوا، فإنهم لا يُحسَبون على التصوف وإن انتسبوا إليه، وهم الذين وصفهم الشيخ الرواس بـ«الأغبياء» في الأبيات التي مرت بنا:

نُحَكِّمُ فِي الشُّؤونِ اللهَ حَقّاً وَنُعْرِضُ عَنْ صِياحِ الأغْبِياءِ

وقد يقول قائل: ولكنهم محسوبون على التصوف، شاء الصوفية أم أبوا. فنقول لهم: نعم، هم محسوبون على التصوف بقدر ما يحسب على الإسلام كل من الخوارج والمعتزلة والجهمية والقدرية والرافضة.

الصعق وفقدان الوعي

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: «غالب ما يحكى من المبالغة في باب الخوف إنما هو عن عُبّاد أهل البصرة، مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن ونحوه، كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة، فإنه قرأ في صلاة الفجر ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[١٩٦] فَخَرَّ ميتاً... وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة مَن هذه حاله، فلما ظهر أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين، كأسماء بنت أبي بكر، والزبير، وابن سيرين... والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء، إذا كان مغلوباً عليه لم يُنكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه، ولهذا لما سُئل الإمام أحمد (بن حنبل) عن هذا، قال: قُرِئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد، فما رأيت أعقل منه، ونُقل عن الشافعي أنه أصابه هذا (الصعق)، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة، وبالجملة فهذا كثير مما لا يُستراب بصدقه»[١٩٧]. ويقول أيضاً: «وَمَا يَحْصُلُ عِنْدَ السَّمَاعِ وَالذِّكْرِ الْمَشْرُوعِ مِنْ وَجَلِ الْقَلْبِ ، وَدَمْعِ

---

[١٩٦] سورة المدّثر: ٨.

[١٩٧] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٧، ٨.

الْعَيْنِ، وَاقْشِعْرَارِ الْجُسُومِ، فَهَذَا أَفْضَلُ الأَحْوَالِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَأَمَّا الاضْطِرَابُ الشَّدِيدُ وَالْغَشْيُ وَالْمَوْتُ وَالصَّيْحَاتُ، فَهَذَا إنْ كَانَ صَاحِبُهُ مَغْلُوباً عَلَيْهِ لَمْ يُلَمْ عَلَيْهِ، كَمَا قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَإِنَّ مَنْشَأَهُ قُوَّةُ الْوَارِدِ عَلَى الْقَلْبِ مَعَ ضَعْفِ الْقَلْبِ، وَالْقُوَّةُ وَالتَّمَكُّنُ أَفْضَلُ، كَمَا هُوَ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ وَالصَّحَابَةِ . وَأَمَّا السُّكُونُ قَسْوَةً وَجَفَاءً فَهَذَا مَذْمُومٌ لا خَيْرَ فِيهِ»[١٩٨]. ويقول علوي بن عبد القادر السقاف، صاحب موسوعة «الدرر السنية - الموسوعة الحديثية»: «كان السلف، رحمهم الله، يسعون في علاج قلوبهم إذا قست، وفي ذلك نماذج كثيرة، منها ما رواه عمرو بن ميمون، أنَّ أباه ميمون بن مهران قال للحسن البصري: يا أبا سعيد، قد أنست من قلبي غلظة، فاستَلِنْ لي منه، فقرأ الحسن: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[١٩٩]، قال: فسقط الشيخ فرأيته يفحص برجله كما تفحص الشاة المذبوحة، فأقام طويلاً ثم أفاق، فجاءت الجارية فقالت: قد أتعبتم الشيخ قوموا، تفرقوا، فأخذتُ بيد أبي فخرجتُ به، ثم قلت: يا أبتاه، هذا الحسن؛ قد كنت أحسب أنه

---

[١٩٨] مجموع الفتاوى، ج٢٢، ص٥٢٢.

[١٩٩] سورة الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧.

أكبر من هذا، قال: فوكزني في صدري وكزة، ثم قال: يا بني، لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لأبقى لها فيك كُلوماً[٢٠٠]، وكان الربيع بن خثيم إذا وجد في قلبه قسوةً أتى في الليل منزل صديق له قد مات، فنادى يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان. ثم يقول: ليت شعري ما فَعَلْتَ، وما فُعِل بك! ثم يبكي حتى تسيل دموعه، فيعرف ذاك فيه إلى مثلها[٢٠١]، وقال مالك: كان محمد بن المنكدر سيد القراء، وكان كثير البكاء عند الحديث، وكنت إذا وجدت من نفسي قسوة آتيه، فأنظر إليه فأتعظ به[٢٠٢]...»[٢٠٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد يَذُمُّ حالَ هؤلاء مَن فيه قسوة القلوب والرّينُ عليها والجفاء عن الدين، ما هو مذموم، وقد فعلوا... بل المراتب ثلاث: حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب، لا يلين للسماع والذكر، وهؤلاء فيهم شَبَهٌ من اليهود، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ

---

[٢٠٠] حلية الأولياء، لأبي نعيم، ٨٣/٤.
[٢٠١] شعب الإيمان، للبيهقي، ١٩/٧.
[٢٠٢] التمهيد، لابن عبد البر، ٢٢٢/١٢.
[٢٠٣] الدرر السنية: https://cutt.us/durar

وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢٠٤]، **والثانية حال المؤمن التقيّ الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه، فهذا الذي يصعق صعق موت، أو صعق غشي، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله... ومن عبّاد الصور (يعني عشاق المخلوقين) من قتله أو جننه، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك. فإذا كان لم يصدر عنه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب في ما أصابه، فلا وجه للريبة»**[٢٠٥].

---

[٢٠٤] سورة البقرة: ٧٤.

[٢٠٥] مجموع الفتاوى، ج١١، ص٨-١٠.

الجذب

عن أبي ذر الغفاري أن النبي ﷺ قال: ﴿إنِّي أرَى ما لا ترَونَ وأسمعُ ما لا تسمَعون، أَطَّتْ السماءُ وحق لها أن تَئِطَّ؛ ما فيها موضِعُ أربعِ أصابِعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ للّٰه ساجداً. واللّٰهِ لو تَعلمونَ ما أعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلاً ولبَكَيتُمْ كثيراً، وما تَلَذَّذْتُمْ بالنساءِ على الفُرُشِ، ولخَرَجْتُمْ إلى الصَّعُدَاتِ تجْأَرونَ إلى اللّٰهِ. لوَدِدْتُ أنِّي كنتُ شجرةً تُعْضَدُ﴾[٢٠٦].

فهذا الحديث يوضح لنا أحوال بعضهم ممن يريهم اللّٰه شيئاً من ملكوته، أو مجالي رحمته أو شديد عذابه، كمن يريه الجنة أو النار، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٢٠٧]، وقد أرى اللّٰه نبيه محمداً ﷺ أكثر من ذلك، فعاين ملكوت السماء في السماء يوم عرج به، فلماذا لم يحصل له هذا ويخرج إلى الصعدات يجأر إلى اللّٰه؟ والجواب أن اللّٰه سبحانه يثبّت رسله عليهم السلام ويمكّنهم لأن لديهم مهمة عظيمة، وهي تبليغ الرسالة وأن يكونوا قدوة للخلق، كاملي العقل والوعي، فلا تختل قدراتهم ولا تطيش عقولهم ولا تذهل قلوبهم،

---

[٢٠٦] سنن الترمذي، برقم ٢٣١٢. وينظر عارضة الأحوذي لأبي بكر بن العربي، ١٥٢/٥.

[٢٠٧] سورة الأنعام: ٧٥.

وقد ضرب النبي ﷺ هذا المثل في الحديث ليبين أن ملكوت الله أعظم من التصور، وأن الصحابة على علو درجاتهم لو علموا ما يعلم ﷺ لخرجوا إلى الطرق يجأرون إلى الله، أما هو ﷺ فقلبه يفوق الجبال رسوخاً، وقد قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٠٨]، **وقال سبحانه** ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[٢٠٩] **فكان قلبه ﷺ أرسخ من الجبال، بما أمده الله عز وجل من عزم وثبات، أما غير الرسل فأحوالهم تختلف، وربما أرى اللهُ العبدَ شيئاً من ملكوته فصعق ومات، وربما فقد عقله، وربما خرج إلى الشوارع يبكي ويجأر إلى الله تعالى، والثابت من ثبّته الله.**

وبعض الناس يعيبونهم، وبعضهم يعيبون المنهج (التصوف) الذي أوصلهم سلوكه إلى هذه الحال، ويجهلون ما وراءها، كمن يعيب على أبي الدرداء وأبي ذر وأبي عبيدة بن الجراح زهدهم وتقشفهم مع كثرة الخير بين أيديهم، ولو علم ما علموا لكان أكثر منهم زهداً، ومن يوقن بقضاء الله تعالى وقدره، وينظر إلى أنه سبحانه خلق أناساً مجانين وعمياناً وصماً وبكماً، مع أنهم لم يسلكوا هذا

---

[٢٠٨] سورة الحشر: ٢١.
[٢٠٩] سورة البقرة: ٩٧.

الطريق، يفهم أن هذا قدر مقدور لا بد أن يصيبهم، سواء أسلكوا هذا الطريق أم غيره، بأسباب أو بغير أسباب، وما أكثر الذين حصل لهم في حوادثَ أمراضٌ أو صدماتٌ نفسية فوصلوا إلى مثل حال هؤلاء، فهو قضاء الله وقدره، لا يرده إلا اللهُ تعالى، وقد كان سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، مجاب الدعوة، لدعاء النبي ﷺ له: ﴿اللهم سَدد رميتَه وأجِب دعوتَه﴾، فكان سديدَ الرمي شديدَه، مجابَ الدعوة[٢١٠]، وكان قد كُفَّ بصره، فلما قدم مكة جاءه الناس يهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، قال عبد الله بن السائب: «فأتيته وأنا غلام، فقلت له: يا عم! أنت تدعو للناس، فلو دعوت لنفسك فردَّ الله عليك بصرك! فتبسم وقال: يا بني! قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري»[٢١١].

فهذا التسليم لا يعرفه إلا من زكت نفوسهم بالإيمان وامتلأت قلوبهم باليقين. وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يبين لنا حال هؤلاء الذين سلب الله عقولهم بما يسمى «الجذب» فيقول: «ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً، إما بسبب خلط يغلب عليه، وإما بغير ذلك، ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذي

---

٢١٠ مسند أحمد، ٣/ ٤٨.

٢١١ إحياء علوم الدين، للغزالي، ج٤، ص٤٣٥.

يُعدّون في النسّاك، وقد يُسمَّون المولّهين، قال فيهم بعض العلماء: هؤلاء أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم وأسقط ما فرض بما سلب»[٢١٢].

وقد كان الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي الشاذلي، رحمه الله، ينهى تلاميذه عن الجلوس إلى المجاذيب، ويتشدد في ذلك، ويقول: «أكرموهم ولا تجالسوهم، ولا تأخذوا عنهم كلمة».

---

٢١٢ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ص١٢.

الخلوة

في منهج الصوفية عمل يسمى «الخلوة»، وذلك إذا رأى المريد في نفسه همة واستعداداً أخبر الشيخ، فيطلب منه الشيخ أن يستعد للخلوة، لينقطع عن الدنيا أياماً، قد تكون ثلاثة أو أكثر، بحسب استعداده، فيصوم نهارها ويقوم ليلها، يقيمها عند الشيخ في الرباط أو الزاوية أو التكية، منفرداً في غرفة أو مقصورة لا يلتقي أحداً سوى الشيخ، الذي يهتم بأمر إفطاره وسحوره، وغالباً ما تكون الوجبة تمرات أو ما شابه من طعام الزهاد المتقشف، ويتفرغ للتعبد من صلاة وقراءة قرآن وذكر، ويراجعه خلالها الشيخ في ما يطرأ له من أحوال، لكي لا يلبّس عليه الشيطان أمراً ما، وتكون هذه الخلوة لتمرين النفس وكسر شهوتها، وتقوية الروح في انطلاقها في مدارج السلوك إلى الله تعالى، وهي تشبه الاعتكاف، إلا أنها تختلف عنه بالعزلة عن الناس، وبعد انقضائها يخرج المريد إلى حياته المعتادة، إلا أنه لا بد أن يكون قد اكتسب صفاء قلبياً وسكينة نفسية وسمواً روحياً تظهر آثارها في سلوكه ومعاملاته، وتتكرر هذه الخلوة مرة في العام أو مرتين أو أكثر، وربما مرة في العمر، بحسب استعداد المريد وطاقته وظروفه. ويرى إخوتي السلفيون أن هذا الأمر بدعة، فلم يفعله النبي ﷺ ولا أصحابه لا في حياته ولا بعد وفاته.

والحق أن النبي ﷺ فعلها قبل أن يبعث، فقد ظهرت في حياته إرهاصات وإشارات دفعته إلى الانفراد في أحواله عن قومه، فلم ينضم إلى أشياخ قومه في دار الندوة على رغم ما عرف عنه من كمال العقل والحكمة، ولا رافق أقرانه في اللهو، فقد شغلته هذه الإرهاصات وفتحت أبواب الفكر في قلبه، ومن هذه الإرهاصات ما ذكره ﷺ في قوله: ﴿إني لأعرفُ حجراً بمكةَ كان يسلمُ عليَّ قبل أن أُبعثَ، إني لأعرفُهُ الآن﴾[٢١٣]، فحُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخرج إلى غار حراء يتعبد، ولم تكن عبادته إلا تفكراً فحسب، وكان ذلك بتدبير الله عز وجل لتهيئته للرسالة، فلما بُعث ﷺ لم يعد في حاجة إلى الخلوة للتحصل على الصفاء والسكينة والسمو، لأنها صارت ملازمة له، فهذا جبريل ينزل إليه فيراه بعينيه ويكلمه، ويوحي إليه كلام الله عز وجل! أما الصحابة رضي الله عنهم فمنذ أسلموا إلى وفاته ﷺ وهم في جهاد، حتى إنه لما مرض مرضه الأخير كان جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه خارج المدينة، وفيه أبو بكر وعمر، فاستثنى ﷺ أبا بكر ليصلي بالناس، فلما علم الصحابة بمرضه ﷺ أقاموا، ولما توفي ﷺ عظم الخطب، واشتدَّت الحال، ونجم النفاق بالمدينة، وارتدَّ من ارتدَّ من أحياء العرب حول المدينة، فلما بويع أبو

---

٢١٣ صحيح مسلم، برقم ٢٢٧٧.

بكر رضي الله عنه كان أول عمل قام به إنفاذ جيش أسامة، مع أن جميع الصحابة أشاروا عليه بعدم إنفاذه لأن الخطر أصبح محدقاً بالمدينة، فقال: «والله لا أحلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أنَّ الطير تخطَّفنا...»[٢١٤]، واستمر الجهاد طوال حياتهم، ولا ريب أن غبار الجهاد في سبيل الله أنفع للقلوب والأرواح من الخلوات، فلم يفعلوا ذلك ولا من جاء بعدهم، لأن الفتوح استمرت والجهاد لم يتوقف، فلما تشكلت الجيوش النظامية، وصار الجهاد فرض كفاية، وهو سياحة الأمة ورهبانيتها، لقوله ﷺ: ﴿إنَّ سياحةَ أمَّتي الجِهادُ في سبيلِ اللَّهِ تعالى﴾[٢١٥]، اتخذ الزهاد والعبّاد والنسّاك الخلوة والسياحة للتقرب إلى الله تعالى، وتحقيق الصفاء والسمو والسكينة، وكان مرجعهم في ذلك الحديث الشريف عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم ﴿رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ﴾[٢١٦]، ولم يروا في ذلك بأساً طالما أن الخلوة أيام معدودة، لا رهبانية فيها ولا مواصلة الدهر ولا ترك الزواج ولا القعود عن التكسب، فهي إجازة من أعباء الحياة ومتعها، وتفرُّغٌ للوقوف بين يدي الله، والاشتغال بالتقرب إليه، لم يَرِدْ فيها تحريم،

---

[٢١٤] البداية والنهاية، لابن كثير، ٦/ ٣٣٥.
[٢١٥] صحيح أبي داود، للألباني، برقم ٢٤٨٦.
[٢١٦] صحيح البخاري برقم: ٦٦٠.

وكما أنه لو خرج أياماً قليلة إلى البرية أو البحر أو المنتجعات للترويح عن نفسه والاستراحة من أعباء الحياة لم يكن في ذلك بأس، فإن التفرغ هذه الأيام القليلة للعبادة والتقرب إلى الله هي نزهة الصالحين ومتعة المتقين، طالما أنهم يؤدون واجباتهم في بقية الأيام، ولا يلتمسون الخلوة تهرباً من جهاد أو من عمل لكسب المعيشة، والله أعلم.

ادّعاء الكشف والتصرف بالأحوال

يقول إخواني السلفيون: إن الصوفية ينسبون إلى مشايخهم أموراً منكرة، كالكشف والتصرف بالأحوال، بل والتصرف في الكون، وهذا لم يدّعِهِ الصحابة رضوان الله عليهم، وهم أكمل الناس إيماناً بعد الأنبياء وأعلى مقاماً عند الله، وهي أمور خاصة بالله سبحانه.

فنترك الإجابة لشيخ الإسلام ابن تيمية: «سُئِلَ رحمه الله: مَا الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِالذِّكْرِ وَالْفِكْرِ وَالرِّيَاضَةِ وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ، وَمَا أَشْبَهَهُ، يُفْتَحُ عَلَيْهِمْ مِنْ الْكُشُوفَاتِ وَالْكَرَامَاتِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الأَحْوَالِ - مَعَ قِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَجَهْلِ بَعْضِهِمْ - مَا لا يُفْتَحُ عَلَى الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ وَدَرْسِهِ وَالْبَحْثُ عَنْهُ؟ حَتَّى لَوْ بَاتَ الإِنْسَانُ مُتَوَجِّهاً مُشْتَغِلاً بِالذِّكْرِ وَالْحُضُورِ لا بُدَّ أَنْ يَرَى وَاقِعَةً أَوْ يُفْتَحَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَوْ بَاتَ لَيْلَةً يُكَرِّرُ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْفِقْهِ لا يَجِدُ ذَلِكَ! حَتَّى إنَّ كَثِيراً مِنْ الْمُتَعَبِّدِينَ يَجِدُ لِلذِّكْرِ حَلاوَةً وَلَذَّةً، وَلا يَجِدُ ذَلِكَ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِتَفْضِيلِ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، لا سِيَّمَا إذَا كَانَ الْعَابِدُ مُحْتَاجاً إلَى عِلْمٍ هُوَ مُشْتَغِلٌ بِهِ عَنْ الْعِبَادَةِ. فَفِي الْحَدِيثِ ﴿إنَّ الْمَلائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ

ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْعَابِدِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ الْعُلَمَاءُ: بِفَضْلِ عِلْمِنَا عَبَدُوا وَجَاهَدُوا، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: أَنْتُمْ عِنْدِي كَمَلائِكَتِي، اشْفَعُوا فَيُشَفَّعُونَ. ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الأَحَادِيثِ وَالآثَارِ. ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَعَبِّدِينَ يُؤْثِرُ الْعِبَادَةَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، مَعَ جَهْلِهِ بِمَا يُبْطِلُ كَثِيراً مِنْ عِبَادَتِهِ؛ كَنَوَاقِضِ الْوُضُوءِ أَوْ مُبْطِلاتِ الصَّلاةِ وَالصَّوْمِ، وَرُبَّمَا يَحْكِي بَعْضُهُمْ حِكَايَةً فِي هَذَا الْمَعْنَى: بِأَنْ رَابِعَةَ العدوية - رَحِمَهَا اللَّهُ - أَتَتْ لَيْلَةً بِالْقُدُسِ تُصَلِّي حَتَّى الصَّبَاحِ، وَإِلَى جَانِبِهَا بَيْتٌ فِيهِ فَقِيهٌ يُكَرِّرُ عَلَى «بَابِ الْحَيْضِ» إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَتْ رَابِعَةُ قَالَتْ لَهُ: يَا هَذَا وَصَلَ الْوَاصِلُونَ إِلَى رَبِّهِمْ وَأَنْتَ مُشْتَغِلٌ بِحَيْضِ النِّسَاءِ! أَوْ نَحْوِهَا، فَمَا الْمَانِعُ أَنْ يَحْصُلَ لِلْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ مَا يَحْصُلُ لِلْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِبَادَةِ، مَعَ فَضْلِهِ عَلَيْهِ؟

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا رَيْبَ أَنَّ الَّذِي أُوتِيَ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ أَرْفَعُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الإِيمَانَ فَقَطْ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَالْعِلْمُ الْمَمْدُوحُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي وَرَّثَتْهُ الأَنْبِيَاءُ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ؛ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِرْهَماً وَلا دِينَاراً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ

أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ﴾. وَهَذَا الْعِلْمُ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ: عِلْمٌ بِاَللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ، وَفِي مِثْلِهِ أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ الإِخْلاصِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ وَنَحْوَهُمَا. وَالْقِسْمُ الثَّانِي: الْعِلْمُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِمَّا كَانَ مِنْ الأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَمَا يَكُونُ مِنْ الأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَمَا هُوَ كَائِنُ الأُمُورِ الْحَاضِرَةِ، وَفِي مِثْلِ هَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَاتِ الْقَصَصِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَصِفَةَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَالْقِسْمُ الثَّالِث: الْعِلْمُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ مِنْ الإِيمَانِ بِاَللَّهِ مِنْ مَعَارِفِ الْقُلُوبِ وَأَحْوَالِهَا، وَأَقْوَالِ الْجَوَارِحِ وَأَعْمَالِهَا، وَهَذَا الْعِلْمُ يَنْدَرِجُ فِيهِ الْعِلْمُ بِأُصُولِ الإِيمَانِ وَقَوَاعِدِ الإِسْلامِ، وَيَنْدَرِجُ فِيهِ الْعِلْمُ بِالأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، وَهَذَا الْعِلْمُ يَنْدَرِجُ فِيهِ مَا وُجِدَ فِي كُتُبِ الْفُقَهَاءِ مِنْ الْعِلْمِ بِأَحْكَامِ الأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ مِنْ جُزْءٍ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ، كَمَا أَنَّ الْمُكَاشَفَاتِ الَّتِي يَكُونُ لأَهْلِ الصَّفَا جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ مِنْ جُزْءٍ مِنْ عِلْمِ الأُمُورِ الْكَوْنِيَّةِ. وَالنَّاسُ إنَّمَا يَغْلَطُونَ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ؛ لأَنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مُسَمَّيَاتِ الأَسْمَاءِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلا يَعْرِفُونَ حَقَائِقَ الأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ، فَرُبَّ رَجُلٍ يَحْفَظُ حُرُوفَ الْعِلْمِ الَّتِي أَعْظَمُهَا حِفْظُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ، وَلا يَكُونُ لَهُ مِنْ الْفَهْمِ؛ بَلْ وَلا مِنْ الإِيمَانِ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ عَلَى مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يُؤْتَ حِفْظَ حُرُوفِ الْعِلْمِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ

الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ﴿مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ: مَثَلُ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ: كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا﴾. فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ حَافِظًا لِحُرُوفِ الْقُرْآنِ وَسُوَرِهِ وَلا يَكُونُ مُؤْمِناً، بَلْ يَكُونُ مُنَافِقاً. فَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لا يَحْفَظُ حُرُوفَهُ وَسُوَرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ يَنْتَفِعُ بِهِ الْغَيْرُ كَمَا يُنْتَفَعُ بِالرَّيْحَانِ. وَأَمَّا الَّذِي أُوتِيَ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ عَلِيمٌ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الْعِلْمِ مِثْلَ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الإِيمَانِ؛ فَهَذَا أَصْلٌ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ. وَهَهُنَا أَصْلٌ آخَر: وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ أَوْرَثَ كُشُوفاً أَوْ تَصَرُّفاً فِي الْكَوْنِ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ الْعَمَلِ الَّذِي لا يُورِثُ كَشْفاً وَتَصَرُّفاً ؛ فَإِنَّ الْكَشْفَ وَالتَّصَرُّفَ إنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَإِلا كَانَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ لِلْكُفَّارِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ؛ وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لأَهْلِ الإِيمَانِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ؛ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ»[٢١٧].

---

[٢١٧] مجموع الفتاوى، ج١١، ٩٥- ٩٩.

ونتوقف عند الفقرة الأخيرة من جوابه، رحمه الله: «وَهَهُنَا أَصْلٌ آخَر: وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ أَوْرَثَ كُشُوفاً أَوْ تَصَرُّفاً فِي الْكَوْنِ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ الْعَمَلِ الَّذِي لا يُورِثُ كَشْفاً وَتَصَرُّفاً»، فهو بكلامه هذا أقرَّ بأنه من الممكن أن يحصل للمرء كشوف وتصرّف في الكون، ولم يَنْفِهِ أو يَقُلْ هذا زعم باطل! بل أكد أنه يمكن أن يحصل لغير المسلمين أيضاً. فهو ليس دعوى باطلة كما يظن كثير من الناس.

قولهم بعدم الخوف من الله

مر بنا قول رابعة العدوية رحمها الله: «اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها، وإن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأرسلني فيها، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد»[٢١٨]، وقال إخواني السلفيون إنه معنىً باطلٌ، فالله خلق النار لتخويف عباده، وخلق الجنة لترغيبهم، فمن لم يخف ناره ويطمع بجنته فقد خرج عن سواء السبيل!

والحق أن بعض العلماء المعارضين للتصوف قد أنكروا على رابعة هذا القول، فقال فيه الشيخ الألباني: «ليس من الإسلام في شيء»[٢١٩]، وقال غيره: «هذا ضلال، بل كفرٌ بالله عز وجل! وكيف لا يخاف المسلم من الله ويطمع في رحمته، والله يقول: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٢٢٠]**؟ وكيف لمسلم ألا يخاف غضب الله»[٢٢١]؟**

ونحن نضيف إلى ما استشهد به الشيخ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[٢٢٢]**، فالآية الكريمة التي استشهد بها وَصْفٌ**

---

[٢١٨] سبق في الهامش رقم ٣٥.

[٢١٩] https://www.youtube.com/watch?v=_c149xpm77g

[٢٢٠] سورة السجدة: ١٦.

[٢٢١] https://www.youtube.com/watch?v=7LV_epZHxKg

[٢٢٢] سورة آل عمران: ١٧٥.

بالخوف، أما هنا فهو أَمْرٌ به! فقد أمرنا سبحانه بأن نخافه، لكن الشيخ وجّه الكلام وجهة أخرى، فقال: وكيف لا يخاف المسلم من الله ويطمع في رحمته؟ في حين أن السيدة رابعة، رحمها الله، قالت إنها لا تخاف النار ولا تطمع في الجنة، ولم تقل إنها لا تخاف الله ولا تطمع في رحمته، والنار مخلوق، والخوف إنما يكون من الخالق لا من المخلوق، وثمة فرق كبير بين أن تقول لأحد: «أنا لا أخاف كلبك» وبين أن تقول له: «أنا لا أخافك»! وفرق بين أن تقول لملك: «أنا أتقرب إليك حباً بك، لا طمعاً في جوائزك»، وأن تقول له: «أنا أتقرب إليك لأنال عطاياك»! وأصدق الحب ما كان بلا طمع، ورحمة الله ليست مقتصرة على الجنة، وعذابه ليس مقتصراً على النار، وقد قال زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوهُ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوهُ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ»[٢٢٣]، وقد «قَدِمَ أبو ذؤيب الهذلي على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال له أي العمل أفضل، يا أمير المؤمنين؟ قال: الإيمان بالله ورسوله. قال قد فعلت، فأيُّه أفضل بعده؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: ذلك كان عليَّ وإني لا أرجو جنة ولا أخاف ناراً، ثم خرج

---

٢٢٣ البداية والنهاية، لابن كثير، ج٩، ص١٢٣.

فغزا أرض الروم مع المسلمين، فلما قفلوا أخذه الموت»[٢٢٤]. فقد أقر بأن ذلك كان عليه، أي واجب، وأنه لا يرجو من ورائه جنة ولا يخاف ناراً، أي أنه يفعله «في سبيل الله»، ولم يقل له عمر بن الخطاب هذا ضلال أو كفر!

وهذا إبراهيم بن أدهم، رحمه الله، يؤكد هذا المفهوم بألفاظ أخرى: «قال إبراهيم بن أدهم لرجل: أتحب أن تكون لله وليّاً؟ قال: نعم. قال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرغ نفسك لله عز وجل، وأقبل عليه يرفق عليك ويوالِك»[٢٢٥]. وقد بين الله سبحانه أن الغاية من خلق الثقلين هي عبادته، فقال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والْإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾[٢٢٦] **فهي الأصل في الغاية من خلقهم، فإن جاءت بعد ذلك مرغّبات فهي كرم منه سبحانه، والمرهّبات لعقاب من لم يحقق الغاية من خلقه وهي العبادة، فلو أن أباً استدعى أولاده وأمرهم بغرس فسائل، ووعد الغارس بمكافأة وتوعّد المُعْرِضَ بعقوبة، فمن غرس امتثالاً للأمر أو تحقيقاً للغاية التي استدعي من أجلها لا رغبةً في الوعد ولا خوفاً من الوعيد كان عمله أكمل من غيره.**

---

[٢٢٤] الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، ج٦، ص٢٢٩.

[٢٢٥] معراج التشوف إلى حقائق التصوف، لابن عجيبة، ص٣٩.

[٢٢٦] سورة الذاريات: ٥٦.

ادعاء معرفة أشياء من الغيب

يزعم الصوفية أن مشايخهم يعلمون الغيب، والله سبحانه يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[٢٢٧]**، فدعواهم باطلة بصريح القرآن الكريم الذي كذّبها ونفى علم الغيب عن أحد سوى الله.**

وهذا الكلام صحيح لا غبار عليه، فحتى الأخبار المستقبلية والنبوءات التي جاءت عن الأنبياء لم يتحصلوا عليها علماً وإنما تعليماً من الله سبحانه لهم، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[٢٢٨]**، ولا ريب أن كلمة «رسول» هنا تشمل الملائكة والأنبياء الذين يرسلهم سبحانه، فيعلمهم من المسائل الغيبية ما يكفي لتبليغ رسالاته، والغيب ينقسم قسمين، الأول: ما حصل ولم يعلم به أحد إلا الله، مثل أمر القتيل في قصة بقرة بني إسرائيل** ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٢٢٩] **وما يشبه ذلك من أحداث حصلت أو تحصل في الخفاء أو في أماكن بعيدة، كقصة عمر رضي**

---

٢٢٧ سورة النمل: ٦٥.
٢٢٨ سورة الجن: ٢٦.
٢٢٩ سورة البقرة: ٧٢.

الله عنه، مع سارية، وهذا ليس المقصود بالغيب الذي خص الله تعالى به نفسه أو أعلم رسله بعضاً منه، فهذا النوع قد يدرك بالكشف، وكانت الجن تخبر الكهان بأشياء منه فيخبرون بها الناس، ومن جعلهم الله تعالى من أهل الكشف يمكن أن يعلموا بذلك ويبصروه عياناً ويتصرفون، فعمر نادى: «يا سارية الجبل» وسمعه سارية فاحتاط للأمر وردَّ العدو الذين تسللوا من وراء الجبل، والقسم الثاني: ما سيحصل، وهذا علم ممتنع على العباد. لكن ثمة ما يسمى «الفِراسة»، وهي أمر معروف، وقد أفرد له ابن القيم باباً في «مدارج السالكين»، لكنه تعامل معه بحذر خشية المساس بمسألة الغيب، فألحق به الكشف وما يمكن أن يفتح الله به على عباده أصحاب الخصوصية من أمور ترتبط بالغيب أكثر مما ترتبط بالفِراسة، فمن الفِراسة ما جاء عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، إذ «دخل عليه رجل من الصَّحابة، وقد رأى امرأة في الطَّريق، فتأمَّل محاسنها، فقال له عثمان: يدخل عليَّ أحدكم، وأثر الزِّنا ظاهر على عينيه. فقال: أوحيٌّ بعد رسول الله(ﷺ)؟! فقال: لا، ولكن تَبْصِرةٌ وبرهانٌ، وفِرَاسَة صادقة»[٢٣٠]، فالأمر لم يكن غيباً مستقبلياً، وإنما أمر حصل، وقد بيّن عثمان رضي الله عنه أنها تبصرة: مرتبطة

---

٢٣٠ الروح، لابن القيّم، ص ٢٤٠، وينظر: الرسالة القشيرية، للقشيري ٢/ ٣٩٣.

بالبصيرة لا البصر، وبرهان: أي من الله تعالى، وفِراسة: أي ظن مصيب، ومن ذلك ما رُوِي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «أنَّه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر، فصعَّد عمر فيه النَّظر وصوَّبَهُ، وقال: أيُّهم هذا؟ فقالوا: مالك ابن الحارث، فقال: ما له - قاتله الله - إنِّي لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً. فكان منه في الفتنة ما كان»[٢٣١]، فهذا أمر يتعلق بالبصيرة لا بالكشف، لأن الكشف يكون في ما حصل أو يحصل في الوقت الحاضر، أما هنا فقد ظن عمر أمراً مستقبلياً، وأصاب ظنه، ولا نغفل أن عمر من المحدّثين (الملهمين) بنص الحديث. لكن ماذا نفعل في ما أورده ابن القيم، رحمه الله، وأدرجه في باب الفراسة، فقال: «وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ فِرَاسَةِ شَيْخِ الإِسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أُمُوراً عَجِيبَةً. وَمَا لَمْ أُشَاهِدْهُ مِنْهَا أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ. وَوَقَائِعُ فِرَاسَتِهِ تَسْتَدْعِي سِفْراً ضَخْماً:

أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِدُخُولِ التَّتَارِ الشَّامَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِئَةٍ، وَأَنَّ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ تُكْسَرُ، وَأَنَّ دِمَشْقَ لا يَكُونُ بِهَا قَتْلٌ عَامٌّ وَلا سَبْيٌ عَامٌّ، وَأَنَّ كَلَبَ الْجَيْشِ وَحِدَّتَهُ فِي الأَمْوَالِ. وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَهُمَّ التَّتَارُ بِالْحَرَكَةِ»[٢٣٢].

---

[٢٣١] تفسير القرطبي، (١٠/٤٤).

[٢٣٢] مدارج السالكين، لابن القيم، ج٢، ص٤٥٨.

ولا ريب أن هذا أمر لا يُدرك بالفِراسة، فعمر بن الخطاب حين رأى الأشتر «صعَّد فيه النَّظر وصوَّبه» فتوسّم فيه الشر، ثم قال فيه ما قال، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فلم يتحدث عن شخص يمكن أن ينظر في عينيه ويتوسم فيه ويتفرس، وإنما تكلم عن جيش غازٍ، فأخبر بدخولهم الشام، وحدد السنة، وأوضح أنهم لن يستعروا بالقتل والسبي وإنما همهم سيكون الأموال، هذا كله وجيش التتار لم يتحرك بعد فتُعرف وجهته أصلاً، فضلاً عن تفصيل نتائج المعركة! فهل هذه فراسة؟ ولننتقل إلى التالية، فإنها أعظم:

«ثُمَّ أَخْبَرَ النَّاسَ وَالأُمَرَاءَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِمِئَةٍ، لَمَّا تَحَرَّكَ التَّتَارُ وَقَصَدُوا الشَّامَ: أَنَّ الدَّائِرَةَ وَالْهَزِيمَةَ عَلَيْهِمْ. وَأَنَّ الظَّفَرَ وَالنَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ. وَأَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ يَمِيناً. فَيُقَالُ لَهُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَيَقُولُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَحْقِيقاً لا تَعْلِيقاً. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ. قَالَ: فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيَّ. قُلْتُ: لا تُكْثِرُوا. كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنَّهُمْ مَهْزُومُونَ فِي هَذِهِ الْكَرَّةِ، وَأَنَّ النَّصْرَ لِجُيُوشِ الإِسْلامِ. قَالَ: وَأَطْمَعَتْ بَعْضَ الأُمَرَاءِ وَالْعَسْكَرِ حَلاوَةُ النَّصْرِ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ إِلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ»[٢٣٣]. فهنا تحرك التتار، وهو حين لم يتحركوا أخبر أنهم لن يهزموا، وهنا بعد تحركهم أخبر الناس

[٢٣٣] مدارج السالكين، لابن القيم، ج٢، ص٤٥٨.

والأمراء أن الدائرة ستكون عليهم، والأعظم من الخبر أنه أقسم على ذلك سبعين يميناً! وهل يقسم العالم الفقيه على أمر ظني لم يعاينه، بل لم يحصل بعد؟! والأدهى من كل ذلك قوله: «لا تُكْثِرُوا، كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَأَنَّ النَّصْرَ لِجُيُوشِ الإِسْلامِ»[٢٣٤]. ونضع دائرة حول قوله: «كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنَّهُمْ مَهْزُومُونَ فِي هَذِهِ الْكَرَّةِ» ونتعمق دلالاتها وراء معانيها؛ هل هذه فِراسة؟ بالتأكيد لا. هل هي كشف؟ بالتأكيد لا. هل فتحَ الله لشيخ الإسلام فنظر في اللوح المحفوظ وقرأ ذلك فبشَّر به؟ أنا شخصياً لا أستبعد ذلك، وإلا فلا معنى لأن يقسم عالم كابن تيمية سبعين يميناً على أمر ظني مهما بلغت فِراسته، ولا معنى آخر لقوله: «كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ» إلا أن يكون رآه، لأنه لا وحي بعد رسول الله ﷺ.

ونتابع مع ابن القيم في ما يروي عن شيخ الإسلام ابن تيمية:
«وَلَمَّا طُلِبَ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَأُرِيدَ قَتْلُهُ - بَعْدَمَا أُنْضِجَتْ لَهُ الْقُدُورُ، وَقُلِّبَتْ لَهُ الأُمُورُ - اجْتَمَعَ أَصْحَابُهُ لِوَدَاعِهِ. وَقَالُوا: قَدْ تَوَاتَرَتِ الْكُتُبُ بِأَنَّ الْقَوْمَ عَامِلُونَ عَلَى قَتْلِكَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لا يَصِلُونَ إِلَى ذَلِكَ أَبَداً. قَالُوا: أَفَتُحْبَسُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَيَطُولُ حَبْسِي. ثُمَّ أَخْرُجُ

---

[٢٣٤] مدارج السالكين، لابن القيم، ج٢، ص٤٥٨.

وَأَتَكَلَّمُ بِالسُّنَّةِ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ. سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ»[٢٣٥].

وقد حصل ذلك كما أخبر، فهل كانت هذه فِراسة؟ لنتابع:

«وَلَمَّا تَوَلَّى عَدُوُّهُ الْمُلَقَّبُ بِالْجَاشِنْكِيرِ الْمُلْكَ أَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ. وَقَالُوا: الآنَ بَلَغَ مُرَادَهُ مِنْكَ. فَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا وَأَطَالَ. فَقِيلَ لَهُ: مَا سَبَبُ هَذِهِ السَّجْدَةُ؟ فَقَالَ: هَذَا بِدَايَةُ ذُلِّهِ وَمُفَارَقَةُ عِزِّهِ مِنَ الآنِ، وَقُرْبُ زَوَالِ أَمْرِهِ. فَقِيلَ: مَتَى هَذَا؟ فَقَالَ: لا تُرْبَطُ خُيُولُ الْجُنْدِ عَلَى الْقُرْطِ حَتَّى تُغْلَبَ دَوْلَتُهُ. فَوَقَعَ الأَمْرُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَ بِهِ. سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْهُ»[٢٣٦].

فهل هذه أيضاً فِراسة؟ لو كان الخبر يأتي منه مجملاً لقلنا فِراسة، لكن أن تأتي أخباره بأدق تفاصيلها، فهذا لا يدخل في باب الفِراسة مطلقاً. ولنتابع:

«وَأَخْبَرَنِي بِبَعْضِ حَوَادِثَ كِبَارٍ تَجْرِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَلَمْ يُعَيِّنْ أَوْقَاتَهَا. وَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ بَقِيَّتَهَا. وَمَا شَاهَدَهُ كِبَارُ أَصْحَابِهِ مِنْ ذَلِكَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا شَاهَدْتُهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ»[٢٣٧].

والسؤال الأخير الذي نطرحه: ألا يسع مشايخ الصوفية من الأتقياء ما وسع شيخ الإسلام ابن تيمية من هذه الكرامات والكشوف؟

---

[٢٣٥] مدارج السالكين، لابن القيم، ج٢، ص٤٥٨.
[٢٣٦] المصدر السابق.
[٢٣٧] المصدر نفسه، ص٤٥٩.

ادعاؤهم أن الشيخ يعلم ما يفعل مريدوه وما في نفوسهم

يزعم الصوفية أن الشيخ متابعٌ لمريديه وهم غائبون عن عينه بعيدون عن مكان إقامته، وأنه يعرف أحوالهم، فيعاتب بعضهم على تقصير، ويؤنب ويقرّع آخرين على معاصٍ ارتكبوها في الخلوات؛ ولهم في ذلك قصص، بل ويزعمون أن الشيخ مطّلع على نياتهم، وحين يأتي هذا الكلام من عوام لا يؤبه له، لكن حين يصدر عن فقهاء أئمة في التصوف مثل ابن عطاء الله السكندري، لا يمكن التغاضي عنه! يقول ابن عطاء: «دخلت على الشيخ أبي العباس المرسي، وفي نفسي العزم على التجريد، قائلاً في نفسي إن الوصال إلى الله تعالى على هذه الحال التي أنا عليها بعيد من الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس، فقال لي من غير أن أسأله: صحبني إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدِّر فيها، فذاق من هذا الطريق شيئاً، فجاء إليّ فقال لي: يا سيدي أخرج عما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك. فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث في ما أنت فيه، وما قسم الله لك على أيدينا فهو لك واصل»[٢٣٨]، ومنها ما رواه ابن حجر أن «ابن عطاء الله السكندري قصد مجلسه ثلاثة، فقال أحدهم: لو سَلِمتُ من العائلة لتجرّدت. وقال الآخر: أنا أصلي وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرّة. وقال الثالث: أنا صلاتي ما تُرضيني فكيف تُرضي ربي؟ فلما

---

[٢٣٨] إيقاظ الهمم، لابن عجيبة، ص٣٢.

حضروا مجلسه، قال في أثناء كلامه: ومن الناس من يقول... فأعاد كلامهم بعينه»[٢٣٩]، والنيات والسرائر لا يعلمها إلا الله تعالى، وهم موقنون بهذا التخريف حتى انتشرت بينهم مقولة: «إذا جالست العلماء فاحفظ لسانك، وإذا جالست الأولياء فاحفظ قلبك».

والحق أنني كنت آخذ على إخواني من الصوفية مثل هذه الاعتقادات وتداولهم أمثال هذه القصص والعبارات، حتى قرأت «مجموع الفتاوى» لابن تيمة، و«مدارج السالكين» لابن قيم الجوزية، فأعدت النظر في ما كنت أعُدُّه خرافاتٍ وأوهاماً، مع أنني لمست أشياء من ذلك عند الشيخ عادل الأمين، رحمه الله، إلا أنني كنت أحملها على أنه موافقات بما يشبه الصدفة، كما تقول العرب «اذكر الذيب وحضر القضيب»، فوجدت الشيخين يتحدثان عن الكشف والتصرّف والتحكم في الكون، كما مر بنا من في كلام ابن تيمية، وفي الاطلاع على السرائر، كما يذكر ابن القيم في «المدارج» عن شيخ الإسلام ابن تيمية، إذ يقول:

«وَأَخْبَرَنِي غَيْرَ مَرَّةٍ بِأُمُورٍ بَاطِنَةٍ تَخْتَصُّ بِي مِمَّا عَزَمْتُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِهِ لِسَانِي».[٢٤٠]، وهذا الكلام يتطابق تطابقاً تاماً مع ما ذكره ابن عطاء عن معرفة شيخه أبي العباس المرسي بنيته التي لم يحدّث

---

[٢٣٩] الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني، ٢٧٣/١.

[٢٤٠] مدارج السالكين، لابن القيم، ج٢، ص٤٥٩.

بها أحداً! وأما أفعال المريدين والأتباع، فلها ﰲ سيرة الشيخين ابن تيمية وابن القيم صورة تتطابق تماماً مع ما يتداوله الصوفية مما يُظَنُّ خرافات أو أوهاماً، يقول ابن القيم عن ابن تيمية: «وَقَالَ مَرَّةً: يَدْخُلُ عَلَيَّ أَصْحَابِي وَغَيْرُهُمْ. فَأَرَى فِي وُجُوهِهِمْ وَأَعْيُنِهِمْ أُمُوراً لا أَذْكُرُهَا لَهُمْ. فَقُلْتُ لَهُ - أَو غَيْرِي - لَوْ أَخْبَرْتَهُمْ؟ فَقَالَ: أَتُرِيدُونَ أَنْ أَكُونَ مُعَرِّفاً كَمُعَرَّفِ الْوُلاةِ؟ وَقُلْتُ لَهُ يَوْماً: لَوْ عَامَلْتَنَا بِذَلِكَ لَكَانَ أَدْعَى إِلَى الاسْتِقَامَةِ وَالصَّلاحِ. فَقَالَ: لا تَصْبِرُونَ مَعِي عَلَى ذَلِكَ جُمُعَةً، أَوْ قَالَ: شَهْراً»[٢٤١]. وبالتأكيد لن يصبروا على مجالسة من يخبرهم بما اجترحوا ﰲ الخلوات أو ما تضمر نفوسهم. وأمام هذا الخبر ليس أمامنا إلا أن نصدق روايات الصوفية عن مشايخهم ومعرفتهم ما يُحدِث مريدوهم ﰲ الخلوات، بل ومعرفتهم بنياتهم وما عزموا على فعله ولم ينطقوا به، أو أن نكذّب ابن القيم، أو ننفي نسبة الكتاب إليه، كما فعل بعضهم حين نفى نسبة كتاب «الروح إليه»، لأنه وجد فيه ما ينقض آراءه، والكتابان (الروح والمدارج) نسبتهما إلى ابن القيم ثابتة لا يشكك فيها إلا من يزعم أن الشمس تطلع من الشمال أو الجنوب! وحتى لو نفى نسبتهما إليه، فهل ينفي نسبة كتاب «مجموع الفتاوى» إلى ابن تيمية، وقد تكلم فيه عن الكشف والتصرف وغيرهما من الكرامات؟

---

[٢٤١] مدارج السالكين، لابن القيم، ج٢، ص٤٥٨، ٤٥٩.

ادعاء عصمة المشايخ

يقول إخواني السلفيون: يزعم الصوفية أن مشايخهم معصومون، لا يجترحون سيئة ولا يكتسبون ذنباً ولا يرتكبون خطيئة، وهذا لم يقل به أخيار هذه الأمة من الصحابة، أو حتى الخلفاء الراشدون المهديون، والمعلوم أن العصمة لا تكون إلا للأنبياء.

ولم يذكروا دليلاً على هذه الدعوى من كلام أئمة الصوفية، وإنما ذكروا أنه مما يتداوله بعض المريدين، وهنا نعود إلى التفريق بين «متصوف» و«صوفي»، فالمتصوفة الذين انتسبوا إلى الصوفية بمظاهر المسبحة أو الثياب أو غيرها يتداولون أشياء أعظم من ذلك تبلغ الكفر، وهم لا يُحْسَبون على التصوف - كما بينّا من قبل- فخلال صحبتي للصوفية لم أسمع منهم شيئاً من ذلك، بل كانوا يتكلمون عن «الحفظ» ويعرّفونه بأنه «الإنابة» أو «الأوبة»، أي أن الشيخ يخطئ أو يذنب، لكنه ينيب إلى الله تعالى ويؤوب إليه ويستغفره، وهذا أمر لا يختص بمشايخ التصوف، فهو من شأن الأنبياء والصالحين والمتقين عموماً، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[٢٤٢]، و«منيب»: رَجَّاع إلى طاعته، وقال مجاهد:

---

[٢٤٢] سورة هود: ٧٥.

القانت: الرَّجاع[٢٤٣] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢٤٤]، و«أوّاب»: رجّاع إلى طاعة الله توّاب إليه مما يكرهه منه[٢٤٥]. ولم أسمع منهم يوماً نسبة العصمة إلى غير الأنبياء.

إما إذا رجعنا إلى أقوال أئمة التصوف، فإننا نجدهم يؤكدون انتفاء العصمة عن غير الأنبياء، ومن ذلك: «سُئل الجنيد: أيزني العارف؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[٢٤٦]»[٢٤٧]، ومرجعه في ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ على ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أدْرَكَ ذلكَ لا مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشْتَهِي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ أوْ يُكَذِّبُهُ»[٢٤٨]. ومثل ذلك ما جاء عن إبراهيم بن أدهم، أنه قال: «كنت أنتظر مدة أن يخلو المطاف لي، فكانت ليلة بها مطر شديد، فخلا المطاف، فدخلت الطواف، وكنت أقول: اللهم اعصمني، اللهم اعصمني. فسمعت هاتفاً يقول: يا بن أدهم، أنت تسألني العصمة وكل الناس يسألونني العصمة، فإذا عصمتهم

---

٢٤٣ يُنظر تفسير الطبري للآية.
٢٤٤ سورة ص: ٣٠.
٢٤٥ ينظر تفسير الطبري للآية.
٢٤٦ سورة الأحزاب: ٣٨.
٢٤٧ الرسالة القشيرية، ص٣٦٠.
٢٤٨ صحيح البخاري، برقم ٦٦١٢.

فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟[٢٤٩]

فهذه أقوال أئمتهم في شأن العصمة، فلا يقرونها في أحد غير الأنبياء، ولا يدّعيها أحد منهم، ولم ينسبوها إلى أحد من شيوخهم أو أكابرهم، أما ما تسلل من دين الرافضة إلى ألسنة العامة ومعتقداتهم فلا علاقة للصوفية أو التصوف به، والخلاصة أن العصمة لو كانت لأحد من البشر لكانت لأبيهم آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وجعله وذريته من بعده خلفاءه في الأرض، أما الأنبياء فعصمهم لأنهم قدوات، كما قال الله سبحانه على لسان نبيه شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[٢٥٠]، **فالنبي إذا خالف قومَه إلى ما ينهى عنه فلن يتبعه أحد.**

---

[٢٤٩] إتحاف المتقين، للزبيدي، ج١١، ص٣٦٥. وذكره ابن القيم في المدارج، ج١، ص٣٠٩، ولم ينسبه.
[٢٥٠] سورة هود: ٨٨.

القبورية

يقول إخواني السلفيون: الصوفية قبوريون، وعملهم هذا شرك بالله تعالى، بل هو من الشرك الأكبر!

وهم لا يعنون بذلك زيارة القبور، فهي سنّة، وإنما يعنون بالقبورية ما يجري عليه جهلة العامة وبعض الصوفية، وهي ثلاثة أقسام:

الأول: اتخاذها وسيلة للكدية والتسول والتكسب بقبض ما يجلبه الزوار من هدايا وتقدمات. والقائمون عليها يشبهون كهّان الجاهلية القيّمين على الأصنام، فهم يتولون تنظيفها وتعطيرها والعناية بها، ويأخذون القرابين والتقدمات التي يؤتى بها إليها. وكما كان قيمو الأصنام يروّجون لها ويدعون إلى زيارتها، لأنهم المستفيدون الأوائل منها، فكذلك يفعل قيّمو القبور.

والثاني: جمع الأتباع حول الشخص القائم على العناية بالقبر، واستغلال التاريخ النقي والسمعة الطيبة للشيخ المدفون فيه وصلاحه وحب الأتباع له، بمنح مكان القبر أو مجلس الشيخ بجانبه قداسة، ليلتفوا حول هذا القيم ويعطوه صفة وراثة الشيخ وخلافته، فيتحصل بذلك على مكانة بين الأتباع لا يستحقها ولم يكن ليصل إليها بعلم أو عمل.

والثالث: اتخاذها أصناماً ورفع الحاجات إلى المدفونين فيها، كما ترفع الحاجات إلى الله سبحانه وتعالى في الدعاء، وبعضهم يتمسح

بها وبعضهم يأخذ شيئاً من ترابها أو القماش الذي يغطى به القبر، للبركة أو للتحصن.

وهذا كله واقع، رأيناه من عجائز اعتدن على هذا الأمر، وأفراد جهلة لا علم لديهم ولا فقهاً، وإنما يقع أحدهم بضائقة فينصحه أحد مروجي القبورية من كهنتها المستفيدين منها بزيارة قبر فلان من الأولياء أو الصالحين أو الصحابة أو التابعين، كما بلغني من فعل بعض الناس عند قبر سيدنا عمار بن ياسر، وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وعند قبر أويس القرني، وقبور عدد من الصالحين، رحمهم الله.

وسبق أن بينّا أن هذه عادات لا عبادات، تسللت إلى المجتمع فصارت لديهم من المسلّمات، إلا من أخذ بطرف من العلم أو تولى تربيته علماء أو مشايخ فقهاء أو مرشدون واعون. ومن ينظر في حال من كان قبورياً من هؤلاء يجدهم جهلة لا يعرفون حتى القراءة، وأما الذين اتّسموا بالقبورية من «المتصوفة» فهم بلا علم ولا فكر ولا ذكر، وإنما تعلقوا بقشور التصوف، وأوقعهم سوء حظهم بين يدي كهنة القبور المستفيدين منها مالياً أو معنوياً، فاتخذوهم مشايخ، ولما لم يكن لهم علم ولا فقه فقد صرفوا مريديهم إلى أذكار ثابتة، لا مزيد عليها، والإقبال على القبور ودعاء أصحابها، فيرقّعون خروق جهلهم وقِصَرَ هممهم بمجالس السماع التي يجتذبون بها الأتباع

الجهلة، ولا علم فيها ولا ذكراً. فهل هذا من التصوف؟ إذا أراد أحد أن يتعرف إلى الإسلام، فهل نقول له: انظر حال المسلمين لتعرف، أم نقول له اقرأ القرآن والسنة لتعرف؟ لا ريب أن الثاني هو ما سيحصل، ولذلك قال بعض أهل العلم: «ذهبت إلى الغرب فوجدت إسلاماً ولم أر مسلمين، وعدت إلى الشرق فوجدت مسلمين ولم أر إسلاماً»، فالمنهج لا يقوَّم من خلال سلوك أتباعه، وإنما من أسسه ومبادئه، لأن الناس في القرون الأخيرة غلبت عليهم الشعارات والمظاهر، وأهملوا التطبيق والحقائق. فكان أئمة الصوفية يحذرون مريديهم من هذه الأمور، وينهونهم عنها بأقسامها الثلاثة التي ذكرناها، وللشيخ أحمد الرفاعي، رحمه الله، قول بليغ في ذلك، لو تفكر في معانيه ومدلولاته أولئك الذين يرتكبون تلك الخطيئة لأجل الدنيا، أو انتبه إلى مدلولاتها مريدوهم، لانتهوا عنها، لكن المشكلة أن الطرفين لا علم لهم ولا فهم، يقول رحمه الله: «لا تتخذوني دفّة المِكْدَية، لا تجعلوا رواقي حرماً، وقبري بعد موتي صنماً»[٢٥١]. والدفة: مقود السفينة، والكدية: التسول والإلحاح في السؤال[٢٥٢]، ورواق الْبَيْت: مقدمه، وسقيفة للدراسة فِي مَسْجِد أَو غَيره[٢٥٣]. وكان للشيخ رواق كبير يلقي فيه دروسه على أتباعه. فهو

---

٢٥١ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٨٢.

٢٥٢ المعجم الوسيط.

٢٥٣ المصدر السابق.

يقول: لا تتخذوني وسيلة للتسول على اسمي وسمعتي بانتسابكم إلى طريقتي. لا تجعلوا لهذا الرواق قدسية كما للمساجد، ولا تجعلوا قبري بعد موتي صنماً بالتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة ورفع الحاجات واعتقاد قضائها. فهل من مزيد بعد هذا الكلام؟

هذا المنهج، فأين التطبيق؟ هذا الدليل فأين السالكون؟

وهذه الوصية لم تقتصر على منهج الرفاعي، فمعظم أئمة التصوف أوصوا بمثلها، فحذروا ونهوا عن ذلك. فإن وجدنا منتسبين إلى التصوف يفعلونه فإننا لا ننقض التصوف بفعلهم، وموقفنا منهم كموقفنا من مسلمين يلعبون القمار أو يشربون الخمر أو يأخذون الرشاوى؛ نرى العيب فيهم لا في الإسلام.

وهذه دعوة من الشيخ أحمد الرفاعي ننشرها تبليغاً لجميع الصوفية: لا تتخذوا شيوخكم دفة المكدية، ولا تجعلوا أماكن جلوسهم للتعليم حرماً، ولا تجعلوا قبورهم أصناماً، فإنهم بُرآء مما تفعلون، وسيخاصمونكم بين يدي الله الذي سيسألهم كما يسأل نبيه عيسى بن مريم عليهما السلام: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي

أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٢٥٤].

وكما يتبرأ عيسى بن مريم عليه السلام من فعل من اتخذوه وأمه إلهين، ويقيم الحجة عليهم بأنه لم يقل لهم شيئاً من ذلك، وأعظم شاهد على ذلك هو الله سبحانه وتعالى و﴿كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا﴾[٢٥٥]، **فكذلك سيتبرّأ الأولياء والصالحون والأئمة ممن سلك هذا المسلك الشركي وادّعى اتّباعهم كذباً وزوراً كما ادّعى الصليبيون اتباع عيسى عليه السلام، وسيقيمون على القبوريين الحجة ويجعلون الله شهيداً بينهم وبين هؤلاء، والله خير الشاهدين وأعدل الحاكمين.**

---

[٢٥٤] سورة المائدة: ١١٦.

[٢٥٥] سورة الرعد: ٤٣.

التوسل

قال إخواني السلفيون: إن الصوفية يتوسلون بالنبي ﷺ، وهذا لا يجوز، لأن النبي ﷺ قد مات، وحين استسقى عمر رضي الله عنه استسقى بالعباس، ولم يستسق بالنبي ﷺ، لأنه ميت، لكن الصوفية أجازوا لأنفسهم ذلك وتوسعوا فيه فأجازوا لأنفسهم التوسل بالمشايخ والصالحين الذين ماتوا، وهذا شرك، لأن التوسل إلى الله تعالى لا يكون إلا بالله، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢٥٦] **وقال سبحانه:** ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[٢٥٧].

وما ذكروه حاصل بالفعل، وهو من المآخذ التي أصبحت الأجيال الجديدة تأخذها على الصوفية، وسنناقش أصل المسألة ونستطلع آراء العلماء والأدلة فيها، ونتبين مدى صحة قول من قال «التوسل إلى الله تعالى لا يكون إلا بالله»، فما هي الوسيلة؟

الوسيلة: القربة، وهي «الفعيلة» من قول القائل: «توسلت إلى فلان بكذا»، بمعنى: تقرَّبت إليه[٢٥٨].

---

٢٥٦ سورة المائدة: ٣٥.

٢٥٧ سورة الإسراء: ٥٧.

٢٥٨ تفسير الطبري.

قال عنترة بن شداد:

إِنَّ الرِّجالَ لَـهُمْ إِلَيكِ وَسِيلةٌ   إِنْ يَخْطِبوكُ تَخَضّبي وَتكَحَّلي

قال ابن عباس: الوسيلة: الحاجة.

وإذا قرئ بيت عنترة بفتح همزة «أن» يصبح معنى الوسيلة: السبب؛ أي: إّذا أردت أن يخطبكِ الرجال فاتخذي وسيلة (سبباً) لذلك بالاختضاب والاكتحال.

والناس تقول: وسائل المواصلات السيارات والقطارات والطائرات... ووسائل التواصل: الرسائل والجوالات والحواسب، أي أنها أسباب وسبل وطرق. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

يا سـائِلي عن مَذهَبي وَعَقيـدَتي   رُزِقَ الهُـدى مَنْ للهِدايةِ يَسأَلُ

حُبَّ الصَّحابةِ كُلِّهِمْ لي مَذْهَبٌ   وَمَـودّةُ القُـربى بِـها أَتَـوَسَّـلُ

ولا ريب أنه عنى بقوله «أتوسل»: أتقرّبُ إلى الله، أي أتخذ حبّ قرابة النبي ﷺ سبباً أو طريقة للتقرب إلى الله تعالى.

وعليه فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **قال ابن كثير: «قال سفيان الثوري: عن ابن عباس: أي القربة. وكذا قال مجاهد [وعطاء] وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد. وقال**

قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾**، وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه، وأنشد ابن جرير عليه قول الشاعر:**

إذا غَفَلَ الواشونَ عُدْنا لِوَصْلِنا وَعادَ التّصافي بَينَنا وَالوَسائِلُ

والوسيلة: هي التي يُتَوَصَّلُ بها إلى تَحصيلِ المَقصود، والوسيلةُ أيضاً: عَلَمٌ (اسم) على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، قال الإمام أحمد: «عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إذا صليتم عليّ فسلوا لي الوسيلة. قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو»» . وعليه فإنه يستحيل أن يكون المقصود بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ **وقوله سبحانه:** ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ **هو المنزلة التي في أعلى الجنة؛ لأنها «لا ينالها إلا رجل واحد»، و**﴿ابْتَغُوا﴾ **و**﴿يَبْتَغُونَ﴾ **جماعة، وإذا رجا النبي ﷺ أن تكون له فلا ريب أنها لن تكون لغيره ﷺ. وعليه يكون المقصود بها المعاني الأخرى المذكورة.**

والتوسل: اتخاذ وسيلة، ويخطئ من يفهمه بأنه «التضرع» ؛ فيقول:

أتوسل إليكَ كي تسامحَني، إلا إذا كان يقصد أنه اتخذ إليه شيئاً أو شافعاً له جاهٌ أو مكانة عنده يتوسل به إليه، وهذا من الأخطاء الشائعة، قال وضاح اليمن:

فما نوَّلَتْ حَتّى تَضَرَّعْتُ عِنْدَها وَأَنْبَأْتُها ما رَخَّصَ اللهُ في اللَّمَمْ

ولا ريب أن أعظم القربات عند الله سبحانه والوسائل إلى رضاه هي الطاعات والأعمال الصالحة، كما بيَّن حديث النبي ﷺ: ﴿انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ حتَّى أوَوُا المَبِيتَ إلى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عليهمُ الغَارَ، فَقالوا: إنَّه لا يُنْجِيكُمْ مِن هذِه الصَّخْرَةِ إلا أنْ تَدْعُوا اللَّهَ بصَالِحِ أعْمَالِكُمْ... إلى قوله: فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ﴾[٢٥٩] وهذا دليل على مشروعية التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، وبذلك ينتقض فَهْمُ قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ بأنه لا يجوز التوسل إلى الله إلا بالله، فهو فَهْمٌ خاطئ، لأنه سبحانه لم يقل: ابتغوه وسيلة، وإنما قال: ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، وقد كان دعاء عمر رضي الله عنه في الاستسقاء واضحاً؛ فعن أنس بن مالك «أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، كانَ إذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بالعَبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إلَيْكَ بنَبِيِّنَا ﷺ فَتَسْقِينَا، وإنَّا نَتَوَسَّلُ إلَيْكَ

---

[٢٥٩] صحيح البخاري، برقم ٢٢٧٢.

بعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: فيُسْقَوْنَ»[٢٦٠] فبقوله: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بنَبِيِّنَا» أثبت أنهم كانوا يتوسلون إلى الله بالنبي ﷺ لا بالله، ثم قال: «وإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بعَمِّ نَبِيِّنَا»، فأثبت مشروعية التوسل بغير النبي ﷺ، ولم يكن العباس رضي الله عنه أعلى درجة أو أعظم مكانة من عمر، وذلك لسابقة عمر وهجرته، والمعلوم عند الجميع أن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، أبو بكر، ثم عمر. فلماذا توسّل عمر بالعباس؟ الجواب في قوله «وإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بعَمِّ نَبِيِّنَا»، فلم يقل: إنا نتوسل إليك بالرجل الصالح أو الولي أو التقي، وإنما قال «بعم نبينا» أي أن سبب التوسل به قرابته من نبينا ﷺ، ولا يشك عاقل في أن التوسل بشخص ما لقرابته من آخر يكون المقصود التوسل بما للآخر من مكانة لا ما للشخص المتوسَّل به، فلو أن ملكاً لديه وزير مخلص محبوب عنده ومات وله ابن، فجاء شخص بالابن يستشفع به عند الملك فشفّعه لكانت الشفاعة بالوزير الذي مات لا بابنه.

وكذلك جاء التوسل بالنبي ﷺ، في الحديث المشهور: ﴿أنَّ أعمى أتى إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالَ يا رسولَ اللَّهِ ادعُ اللَّهَ أن يَكْشفَ لي عن بصَري، قالَ: أو أدعُكَ؟ قالَ: يا رسولَ اللَّهِ إنَّهُ قد شقَّ عليَّ ذَهابُ بَصري، قالَ: فانطلق فتوضَّأْ، ثمَّ صلِّ رَكْعتينِ، ثمَّ قلِ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنبيِّي محمَّدٍ ﷺ نَبيِّ الرَّحمةِ، يا محمَّدُ إنِّي

---

[٢٦٠] صحيح البخاري، برقم: ٣٧١٠.

أتوجَّهُ إلى ربِّي بك أن يكشِفَ لي عَن بصَري، اللَّهم شفِّعهُ فيَّ وشفِّعني في نَفسي. فرجعَ وقد كَشفَ اللَّهُ عن بصرِهِ﴾[٢٦١].

وقد أنكر بعض العلماء أن مضمون الحديث توسُّل بالنبي ﷺ، ولهم في ذلك أقوال:

الأول: نقله الشيخ الألباني عن شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «وتوسل الأعمى به ﷺ فإنه توسل بدعائه ﷺ لا بجاهه ولا بذاته ﷺ، ولمّا كان التوسل بدعائه ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى غير ممكن، فبالتالي كان التوسل به ﷺ بعد وفاته غير ممكن وغير جائز»[٢٦٢]. ولا أعلم من أين استنتج شيخ الإسلام أنه توسل بدعائه ﷺ، والنص صريح: ﴿أسألُكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنبيِّي محمَّدٍ ﷺ نَبيِّ الرَّحمةِ﴾، فالتوجه كان به ﷺ، ولم يرد في النص كلمة دعاء أو ما في معناها، ولم يُذكر في الحديث أنه لما ذهب دعا له النبي ﷺ، ولا سيما أن راوي الحديث عثمان بن حنيف بقي جالساً مع النبي ﷺ، بدليل قوله: ﴿فرجعَ وقد كَشفَ اللَّهُ عن بصرِهِ﴾، ولو كان النبي ﷺ دعا له بعد أن ذهب لِفعل ما أمره به لأخبرنا به عثمان؛ لأهميته، فالصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يفرّطون بذكر حركة لكي يفرطوا بذكر خبر.

---

[٢٦١] الترغيب والترهيب، للمنذري، ورواه الترمذي، برقم ٣٥٧٨، وأخرجه ابن خزيمة ٢٢٥/٢، والطبراني ١٧/٩، والحاكم في المستدرك ٧٠٧/١، باختلاف يسير.

[٢٦٢] سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، للألباني، ج١، ص٧٧.

وقد عاد الشيخ الألباني في كتاب «التوسل أنواعه وأحكامه» ليؤكد هذه الفكرة، ويبدو أن الشيخ الألباني يناقش رواية أخرى للحديث، ونحن أوردنا هنا أصحّها، وهو ما اختاره صاحب موقع الدرر السنية - الموسوعة الحديثية، وصححهما الألباني في صحيح الترمذي، وفي صحيح الجامع، لكنه اختار رواية أخرى لمناقشتها والاستدلال بها، فكانت الرواية: ﴿ادعُ اللَّهَ أن يَكْشفَ لي عن بصَري﴾ في حين أوردها الشيخ الألباني (ادعُ الله أن يعافيني)، وكذلك في خاتمة الحديث ﴿اللَّهم شفِّعهُ فيَّ وشفِّعني في نَفسي﴾ فقد جاءت في الرواية التي ناقشها (وشفعني فيه)، فاستدل على أن التوجه بدعاء النبي ﷺ، لا بجاهه ولا به، فقال: «والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة، وأهمها:

أولاً: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له، وذلك قوله: فهو توسل إلى الله تعالى بدعائه، لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي ﷺ، ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته، ويدعو ربه بأن يقول مثلاً: (اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني، وتجعلني بصيراً). ولكنه لم يفعل»[٢٦٣].

---

٢٦٣ التوسل أنواعه وأحكامه، للألباني، ص٧٠

ونحن بدورنا نسأل: ومن أين يعلم الرجل هذا الدعاء ومشروعيته ليدعو به وهو قاعد في بيته، لو لم يعلّمه إياه النبي ﷺ؟ فهو كما ذكر الشيخ الألباني: «إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له» والسبب لا يخفى على أحد وهو ما ذكره الشيخ: «لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره»، ونزيد على الكلام: بل إن دعاءه ﷺ لا يرد، فإجابته متحصلة ولا ريب، ولذلك خيّره بأن يَدَعَهُ، ومثل ذلك كان مع المرأة التي أَتَتِ النبيَّ ﷺ، ﴿قالَتْ: إنِّي أُصْرَعُ وإنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قالَ: إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ، قالَتْ: أَصْبِرُ، قالَتْ: فإنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لا أَتَكَشَّفَ فَدَعَا لَهَا﴾[٢٦٤]. فخيّرها ﷺ بين الدعاء لها وبين الصبر والجنة، فلما اختارت الصبر دعا لها، أما الأعمى فإنه ﷺ لم يدعُ له، وإنما أرشده إلى أن يدعو لنفسه بالطريقة المذكورة في الحديث، ولو أنه دعا له لما احتاج إلى إرشاده إلى هذه السبيل واكتفى بدعائه ﷺ كما دعا للمرأة، فدعاؤه ﷺ مجاب ولا يحتاج إلى تعضيده بدعاء الرجل، وتؤكد ذلك الرواية التي اعتمدها الشيخ الألباني.

ويتابع الشيخ الألباني «ثانياً: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء، مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ: إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ

---

[٢٦٤] صحيح البخاري، برقم: ٥٦٥٢، وصحيح مسلم، برقم ٢٥٧٦.

صبرتَ فهو خير لك»[٢٦٥] فقد خيره النبي ﷺ كما خير المرأة، إلا أن المرأة اختارت الصبر والجنة فدعا لها، أما الرجل فلم يختر الصبر، فلم يدعُ له، وإنما أرشده إلى طريق، وكان يستطيع أن يدعو له كما دعا للمرأة. والحكمة وراء تخيير النبي ﷺ لهما هي نفسها الحكمة من عدم دعاء سعد بن أبي وقاص لنفسه، الذي مر بنا، وهو قوله: «قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري»[٢٦٦]، والنبي ﷺ أولى من سعد وغيره بالرضا بقدر الله تعالى، ودعوة العباد إلى الرضا به، فلما لم يُؤثِر الرجلُ الرضا استحيا ﷺ أن يرده، فأرشده إلى الطريقة إلى دعاء مستجاب.

ويتابع الشيخ الألباني: «ثالثاً: إصرار الأعمى على الدعاء وهو قوله: (فادعُ) فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له، لأنه ﷺ خيرُ من وَفَى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق، فلا بد أنه ﷺ دعا له، فثبت المراد، وقد وجّه النبي ﷺ الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وَجَّهه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع ، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو لنفسه، وهذه الأعمال طاعة لله سبحانه وتعالى يقدمها بين يدي دعاء النبي ﷺ

---

[٢٦٥] التوسل أنواعه وأحكامه، للألباني، ص٧٠.

[٢٦٦] صحيح الترمذي، برقم: ٣٥٧٨.

له، وهي تدخل في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ كما سبق»[٢٦٧].

وقول الشيخ الألباني إن النبي ﷺ «خيرُ من وَفَى بما وعد» كلام لا غبار عليه، ويسلّم به جميع المسلمين بلا مراء، لكن استخدام هذا الكلام لاستنتاج أن النبي ﷺ دعا له، إن صح عقلاً فإنه لم يصح نقلاً، ففيه التفاف على المدلول اللغوي ورجم بالغيب لا دليل عليه في نص الحديث، ولم يُذكر في أي من الروايات، وكذلك فإن إرشاده للقيام بهذا الأمر والتوجه بالنبي ﷺ إلى الله تعالى إنما هو وفاء بما وعد، فلو كان لك مكانة عند صاحب شركة بحيث لا يردُّ لك طلباً، وجاءك رجل فقال لك أريد أن تطلب من فلان أن يوظفني، فقلت له: «إن شئت طلبت لك الوظيفة وإن شئت بقيت في عملك الحالي فهو خير لك»، فقال لك «بل اطلب منه توظيفي»، فقلت له: «اذهب بكتابي هذا إليه وقل له أن يوظفك»، فإنك تكون قد وفيت بوعدك بطلب الوظيفة له، فالنبي ﷺ أرسل الأعمى ليسأل الله حاجته باذلاً له جاهه عنده وشفاعته، والله يسمع ويرى فلا يحتاج إلى كتاب أو وثيقة. وبهذا يكون النبي ﷺ وفى بوعده له. لكن الغريب أن يقول الشيخ الألباني: «وقد وجه النبي ﷺ الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وجهه

---

[٢٦٧] التوسل أنواعه وأحكامه، للألباني، ص٧١.

إلى النوع الثاني من التوسل المشروع»! وهل كان النبي ﷺ يشك في أن يستجيب الله دعاءه بمجرد أن يدعو له، ودون توجيهه إلى هذا العمل؟! ننزه الله عن ذلك ونربأ برسول الله ﷺ عن مثل هذا الظن بالله ومثل هذا الريب فيه، ولو كان الأمر كذلك لَوَجّهَ المرأة التي تصرع إلى السبيل ذاتها ولم يكتف بالدعاء لها، لكنه أراد أن يُعلّم أصحابه وأمّته فلا يحتاجون إلى طلب الدعاء منه، وإنما يتوسلون إلى الله تعالى به، وفي ذلك قول عمر «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بنَبِيِّنَا ﷺ.

ويتابع الشيخ الألباني: «رابعاً: أن في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: (اللهم فشفعه فيَّ) وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ، أو جاهه، أو حقه، إذ إن المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ فيّ، أي: اقبل دعاءه في أن تردَّ عليّ بصري، والشفاعة، لغةً: الدعاء، قال في «لسان العرب» (١٨٤/٨): الشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، والشافع الطالب لغيره، يتشفع به إلى المطلوب، يقال تشفعت بفلان إلى فلان، فشفعني فيه. انتهى. فثبت بهذا الوجه أيضاً أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ لا بذاته»[٢٦٨].

وهذا الكلام غريب! وقد قرأته غير مرة؛ لأني لم أصدق أن الشيخ الألباني يمكن أن يموّه في الكلام ليثبت رأيه، وهو الرجل الذي نعلم أنه يطلب الحق ويتشدد في صحيح النصوص، فكيف يقول إن

---

[٢٦٨] التوسل أنواعه وأحكامه، للألباني، ص٧٢

الشفاعة في اللغة معناها الدعاء؟ وأنا لغويٌّ لم يمر بي شاهد في الجاهلية ولا الإسلام على أن الشفاعة معناها الدعاء، وهذه نصوص الأدب أمامنا شعراً ونثراً، ولو كان معناها الدعاء لما جاز أن يُصرف إلى البشر، لقوله ﷺ: ﴿الدُّعاءُ هوَ العبادةُ﴾[٢٦٩] ولو صح ذلك فماذا نفعل في قول الفرزدق، حين شفّع إخوة عبد الله بن الزبير عنده ليرد عليه زوجته النوار، ولاذت النوار بخولة بنت منظور بن زيان زوجة ابن الزبير لتحول دون رجوعها إليه، فقال:

أَمّا البَنونَ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفاعَتُهُمْ   وَشُفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظورِ بْنِ زَبّانا

فهل كان الرجال يتوجهون بالدعاء إلى ابن الزبير والنوار تتوجه بالدعاء إلى زوجته؟ وكيف نفهم قول قيس بن الملوح:

وَنُبِّئتُ لَيلَى أَرسَلَت بِشَفاعَةٍ   إِلَيَّ فَهلاَّ نَفسُ لَيلَى شَفِيعُهَا

بل ماذا نقول في الحديث، حين فارقت بَرِيرَةَ مُغِيثاً فأشفق عليه النبي ﷺ، فَقالَ لها: ﴿لو رَاجَعْتِهِ، قالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، تَأْمُرُنِي؟ قالَ: إنَّما أنَا أشْفَعُ، قالَتْ: لا حَاجَةَ لي فِيهِ﴾[٢٧٠]، فهل كان النبي ﷺ يتوجه بالدعاء إلى بريرة؟! حاشا لمسلم أن يشطح فكره إلى هذا الزعم! ثم استشهد الشيخ على المدلول اللغوي بما جاء في لسان العرب، فلم يكن الاستشهاد صحيحاً ولم يرد في اللسان أن معنى الشفاعة

---

[٢٦٩] صحيح الترمذي، للألباني، برقم ٣٢٤٧. وفي صحيح البخاري بلفظ «لو راجعتيه»، برقم ٥٢٨٣.

[٢٧٠] صحيح البخاري، برقم: ٥٢٨٣.

الدعاء لا لفظاً ولا معنى، بل جاء: «الشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره» وليس المقصود بالملك هنا الله سبحانه، وإنما هو لفظ عام يشمل كل ملك، والدليل تتمة الكلام: «يقال تشفعت بفلان إلى فلان، فشفعني فيه»، و«فلان» من البشر بالتأكيد، لأنه لا يُكنّى عن الله سبحانه بهذا اللفظ. فلا دعاء في الأمر وإنما هو ما نسميه في عصرنا «الواسطة»، وهو واضح لا لبس فيه، ولا أدري كيف وقع الشيخ الألباني، رحمه الله، في مثل هذا، غفر الله له. ويتابع الشيخ الألباني «خامساً: أن مما علّم النبيُّ ﷺ الأعمى أن يقوله: (وشفعني فيه)، أي: اقبل شفاعتي، أي دعائي في أن تقبل شفاعته ﷺ، أي دعاءه في أن ترد عليّ بصري. هذا المعنى الذي لا يمكن أن يفهم من هذه الجملة سواه»[٢٧١]. وهذا الفهم باطل من وجهين، أولهما أن الشفاعة ليست بمعنى الدعاء لا من قريب ولا من بعيد، والقول بذلك ليس واهياً فحسب، بل منكر، وقد استدللنا على بطلانه بشاهدين من الشعر وشاهد من الحديث النبوي، والوجه الثاني أن رواية المنذري للحديث جاءت: «اللّهم شفِّعهُ فيَّ وشفِّعني في نَفسي»، وحتى رواية الترمذي التي صححها الشيخ الألباني انتهت عند: «اللّهمَّ فشفِّعهُ فيَّ»[٢٧٢]، وكذلك في صحيح

٢٧١ التوسل أنواعه وأحكامه، للألباني، ص ٧٥.
٢٧٢ صحيح الترمذي، للألباني، برقم ٣٥٧٨.

الجامع[٢٧٣]، ولم ترد فيهما عبارة «وشفعني فيه». وبعد كل هذا نسأل: ما قول الشيخ الألباني أو من يقول بقوله في توسل عمر رضي الله عنه: «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا ﷺ فَتَسْقِينَا، وإنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا»، فقد صرح بلفظ «التوسل» مرتين ولم يذكر كلمة «دعاء» وإنما ألحق بالباء «نبينا» في الأولى، و«عم نبينا» في الثانية، و«الباء» هنا للاستعانة، وليس لها دلالة أخرى.

وأما من شبّه التوسل إلى الله تعالى بالنبي أو بالصالحين بما كان يفعله المشركون، ويحتج بالآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٢٧٤] فقد أغرب وأبعد النجعة، فها هنا عبادة وليست توسلاً ﴿نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا﴾، ولم يقولوا: نتوسل بهم، ولو كان التوسل عبادة، تبعاً لهذا الفهم، لكان محرّماً بالأحياء أيضاً ولم يقتصر على الأموات، وبهذا الفهم فإن قول عمر «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا ﷺ، وإنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا» يعد باطلاً مردوداً، بل شركا، وحاشا الخليفة الراشد منه!

ولعل القول الفصل في ما جاء عن ابن تيمية: «وسئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هل يجوز التوسل بالنبي ﷺ أم لا؟ فأحاب: ... وأما قول القائل: اللهم إني أتوسل إليك به. فللعلماء فيه قولان: كما

---

٢٧٣ صحيح الجامع، للألباني، برقم ٣٥٧٨.

٢٧٤ سورة الزمر: ٣.

لهم في الحلف به قولان: وجمهور الأئمة؛ كمالك، والشافعي، وأبي حنيفة: على أنه لا يسوغ الحلف بغيره؛ من الأنبياء والملائكة، ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء. وهذا إحدى الروايتين عن أحمد (بن حنبل)، والرواية الأخرى: تنعقد اليمين به خاصة، دون غيره؛ ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروذي صاحبه: إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه»[٢٧٥]، وعليه يجوز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته، وكفى بالإمام أحمد بن حنبل حجة، وكفى بابن تيمية راوية صدق. واستفدنا من كلام ابن تيمية جواز الحلف بالنبي ﷺ. وبناء على ما جاء عن الإمام أحمد، قال ابن مفلح: «ويجوز التوسل بصالح، وقيل: يستحب»[٢٧٦].

والتوسل يكون به ﷺ لا بحقه، قال الكاساني: «وَيُكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ فِي دُعَائِهِ أَسْأَلُك بِحَقِّ أَنْبِيَائِك وَرُسُلِك، وَبِحَقِّ فُلانٍ، لأَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ شَأْنُهُ»[٢٧٧].

ونختتم المبحث بسؤال: هل التوسل بالنبي ﷺ عند الله لسواد عينيه وحمرة خديه أو لنسبه، أم لمكانته المتحصلة بنبوته ورسالته وصالح عمله وتبليغه وجهاده؟ والجواب لا يختلف فيه اثنان، وهنا يبدر سؤال: هل قَلَّتْ مكانته ﷺ بعد وفاته أم زادت؟ والجواب أيضاً لا

---

[٢٧٥] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١، ص١٤٠.
[٢٧٦] الفروع وتصحيح الفروع، لابن مفلح، ج ٣، ص ٢٢٩.
[٢٧٧] بدائع الصنائع، للكاساني، ج٥، ص١٢٦.

خلاف فيه؛ لأن مليارات البشر الذين دخلوا في الإسلام بعد وفاته ﷺ له ثواب هدايتهم، وله حسنات بقدر حسناتهم من كل عمل عملوه أو يعملونه من صلاة وصيام وذكر وصدقة وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتعليم ونصيحة وحج وجهاد، وغيرها من الأعمال الصالحة، لقوله ﷺ: ﴿مَن دَعا إلى هُدًى، كانَ له مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن أُجُورِهِمْ شيئاً﴾[٢٧٨]**، فمكانته ﷺ بعد موته فاقت مكانته في حياته مليارات المرات، فهو في تَرَقٍّ مستمر تعجز عن إحصائه المتواليات الحسابية البشرية طالما على وجه الأرض مسلم واحد، فإذا كانت مكانته عند الله زادت فإن جاهه عنده سبحانه بات أعظم، وبذلك يكون التوسل به جائزاً لأنه توسل بمكانته ﷺ لا بجسده، فهو إن مات جسده فإن مكانته لم تمت، بل زادت وعظمت وارتفعت، وجاهه ﷺ، عند الله سبحانه، لا ينتهي بموته، قال تعالى:** ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٢٧٩] **فإذا كان جاه العبد الصالح لا ينتهي بموته فإن جاه الأنبياء أولى بألا ينتهي بموتهم، فكيف بالخصوصية التي جعلها الله لنبينا محمد ﷺ؟! وقد قال ﷺ: ﴿إنَّ**

---

٢٧٨ صحيح مسلم، برقم ٢٦٧٤.
٢٧٩ سورة الكهف: ٨٢.

من أفضلِ أيَّامِكُم يومَ الجمعةِ فيهِ خُلِقَ آدمُ وفيهِ قُبِضَ، وفيهِ النَّفخةُ، وفيهِ الصَّعقةُ، فأكْثِروا عليَّ منَ الصَّلاةِ فيهِ فإنَّ صلاتَكُم معروضةٌ عليَّ، قالَ قالوا يا رسولَ اللَّهِ! وَكَيفَ تُعرَضُ صلاتُنا عليكَ وقد أرِمتَ - يقولونَ بَلِيْتَ - فقالَ إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَ علَى الأرضِ أجسادَ الأنبياءِ﴾[٢٨٠]، وقال ﷺ: ﴿ما من أحدٍ يسلِّمُ عليَّ إلا ردَّ اللَّهُ عليَّ روحي حتَّى أردَّ عليْهِ السَّلامَ﴾[٢٨١]، فهل تنقطع الصلاة عليه لحظةً في عالم يعيش به مليار وسبعمئة مليون مسلم؟

---

٢٨٠ صحيح أبي داود، للألباني، برقم: ١٠٤٧.

٢٨١ المصدر السابق، برقم ٢٠٤١.

الكرامات والخوارق

قال إخواني السلفيون: إن الصوفية يزعمون أن مشايخهم تجري على أيديهم كرامات وخوارق مما لا ينبغي للبشر في المعتاد، مثل ضرب الخصوم من مسافات شاسعة، والانتقال من بلد إلى آخر خلال وقت قصير جداً، وغير ذلك من الأعاجيب، وذلك بقدراتهم الخارقة، ويتداولون في ذلك قصصاً وحكايات، بل خرافات لا يقبلها عقل، تشبه المعجزات التي خص الله بها الأنبياء، ومعلوم أن إجراء المعجزات على أيدي الأنبياء عليهم السلام يأتي من الله تعالى إثباتاً لنبوتهم، وتأييداً لرسالاتهم. أما غيرهم فلا يصح في ميزان الشرع ودينا النقي الخالي من الخرافات والأساطير وكل ما ينافي العقل.

وهذا الكلام صحيح، ومن الصوفية من ألف في ذلك كتباً، مثل «جامع كرامات الأولياء وطبقات الصوفية» للشعراني، و«كرامات الأولياء» للطبري، و«جامع كرامات الأولياء» ليوسف النبهان.

إضافة إلى ما انتشر في كتبهم من هذه القصص، ولنترك شيخ الإسلام ابن تيمية يرد على هذا الكلام، يقول، رحمه الله:

«فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُقْتَدُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ وَيَنْتَهُونَ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ؛ وَيَقْتَدُونَ بِهِ فِي مَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فِيهِ فَيُؤَيِّدُهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ وَرُوحٍ مِنْهُ، وَيَقْذِفُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوَارِهِ، وَلَهُمْ الْكَرَامَاتُ الَّتِي يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ. وَخِيَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ

كَرَامَاتُهُمْ لِحُجَّةٍ فِي الدِّينِ أَوْ لِحَاجَةٍ بِالْمُسْلِمِينَ كَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ نَبِيِّهِمْ ﷺ كَذَلِكَ»[٢٨٢]، ويقول: «وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهُ إِنَّمَا حَصَلَتْ بِبَرَكَةِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدْخُلُ فِي مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ... وقَدْ جَمَعْت نَحْوَ أَلْفِ مُعْجِزَةٍ»[٢٨٣] «وَكَرَامَاتُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ جِدًّا»[٢٨٤] ويقول: «وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا الضَّعِيفُ الإِيمَانِ أَوْ الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلايَةً لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِياً عَنْ ذَلِكَ، فَلا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا، لا لِنَقْصِ وِلايَتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ؛ بِخِلافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ لِهَدْيِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ، فَهَؤُلاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً. وَهَذَا بِخِلافِ الأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ»[٢٨٥]. فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يثبت الكرامات ويبرر حصولها على أيدي رجال صالحين، ويعزو نمطاً آخر من أنماط الخوارق مما يجري على أيدي كفرة أو فسقة بأنه أحوال شيطانية،

---

[٢٨٢] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٢٧٤.

[٢٨٣] المصدر السابق، ٢٧٥.

[٢٨٤] المصدر نفسه، ٢٧٦.

[٢٨٥] المصدر نفسه، ٢٨٣.

ونحن لا نسلّم بأنها من الشيطان، وإنما هي استدراج، يأتي في بابه، إن شاء الله. ويفصل شيخ الإسلام ابن تيمية في الخوارق، فيقول: «صِفَاتُ الْكَمَالِ تَرْجِعُ إلَى ثَلاثَةٍ: الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْغِنَى. وَإِنْ شِئْت أَنْ تَقُولَ: الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ. وَالْقُدْرَةُ إمَّا عَلَى الْفِعْلِ؛ وَهُوَ التَّأْثِيرُ، وَإِمَّا عَلَى التَّرْكِ؛ وَهُوَ الْغِنَى. وَالأَوَّلُ أَجْوَدُ. وَهَذِهِ الثَّلاثَةُ لا تَصْلُحُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ إلا لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ. وَقَدْ أَمَرَ الرَّسُولَ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دَعْوَى هَذِهِ الثَّلاثَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[٢٨٦]، وكذلك قال نوح عليه السلام»[٢٨٧]. وبعد تفصيل لا يُحتاج إليه في هذا المقام، يقول: «وَإِنَّمَا يَنَالُ مِنْ تِلْكَ الثَّلاثَةِ بِقَدْرِ مَا يُعْطِيه اللَّهُ تَعَالَى، فَيَعْلَمُ مِنْهُ مَا عَلَّمَهُ إيَّاهُ، وَيَقْدِرُ مِنْهُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَغْنِي عَمَّا أَغْنَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ الأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِلْعَادَةِ الْمُطَّرِدَةِ أَوْ لِعَادَةِ غَالِبِ النَّاسِ. فَمَا كَانَ مِنْ الْخَوَارِقِ مِنْ بَابِ الْعِلْمِ؛ فَتَارَةً بِأَنْ يُسْمِعَ الْعَبْدَ مَا لا يَسْمَعُهُ غَيْرُهُ. وَتَارَةً بِأَنْ يَرَى مَا لا يَرَاهُ غَيْرُهُ يَقَظَةً وَمَنَاماً. وَتَارَةً بِأَنْ يَعْلَمَ مَا لا يَعْلَمُ غَيْرُهُ وَحْياً وَإِلْهَاماً، أَوْ إنْزَالُ

---

[٢٨٦] سورة الأنعام: ٥٠.
[٢٨٧] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٣١٢.

عِلْمٍ ضَرُورِيٍّ أَوْ فِرَاسَةٍ صَادِقَةٍ، وَيُسَمَّى: كَشْفًا، وَمُشَاهَدَاتٍ، وَمُكَاشَفَاتٍ، وَمُخَاطَبَاتٍ؛ فَالسَّمَاعُ مُخَاطَبَاتٌ، وَالرُّؤْيَةُ مُشَاهَدَاتٌ، وَالْعِلْمُ مُكَاشَفَةٌ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ كُلُّهُ كَشْفاً وَمُكَاشَفَةً؛ أَيْ كَشَفَ لَهُ عَنْهُ. وَمَا كَانَ مِنْ بَابِ الْقُدْرَةِ فَهُوَ التَّأْثِيرُ، وَقَدْ يَكُونُ هِمَّةً وَصِدْقاً وَدَعْوَةً مُجَابَةً، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ الَّذِي لا تَأْثِيرَ لَهُ فِيهِ بِحَالٍ، مِثْلُ هَلاكِ عَدُوِّهِ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَإِنِّي لأَثْأَرُ لأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ﴾[288]، وَمِثْلُ تَذْلِيلِ النُّفُوسِ لَهُ وَمَحَبَّتِهَا إِيَّاهُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ بَابِ الْعِلْمِ وَالْكَشْفِ، قَدْ يُكْشَفُ لِغَيْرِهِ مِنْ حَالِهِ بَعْضُ أُمُورٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمُبَشِّرَاتِ: ﴿هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ﴾[289]، وَكَمَا قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ ﴿أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ﴾[290]. وَكُلٌّ وَاحِدٍ؛ مِنْ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ قَدْ يَكُونُ قَائِماً بِهِ وَقَدْ لا يَكُونُ قَائِماً بِهِ، بَلْ يَكْشِفُ اللَّهُ حَالَهُ وَيَصْنَعُ لَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: مَا صَدَقَ اللَّهَ عَبْدٌ إلا صَنَعَ لَهُ. وَقَالَ: أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: لَوْ وُضِعَ الصِّدْقُ عَلَى جُرْحٍ لَبَرَأَ. لَكِنْ مَنْ

---

٢٨٨ قال الشيخ سليم الهلالي: لم أجده، وله ألفاظ أخرى جمعها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم١٦٤٠.ينظر أرشيف ملتقى أهل الحديث، الموسوعة الشاملة:
http://islamport.com/w/amm/Web/2573/299.htm

٢٨٩ الترمذي، برقم ٢٢٧٥، وابن ماجه، برقم ٣١٦٠، وأحمد ج٥، ص٣١٥.

٢٩٠ : الجامع الصغير، للسيوطي، برقم: ٩٢٢٨.

قَامَ بِغَيْرِهِ لَهُ مِنْ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ فَهُوَ سَبَبُهُ أَيْضاً، وَإِنْ كَانَ خَرْقَ عَادَةٍ فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَمُعْجِزَاتُ الأَنْبِيَاءِ وَأَعْلامُهُمْ وَدَلائِلُ نُبُوَّتِهِمْ تَدْخُلُ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ جُمِعَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمُعْجِزَاتِ وَالْخَوَارِقِ...[٢٩١]. ويَقسم ابن تيمية الخوارق بحسب جدواها، فيقول: «الْخَارِقُ، كَشْفاً كَانَ أَوْ تَأْثِيراً، إنْ حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ مَطْلُوبَةٌ فِي الدِّينِ كَانَ مِنْ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا دِيناً وَشَرْعاً، إمَّا وَاجِبٌ وَإِمَّا مُسْتَحَبٌّ، وَإِنْ حَصَلَ بِهِ أَمْرٌ مُبَاحٌ كَانَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي شُكْراً، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهٍ يَتَضَمَّنُ مَا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ نَهْيَ تَنْزِيهٍ كَانَ سَبَباً لِلْعَذَابِ أَوْ الْبُغْضِ، كَقِصَّةِ الَّذِي أُوتِيَ الآيَاتِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا: بلعام بْنُ باعوراء، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا مَعْذُوراً لاجْتِهَادِ أَوْ تَقْلِيدٍ أَوْ نَقْصِ عَقْلٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ غَلَبَةِ حَالٍ أَوْ عَجْزٍ أَوْ ضَرُورَةٍ، فَيَكُونُ مِنْ جِنْسِ بَرْحٍ الْعَابِدِ[٢٩٢]... فَإِنْ كَانَ

---

[٢٩١] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٣١٣-٣١٥.

[٢٩٢] ذكره ابن قدامة في كتابه التوابين باسم «برخ» بالخاء، فقال: قحطت بنو إسرائيل على عهد موسى - عليه السلام - فسألوه أن يستسقي لهم فقال: اخرجوا معي إلى الجبل فخرجوا فلما صعد الجبل قال موسى: لا يتبعني رجل أصاب ذنبا فانصرف أكثر من نصفهم ثم قال الثانية: لا يتبعني من أصاب ذنبا فانصرفوا جميعا إلا رجلا واحدا أعور يقال له: برخ العابد. فقال له موسى: ألم تسمع ما قلت؟ قال: بلى، قال: فلم تصب ذنبا؟ قال: ما أعلمه إلا شيئاً أذكره فإن كان ذنباً رجعت قال: ما هو؟ قال: مررت في طريق فإذا باب حجرة مفتوح فلمحت بعيني هذه الذاهبة شخصا لا أعلم ما هو فقلت لعيني: أنت من بين بدني سارعت إلى الخطيئة لا تصحبيني بعدها! فأدخلت أصبعي فقلعتها فإن كان هذا ذنباً رجعت. فقال موسى: ليس هذا ذنباً. قال له: استسق يا برخ فقال: قدوس، قدوس، ما عندك لا ينفد، وخزائنك لا تفنى، وأنت بالبخل لا تُرمى، فما هذا الذي لا تُعرف به؟ اسقنا الغيث الساعة الساعة. قال: فانصرفا يخوضان الوحل.

صَاحِبُهُ مِنْ عُقَلاءِ الْمَجَانِينِ وَالْمَغْلُوبِينَ غَلَبَةً بِحَيْثُ يُعْذَرُونَ، وَالنَّاقِصِينَ نَقْصاً لا يُلامُونَ عَلَيْهِ كَانُوا برحية.... وَإِنْ كَانُوا عَالِمِينَ قَادِرِينَ كَانُوا بلعامية... قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الجوزجاني: كُنْ طَالِباً لِلاسْتِقَامَةِ لا طَالِباً لِلْكَرَامَةِ، فَإِنَّ نَفْسَكَ مُنْجَبِلَةٌ عَلَى طَلَبِ الْكَرَامَةِ، وَرَبُّكَ يَطْلُبُ مِنْكَ الاسْتِقَامَةَ. قَالَ الشَّيْخُ السهروردي[٢٩٣] فِي عَوَارِفِهِ[٢٩٤]: وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ فِي الْبَابِ وَسِرٌّ غَفَلَ عَنْ حَقِيقَتِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّلُوكِ وَالطُّلابِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ والمتعبدين سَمِعُوا عَنْ سَلَفِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَمَا مُنِحُوا بِهِ مِنْ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَأَبَداً نُفُوسُهُمْ لا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُرْزَقُوا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ. وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَبْقَى مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ مُتَّهِماً لِنَفْسِهِ فِي صِحَّةِ عَمَلِهِ حَيْثُ لَمْ يُكَاشَفْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ عَلِمُوا سِرَّ ذَلِكَ لَهَانَ عَلَيْهِمْ الأَمْرُ فَيُعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَى بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ ذَلِكَ بَاباً، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنْ يَزْدَادَ بِمَا يَرَى مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَآثَارِ الْقُدْرَةِ تَفَنُّناً فَيَقْوَى عَزْمُهُ عَلَى هَذَا الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْخُرُوجِ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ عِبَادِهِ يُكَاشَفُ بِصِدْقِ الْيَقِينِ وَيَرْفَعُ عَنْ قَلْبِهِ

---

[٢٩٣] شيخ الإسلام شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي البغدادي الصوفي المسلم، وهو غير السهروردي الباطني الذي قتله صلاح الدين الأيوبي.

[٢٩٤] يقصد كتاب عوارف المعارف، للسهروردي.

الْحِجَابَ، وَمَنْ كُوشِفَ بِصِدْقِ الْيَقِينِ أُغْنِيَ بِذَلِكَ عَنْ رُؤْيَةِ خَرْقِ الْعَادَاتِ؛ لأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا كَانَ حُصُولُ الْيَقِينِ وَقَدْ حَصَلَ الْيَقِينُ، فَلَوْ كُوشِفَ هَذَا الْمَرْزُوقُ صِدْقَ الْيَقِينِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لازْدَادَ يَقِيناً. فَلا تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ كَشْفَ الْقُدْرَةِ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ لِهَذَا الْمَوْضِعِ اسْتِغْنَاءً بِهِ، وَتَقْتَضِي الْحِكْمَةُ كَشْفَ ذَلِكَ الآخَرِ لِمَوْضِعِ حَاجَتِهِ، وَكَانَ هَذَا الثَّانِي يَكُونُ أَتَمَّ اسْتِعْدَاداً وَأَهْلِيَّةً مِنْ الأَوَّلِ. فَسَبِيلُ الصَّادِقِ مُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِالاسْتِقَامَةِ، فَهِيَ كُلُّ الْكَرَامَةِ. ثُمَّ إذَا وَقَعَ فِي طَرِيقِهِ شَيْءٌ خَارِقٌ كَانَ كَأَنْ لَمْ يَقَعْ، فَمَا يُبَالِي وَلا يَنْقُصُ بِذَلِكَ. وَإِنَّمَا يَنْقُصُ بِالإِخْلالِ بِوَاجِبِ حَقِّ الاسْتِقَامَةِ. فَتَعْلَمُ هَذَا؛ لأَنَّهُ أَصْلٌ كَبِيرٌ لِلطَّالِبِينَ وَالْعُلَمَاءِ الزَّاهِدِينَ وَمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ»[٢٩٥]. ولا يجهل مسلم ما أثبته الله تعالى من كرامة العبد الصالح آصف بن برخيا، أو غيره، حين انتدب النبي سليمان عليه السلام من يحضر عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين: ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[٢٩٦].

---

[٢٩٥] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٣١٩ - ٣٢١.
[٢٩٦] سورة النمل: ٤٠.

الكرامة والاستدراج

صنف بعض العلماء الخوارق التي تصدر عن كفار أو فساق بأنها شيطانية، وذهب بعضهم في تفسير «شيطانية» إلى أنها قدرات يمنحها الشيطان لأتباعه أو كبراء الضالين، ليستمروا في ضلالهم ولمعونتهم على إضلال غيرهم، وذكروا منها خوارق مما يشبه الكرامات، ما يلبّس على الناس أمرهم فيتبعونهم في ضلالهم وانحرافهم وكفرهم. والحقيقة أن الشيطان أعجز من أن يمنح مثل هذه القدرات لأحد، فإذا كان الأنبياء لا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً فإن الشيطان أولى بألا يكون له ذلك، أما ما يجري على أيدي هؤلاء من الخوارق فمرجعه أحد ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون بلعامياً، آتاه الله آياته فانسلخ منها، أي أنه بدأ مسيرته بالصلاح، فلما أكرمه الله استغل هذه الكرامة لتحقيق شهواته والعلو في الأرض والفساد.

والثاني أن يتحصل عليه بالرياضة والمجاهدات كالكهان وممارسي «اليوغا»، أو بوجود قدرة نفسية في الشخص كما يحصل في الإصابة بالعين.

والثالث: أن يكون ذلك استدراجاً من الله له، كما يخوّل الظالم السلطة أو الباغي المال، يفتنه بما آتاه ويفتن به غيره، لقوله تعالى:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[٢٩٧]، **والفتنة هنا هي الاختبار والامتحان والابتلاء، ولا بد لكل شخص من خوض هذا الاختبار، ومن لم يخضه في الدنيا فسيخوضه في القبر، نسأل الله الثبات على دينه، قال النبي ﷺ: ﴿ولَقدْ أُوحِيَ إليَّ أنَّكمْ تُفتَنُونَ في قُبورِكمْ، مِثلَ أوْ قرِيباً من فِتنةِ المسيحِ الدَّجالِ﴾[٢٩٨]، ولكل إنسان فتنته في هذه الدنيا، والناجي من نجّاه الله، والاستدراج ليس من الشيطان كما ظن كثير من الناس، وإنما هو من الله تعالى، قال تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢٩٩]، **وقال سبحانه:** ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣٠٠]، **وذلك بالإملاء لهم:** ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[٣٠١]. **أما الشيطان فغاية ما يستطيعه الوسوسة، أو استزلال العبد، أو تزيين الباطل، أو إتْباعُه، أو إغواءُ غير المؤمن من البغاة أو الطغاة.**

والاستدراج أنواع، منه استدراج بالمال، كمن يكثر الله ماله فيستخدمه في الإضلال والإفساد ومحاربة الأنبياء ورسالاتهم، وفي

---

٢٩٧ سورة العنكبوت: ٢.
٢٩٨ صحيح الجامع، للألباني، برقم ٥٧٢٢.
٢٩٩ سورة الأعراف: ١٨٢.
٣٠٠ سورة القلم: ٤٤.
٣٠١ سورة القلم: ٤٥.

هؤلاء قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[٣٠٢]، **والثاني استدراج بالسلطة، كما كان من أمر النمرود وفرعون، فقد مكّن الله لكل منهما سلطانه، فقال الأول:** ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[٣٠٣]، **وقال الآخر:** ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٣٠٤]، **والثالث استدراج بالخوارق، كما كان من أمر السامري:** ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾[٣٠٥]، **والرابع استدراج بمنح القدرات الغيبية، كما كان من أمر بلعام** ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾[٣٠٦]، **والخامس القدرات التأثيرية كالسحر الذي مكن منه هاروت وماروت** ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[٣٠٧] **وحتى الدجال حين يخرج فإن ما لديه من قدرات هي**

---

[٣٠٢] سورة الأنفال: ٣٦.
[٣٠٣] سورة البقرة: ٢٥٨.
[٣٠٤] سورة النازعات: ٢٤.
[٣٠٥] سورة طه: ٨٧، ٨٨.
[٣٠٦] سورة الأعراف: ١٧٥.
[٣٠٧] سورة البقرة: ١٠٢.

استدراج من الله تعالى وليست من الشيطان، ومن هذه القدرات أن يسخر له شياطين، أما أن يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت، ويقطع الشاب الممتلئ شباباً جزلتين ويمشي بينهما، ثم يدعوه فيقوم متهللاً، فهذا مما لا يقدر عليه إلا الله، فهو سبحانه يسخّرها للدجال فتنة للناس، كما مر في الآيات. وهذه كلها لم تكن مواهب شيطانية، وإنما هي من الله تعالى، بدليل القرآن الكريم: فأمثال النمرود وفرعون ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾[308] **وأمثال السامري** ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۞ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾[309] **ومثل بلعام:** ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾، **ومثل هاروت وماروت** ﴿مَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، **وقد حذر الله عز وجل نبيه داوود من فتنة المُلْك والسلطة التي أنعم بها على النمرود وفرعون فلم يؤديا حقها، فقال:** ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[310]، **ولذلك قال**

---

[308] سورة آل عمران: ٢٦.
[309] سورة طه: ٩٥، ٩٦.
[310] سورة ص: ٢٦.

النبي سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[٣١١]، **فكله من عطاء الله لهم، وليس للشيطان فيه شيء، لكنه بعد إنعام الله تعالى عليهم يوسوس لهم ليحرفهم عن سواء السبيل فيستخدموا هذه القدرات للشر والإفساد، فليس هناك كرامات أو استدراج من الشيطان، قال تعالى:** ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٣١٢]، **والفتنة (الاختبار والامتحان والابتلاء) كما تكون بالشر والمصائب تكون بالخير والنعم.**

والوسوسة نوعان: مباشرة: كما في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾[٣١٣].

وغير مباشرة: حين لا يقدر الشيطان على المرء، فيوسوس لغيره ممن يقدر عليهم فيسلطه عليه.

وشاهد الاستزلال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾[٣١٤].

وشاهد التزيين في قوله سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

[٣١١] سورة النمل: ٤٠.
[٣١٢] سورة الأنبياء: ٣٥.
[٣١٣] سورة الأعراف: ٢٠.
[٣١٤] سورة آل عمران: ١٥٥.

أَلِيمٌ﴾[٣١٥]، **وقوله سبحانه:** ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾[٣١٦]

وشاهد الإتباع في قول عزوجل في بلعام: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٣١٧]، **والإتباع يكون للمتطوِّع، كالذي يرغب في تعلم السحر، أو ما شابه، فيُتبِعُه ليستمر في ضلاله ويزيّن للآخرين فيتبعوه أو يمكّنوه.**

وشاهد الإغواء في قوله عز وجل: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۞ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۞ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ۞ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۞ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[٣١٨]، **ولو كان الشيطان يستطيع منح القدرات والخوارق لخرّب الدنيا منذ آلاف السنين؛ فأعطى البغاة والطغاة قدرات خارقة يستطيعون بها القتل والخطف والإصابة في العقول والسمع والبصر، وغير ذلك، ولكن هذا حدُّه ولا مزيد.**

---

[٣١٥] سورة النحل: ٦٣.
[٣١٦] سورة النمل: ٢٤.
[٣١٧] سورة الأعراف: ١٧٥.
[٣١٨] سورة الصافات: ٢٧ ـ ٣٣.

اعتقاد النفع والضر في الأولياء

يقول إخواني السلفيون: قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣١٩] **والصوفية يزعمون أن مشايخهم (الأولياء) قادرون على الضر والنفع، وهذا الأمر شرك واضح ومخالف لمدلول الآية الكريمة.**

وهذا الادعاء صحيح، فإنه دارج على ألسنة المتصوفة، لكنني لم أسمعه من الصوفية. فأما مشايخ الصوفية وأئمتهم وعلماؤهم فإن لهم كلاماً آخر، وقد مر بنا قول الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: «أي فقير، اقتدِ بالقرآن المجيد، أيشِ أنا حتى أدعوَ لك؟ ما مثلي إلا كمثل ناموسة على الحائط لا قدر لها»[٣٢٠]، وهو يقول أيضاً: «عليكم به سبحانه - وحقِّهِ - لا يضر وينفع ويصل ويقطع ويفرق ويجمع ويعطي ويمنع إلا هو»[٣٢١].

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «طهروا قلوبكم من غيره، لا تروا الضر والنفع إلا منه، أنتم في داره وضيافته»[٣٢٢] وقال: «كيف تقول: لا إله إلا الله، وفي قلبك كم إله! كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صَنَمُكَ»[٣٢٣].

---

٣١٩ سورة الأنعام: ١٧.
٣٢٠ سبق بالهامش رقم ٥١.
٣٢١ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٨٢.
٣٢٢ الفتح الرباني، للجيلاني، المجلس العشرون، ص٩١.
٣٢٣ المصدر السابق، المجلس الثامن والثلاثون، ص١٤٥.

البدل والقطب وإمام الوقت

قال إخواني السلفيون: إن الصوفية أطلقوا على مشايخهم مسميات مراتب ما أنزل الله بها من سلطان، مثل البدلية والقطبية والغوثية وإمامة الوقت، وهذا لم يرد عند الصحابة ولا التابعين، ولا زعمه أحد في العلماء والأئمة، وما ذلك إلا لينسبوا إليهم درجات في الولاية أوهمهم الشيطان بها، ليسبغوا عليهم مناصب غيبية تدور حول التحكم بالعالم أو الكون.

وأنا أشهد أني سمعت مثل هذا الكلام من عوام لا علاقة لهم بالتصوف، ولم أسمعه من متصوف ولا صوفي، ولكن ربما مر في بعض كتبهم، ولكنني تأولت أنها صفات فخرية يلقيها المجتمع على من اعتقدوا فيه علو المكانة من المشايخ، مثل لقب «شيخ الإسلام» الذي ألقي على كثير من العلماء كابن تيمية، ومنهم صوفية كالهروي والعز بن عبد السلام والسهروردي، أما تأصيلاً فلا علم لنا بهذه الألقاب، ولعلها من مبالغات الأتباع، فقد وُصِفَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بمثل هذه الأوصاف، فقيل فيه إنه «قطب الزمان» و«إمام الوقت»: ومن «الأبدال»! جاء في كتاب مجموع الفتاوى «سُئِلَ الشَّيْخُ الإِمَامُ، الْعَالِمُ الْعَلامَةُ، إمَامُ الْوَقْتِ، فَرِيدُ الدَّهْرِ، جَوْهَرُ الْعِلْمِ، لُبُّ الإِيمَانِ، قُطْبُ الزَّمَانِ، مُفْتِي الْفِرَقِ، شَيْخُ الإِسْلامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ الشَّيْخِ الإِمَامِ شِهَابِ

الدِّينِ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ الشَّيْخِ الإِمَامِ الْعَلامَةِ مُؤَيِّدِ السُّنَّةِ مَجْدِ الدِّينِ عَبْدِ السَّلامِ بْنِ تَيْمِيَّة الْحَرَّانِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَنَفَعَ بِهِ آمِينَ: فِي...»[٣٢٤] علماً بأن النسخة التي اعتمدناها ونستشهد بمضامينها هي طبعة «مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - طبعت بأمر الملك فهد، بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة الإرشاد، عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م»، أي في أوج نشاط الدعوة السلفية في السعودية وامتدادها إلى العالم. ولو قرأنا ما قاله تلاميذ ابن تيمية، رحمه الله، لوجدنا من ذلك الشيء الكثير، فهذا تلميذه الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي يقول: «ثمَّ إِن هَذَا الشَّيْخ الْمُعظم الْجَلِيل وَالإِمَام المكرم النَّبِيل، أوحد الدَّهْر، وفريد الْعَصْر، طراز المملكة الملكية، وَعلم الدولة السُّلْطَانِيَّة... إِن يكن فِي الدُّنْيَا قطب فَهُوَ القطب على التَّحْقِيق. قد نصب الله السُّلْطَان أَعلَى الله شَأْنه فِي هَذَا الزَّمَان منصب يُوسُف الصّديق»[٣٢٥]، ونقل قصائد في رثائه، رحمه الله، ومما جاء في بعضها:

هُوَ قَائِمٌ لله يهدي خلقَه ... أبداً إِلَى سُبُل النّجَاة ويُرشِدُ

فلذاكَ أصبحَ لِلبَرِيّةِ قُدوةً ... فِي الْعَصْر إِذْ هُوَ فِيهِ قُطْبٌ أَوْحَدُ[٣٢٦]

---

٣٢٤ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٨٥.

٣٢٥ العقود الدرية في فضائل شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي، ص ٣٧٣.

٣٢٦ المصدر السابق، ص ٤٦٣.

وفي قصيدة أخرى لأحد أَصْحَاب شيخ الإسلام ابْن تَيْمِية، الشَّيْخ عبد الله بن خضر الْمَعْرُوف بالمتيم، يرثيه:

وَكم قد أَرَاهُم كلَّهُم سُبُلَ الْهُدى

وَكم قد نَهَاهُم مرّةً بعد مرّةِ

فَمن كَانَ قطبَ الْكَوْن فِي حَال عَصْرِهِ

سواهُ وَمن قد فَازَ بالبدلية[٣٢٧]

فشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بحسب الأبيات السابقة هو قطب الكون «في حال عصره» أي إبان حياته، فالأبيات قيلت في رثائه، وهو كذلك من الأبدال. وإسباغ هذه المقامات لم يصدر عن متصوف مُدَّعٍ أو صوفي جاهل، وإنما لأحد أَصْحَاب شيخ الإسلام ابْن تَيْمِية، الشَّيْخ عبد الله بن خضر!

ونحن نقف إلى جانب إخواننا السلفيين في التساؤل عن هذه الألقاب؛ ما معناها؟ ومن الذي أسبغها؟ وهل هي استحقاق لابن تيمية أو غيره من أئمة الصوفية، أم أنها اجتهاد أمة أو مبالغات تلاميذ وأتباع ومحبين؟!

---

[٣٢٧] العقود الدرية في فضائل شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي، ص ٤٨٦.

القول بالاتحاد والحلول

يقول إخواني السلفيون: إن الصوفية يعتقدون أن السائر إلى الله تعالى يصل في بعض المدارج العالية إلى أن يتحد بالله، أو يحل الله تعالى به، وفي ذلك أقوال منقولة عن أمثال محيي الدين بن عربي والحلاج وأبي يزيد البسطامي.

والحق أن إخواني السلفيين لم يبعدوا، فكلامهم صحيح، ولم يفت شيخ الإسلام ابن تيمية أن يصنف أمثال هؤلاء، فيشير إلى ضلال من ضل، في حين يجد مخارج وتفسيرات لما يبدر عن الصادقين الصالحين، لنقرأ ما قاله فيهم، ثم نناقش كلامه، يقول، رحمه الله:

«وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ جُزْءاً مِنْ الْخَالِقِ تَعَالَى. فَهَذَا كُفْرٌ صَرِيحٌ يَقُولُهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ النَّصَارَى وَمَنْ غَلا مِنْ الرَّافِضَةِ؛ وَجُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ وَمَنْ اعْتَقَدَهُ فَهُوَ كَافِرٌ. نَعَمْ لِلْمُؤْمِنِينَ الْعَارِفِينَ بِاَللَّهِ الْمُحِبِّينَ لَهُ مِنْ مَقَامَاتِ الْقُرْبِ وَمَنَازِلِ الْيَقِينِ مَا لا تَكَادُ تُحِيطُ بِهِ الْعِبَارَةُ وَلا يَعْرِفُهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ إلا مَنْ أَدْرَكَهُ وَنَالَهُ؛ وَالرَّبُّ رَبٌّ. وَالْعَبْدُ عَبْدٌ. لَيْسَ فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ؛ وَلا فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ: وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِاَللَّهِ يَعْتَقِدُ حُلُولَ الرَّبِّ تَعَالَى بِهِ؛ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ وَلا اتِّحَادَهُ بِهِ. وَإِنَّ سُمِعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَنْقُولٌ عَنْ بَعْضِ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ. فَكَثِيرٌ مِنْهُ مَكْذُوبٌ اخْتَلَقَهُ الأَفَّاكُونَ مِنْ الاتِّحَادِيَّةِ المباحية؛ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ وَأَلْحَقَهُمْ بِالطَّائِفَةِ

النَّصْرَانِيَّةِ. وَالَّذِي يَصِحُّ مِنْهُ عَنْ الشُّيُوخِ لَهُ مَعَانٍ صَحِيحَةٌ؛ وَمِنْهُ مَا صَدَرَ عَنْ بَعْضِهِمْ فِي حَالِ اسْتِيلاءِ حَالٍ عَلَيْهِ؛ أَلْحَقَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ بِالسَّكْرَانِ الَّذِي لا يُمَيِّزُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ الْقَوْلِ ثُمَّ إذَا ثَابَ عَلَيْهِ عَقْلُهُ وَتَمْيِيزُهُ يُنْكِرُ ذَلِكَ الْقَوْلَ؛ وَيُكَفِّرُ مَنْ يَقُولُهُ؛ وَمَا يَخْرُجُ مِنْ الْقَوْلِ فِي حَالِ غَيْبَةِ عَقْلِ الإِنْسَانِ لا يَتَّخِذُهُ هُوَ وَلا غَيْرُهُ عَقِيدَةً. وَلا حُكْمَ لَهُ؛ بَلْ الْقَلَمُ مَرْفُوعٌ عَنْ النَّائِمِ وَالْمَجْنُونِ وَالْمُغْمَى عَلَيْهِ وَالسَّكْرَانِ الَّذِي سَكِرَ بِغَيْرِ سَبَبٍ مُحَرَّمٍ؛ مِثْلُ مَنْ يُسْقَى الْخَمْرَ وَهُوَ لا يَعْرِفُهَا، أَوْ أُوجِرَهَا حَتَّى سَكِرَ، أَوْ أُطْعِمَ الْبَنْجَ وَهُوَ لا يَعْرِفُهُ»[٣٢٨]

فهذا شيخ الإسلام وحجة السلفيين لا يأخذ بكل ما نقل من هذه الأقوال، وإنما يصنفها في أربعة أقسام:

الأول: «يَقُولُهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ النَّصَارَى وَمَنْ غَلا مِنْ الرَّافِضَةِ؛ وَجُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ» وجهّال المتصوفة هم مدّعو الانتساب إلى التصوف، أو المنتسبون اسماً فقط، وقد مر بنا التمييز بين الصوفي والمتصوف، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يؤكد ذلك.

الثاني: المكذوب على مشايخ الصوفية، قال شيخ الإسلام: «وَإِنْ سُمِعَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَنْقُولٌ عَنْ بَعْضِ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ. فَكَثِيرٌ مِنْهُ مَكْذُوبٌ اخْتَلَقَهُ الأَفَّاكُونَ مِنْ الاتِّحَادِيَّةِ المباحية».

الثالث: «الَّذِي يَصِحُّ مِنْهُ عَنْ الشُّيُوخِ» ولم يكن مكذوباً، «لَهُ مَعَانٍ

---

٣٢٨ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٧٤، ٧٥.

صَحِيحَةٌ» وهو من المجاز، وهو الذي لا يفهم على ظاهر لفظه، وقد مرت بنا أمثلة عليه في مبحث «الشطحات» من هذا الكتاب.

الرابع: الشطح: قال شيخ الإسلام: «وَمِنْهُ مَا صَدَرَ عَنْ بَعْضِهِمْ فِي حَالِ اسْتِيلاءِ حَالٍ عَلَيْهِ؛ أَلْحَقَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ بِالسَّكْرَانِ الَّذِي لا يُمَيِّزُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ الْقَوْلِ ثُمَّ إذَا ثَابَ عَلَيْهِ عَقْلُهُ وَتَمْيِيزُهُ يُنْكِرُ ذَلِكَ الْقَوْلَ؛ وَيُكَفِّرُ مَنْ يَقُولُهُ».

أما الصادقون والصالحون ممن وردت على ألسنتهم عبارات يُظَنُّ ظاهرها اتحاداً أو حلولاً فإن شيخ الإسلام ابن تيمية لا يعدها شطحاً، وإنما يجد لها تفسيراً صالحاً، يقول رحمه الله: «وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣٢٩]، قَالُوا: هُوَ السَّلِيمُ مِمَّا سِوَى اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى عِبَادَةِ اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى إرَادَةِ اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَهَذَا الْمَعْنَى إنْ سُمِّيَ فَنَاءً أَوْ لَمْ يُسَمَّ هُوَ أَوَّلُ الإِسْلامِ وَآخِرُهُ. وَبَاطِنُ الدِّينِ وَظَاهِرُهُ. وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى، وَهَذَا يَحْصُلُ لِكَثِيرِ مِنْ السَّالِكِينَ؛ فَإِنَّهُمْ لِفَرْطِ انْجِذَابِ قُلُوبِهِمْ إلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْ تَشْهَدَ غَيْرَ مَا تَعْبُدُ وَتَرَى غَيْرَ مَا تَقْصِدُ؛ لا يَخْطُرُ بِقُلُوبِهِمْ غَيْرُ اللَّهِ؛ بَلْ وَلا يَشْعُرُونَ؛ كَمَا قِيلَ فِي

[٣٢٩] سورة الشعراء: ٨٩.

قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾[٣٣٠]، قَالُوا: فَارِغاً مَنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى. وَهَذَا كَثِيرٌ يَعْرِضُ لِمَنْ فَقَمَهُ أَمْرٌ مِنْ الأُمُورِ؛ إمَّا حُبٌّ وَإِمَّا خَوْفٌ وَإِمَّا رَجَاءٌ يُبْقِي قَلْبَهُ مُنْصَرِفاً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا عَمَّا قَدْ أَحَبَّهُ أَوْ خَافَهُ أَوْ طَلَبَهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَ اسْتِغْرَاقِهِ فِي ذَلِكَ لا يَشْعُرُ بِغَيْرِهِ. فَإِذَا قَوِيَ عَلَى صَاحِبِ الْفَنَاءِ هَذَا فَإِنَّهُ يَغِيبُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، حَتَّى يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمُعَبَّدَةُ، مِمَّنْ سِوَاهُ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزُلْ، وَهُوَ الرَّبُّ تَعَالَى. وَالْمُرَادُ فَنَاؤُهَا فِي شُهُودِ الْعَبْدِ وَذِكْرِهِ، وَفَنَاؤُهُ عَنْ أَنْ يُدْرِكَهَا أَوْ يَشْهَدَهَا. وَإِذَا قَوِيَ هَذَا ضَعُفَ الْمُحِبُّ حَتَّى اضْطَرَبَ فِي تَمْيِيزِهِ، فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ مَحْبُوبُهُ، كَمَا يُذْكَرُ: أَنَّ رَجُلاً أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْيَمِّ، فَأَلْقَى مُحِبُّهُ نَفْسَهُ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَنَا وَقَعْتُ، فَمَا أَوْقَعَكَ خَلْفِي؟ قَالَ: غِبْتُ بِكَ عَنِّي فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِي، وَ هَذَا الْمَوْضِعُ زَلَّ فِيهِ أَقْوَامٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ اتِّحَادٌ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ يَتَّحِدُ بِالْمَحْبُوبِ حَتَّى لا يَكُونَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ فِي نَفْسِ وُجُودِهِمَا، وَهَذَا غَلَطٌ؛ فَإِنَّ الْخَالِقَ لا يَتَّحِدُ بِهِ شَيْءٌ أَصْلاً، بَلْ لا يَتَّحِدُ شَيْءٌ بِشَيْءٍ إلا إذَا اسْتَحَالا وَفَسَدَا وَحَصَلَ مِنْ اتِّحَادِهِمَا أَمْرٌ ثَالِثٌ لا هُوَ هَذَا وَلا هَذَا، كَمَا إذَا اتَّحَدَ الْمَاءُ وَاللَّبَنُ، وَالْمَاءُ وَالْخَمْرُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَلَكِنْ

---

[٣٣٠] سورة القصص: ١٠.

يَتَّحِدُ الْمُرَادُ وَالْمَحْبُوبُ وَالْمَكْرُوهُ وَيَتَّفِقَانِ فِي نَوْعِ الإِرَادَةِ وَالْكَرَاهَةِ، فَيُحِبُّ هَذَا مَا يُحِبُّ هَذَا. وَيُبْغِضُ هَذَا مَا يُبْغِضُ هَذَا، وَيَرْضَى مَا يَرْضَى، وَيَسْخَطُ مَا يَسْخَطُ، وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِي، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِي، وَهَذَا الْفَنَاءُ كُلُّهُ فِيهِ نَقْصٌ. وَأَكَابِرُ الأَوْلِيَاءِ، كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ: لَمْ يَقَعُوا فِي هَذَا الْفَنَاءِ فَضْلاً عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ مِنْ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَعْدَ الصَّحَابَةِ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ مِمَّا فِيهِ غَيْبَةُ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ لِمَا يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ أَحْوَالِ الإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا أَكْمَلَ وَأَقْوَى وَأَثْبَتَ فِي الأَحْوَالِ الإِيمَانِيَّةِ مِنْ أَنْ تَغِيبَ عُقُولُهُمْ، أَوْ يَحْصُلَ لَهُمْ غَشْيٌ أَوْ صَعْقٌ أَوْ سُكْرٌ أَوْ فَنَاءٌ أَوْ وَلَهٌ أَوْ جُنُونٌ. وَإِنَّمَا كَانَ مَبَادِئُ هَذِهِ الأُمُورِ فِي التَّابِعِينَ مِنْ عُبَّادِ الْبَصْرَةِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُغْشَى عَلَيْهِ إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ: كَأَبِي جهير الضَّرِيرِ، وزرارة بْنِ أَوْفَى قَاضِي الْبَصْرَةِ. وَكَذَلِكَ صَارَ فِي شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ مَنْ يَعْرِضُ لَهُ مِنْ الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ مَا يَضْعُفُ مَعَهُ تَمْيِيزُهُ حَتَّى يَقُولَ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ الأَقْوَالِ مَا إِذَا صَحَا عَرَفَ أَنَّهُ غَالَطَ فِيهِ، كَمَا يُحْكَى نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ مِثْلِ أَبِي يَزِيدَ (يعني البسطامي) وَأَبِي الْحُسَيْنِ النُّورِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الشِّبْلِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ. بِخِلافِ أَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ، بَلْ وَبِخِلافِ الْجُنَيْد وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ كَانَتْ

عُقُولُهُمْ وَتَمْيِيزُهُمْ يَصْحَبُهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ، فَلا يَقَعُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِهِ، بَلْ الكُمَّلُ تَكُونُ قُلُوبُهُمْ لَيْسَ فِيهَا سِوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَعِنْدَهُمْ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ مَا يَشْهَدُونَ الأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، بَلْ يَشْهَدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ مُدَبَّرَةً بِمَشِيئَتِهِ، بَلْ مُسْتَجِيبَةً لَهُ قَانِتَةً لَهُ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهَا تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى وَيَكُونُ مَا يَشْهَدُونَهُ مِنْ ذَلِكَ مُؤَيِّداً وَمُمَدّاً لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إخْلاصِ الدِّينِ وَتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لَهُ وَالْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ. وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي دَعَا إلَيْهَا الْقُرْآنُ وَقَامَ بِهَا أَهْلُ تَحْقِيقِ الإِيمَانِ والكُمَّل مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَنَبِيُّنَا ﷺ إمَامُ هَؤُلاءِ وَأَكْمَلُهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمَّا عُرِجَ بِهِ إلَى السَّمَوَاتِ وَعَايَنَ مَا هُنَالِكَ مِنْ الآيَاتِ، وَأُوحِيَ إلَيْهِ مَا أُوحِيَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُنَاجَاةِ، أَصْبَحَ فِيهِمْ وَهُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ وَلا ظَهَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، بِخِلافِ مَا كَانَ يَظْهَرُ عَلَى مُوسَى مِنْ التَّغَشِّي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ»[٣٣١].

ولعمري لو أن صوفياً راسخاً أراد شرح هذه الحال، وتبريره الشطح، ودفع الشبهة عن الصوفية في مثل هذه الأحوال، لما زاد على كلام شيخ الإسلام حرفاً، ولا جاء بعبارة أبلغ ولا بعذر أمكن!

وليس بعد كلام شيخ الإسلام شيء يقال في هذا الباب، فقد قال فبيّن وشرح فأنصف.

---

[٣٣١] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ص٢١٩ - ٢٢١.

القول بوحدة الوجود

قال محيي الدين ابن عربي:

الـرّبُّ حَـقٌّ وَالعَـبْـدُ حَـقٌّ ... يا لَيْتَ شِعْرِيْ مَنِ المُكَلَّفْ؟

إنْ قُلْتَ عَبْـدٌ فَـذاكَ مَيْتٌ ... أوقُلْتَ رَبٌّ أَنّـى يُكَـلَّفْ؟

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجلين تنازعا في البيتين السابقين؛ الأول يكفّر القائل، والآخر يتأول المعنى:

«فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: هَذَا الْقَوْلُ كُفْرٌ؛ فَإِنَّ الْقَائِلَ جَعَلَ الرَّبَّ وَالْعَبْدَ حَقًّا وَاحِدًا لَيْسَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَأَبْطَلَ التَّكْلِيفَ!

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ الثَّانِي: مَا فَهِمْت الْمَعْنَى، وَرَمَيْت الْقَائِلَ بِمَا لَمْ يَعْتَقِدْهُ وَيَقْصِدْهُ، فَإِنَّ الْقَائِلَ قَالَ: الرَّبُّ حَقٌّ وَالْعَبْدُ حَقٌّ؛ أَيْ الرَّبُّ حَقٌّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَالْعَبْدُ حَقٌّ فِي عُبُودِيَّتِهِ، فَلا الرَّبُّ عَبْداً وَلا الْعَبْدُ رَبّاً، كَمَا زَعَمْت. ثُمَّ قَالَ: يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ الْمُكَلَّفُ؟ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ التَّكْلِيفَ حَقٌّ. فَحَارَ لِمَنْ يَنْسُبُهُ فِي الْقِيَامِ بِهِ، فَقَالَ: إنْ قُلْت عَبْدٌ فَذَاكَ مَيْتٌ. وَالْمَيِّتُ: لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ حَرَكَةٌ؛ بَلْ مِنْ غَيْرِهِ يُقَلِّبُهُ كَمَا يَشَاءُ وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ - وَإِنْ كَانَ حَيًّا - فَإِنَّهُ مَعَ رَبِّهِ كَالْمَيِّتِ مَعَ الْغَاسِلِ؛ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ فِعْلٌ بِغَيْرِ اللَّهِ، لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَوْ لَمْ يُقَوّ الْعَبْدُ عَلَى الْقِيَامِ بِالتَّكْلِيفِ لَمَا قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَالْفِعْلُ لِلَّهِ حَقِيقَةً، وَلِلْعَبْدِ مَجَازاً، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاَللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»؛ أَيْ لا حَوْلَ عَنْ الْمَعْصِيَةِ، وَلا قُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ، إلا

بِاَللَّهِ. وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الرَّبَّ لَيْسَ عَلَيْهِ تَكْلِيفٌ؛ لأَنَّهُ لا مُكَلِّفَ لَهُ، وَالْعَبْدُ لَيْسَ يَقُومُ بِمَا كُلِّفَ بِهِ إلا بِاَللَّهِ، وَالتَّكْلِيفُ حَقٌّ. فَتَعَجَّبَ الْقَائِلُ عِنْدَ شُهُودِهِ لِهَذِهِ الْحَالِ، وَحَارَ فِي ذَلِكَ مَعَ الإِقْرَارِ بِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى الْعَبْدِ حَقٌّ، فَمَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَقَعَ فِي مَنْ لا يُفْهَمُ كَلامُهُ، بَلْ التَّقْصِيرُ مِنْ الْفَهْمِ الْقَصِيرِ، فَمَعَ أَيِّهِمَا الْحَقُّ»[٣٣٢]؟

ولابن عربي كلام كثير من هذا الصنف، يختزله ويضغطه، فيحتاج فهمه إلى تأول، ومرَّ بنا قوله: «اللهم يا من أراه ولا يراني، ويراني ولا أراه» وتأويله، في مبحث «تبرير الشطحات» من هذا الكتاب. أما هنا فتأولّ الرجل الآخر الكلام على أنه نفي القدرة عن العبد، وخضوع قدرته لقدرة الله تعالى، فهو إنكار لمذهب القدرية، الذي قُتل فيه غيلان الدمشقي باشتراطه، على نفسه، حين ناظره الإمام الأوزاعي[٣٣٣]. فكان جواب شيخ الإسلام إنكار هذا الفهم للبيتين، لأنه يبرِّئ ابن عربي مما أكد شيخ الإسلام نسبة ابن عربي إليه من كفر وضلال، فقال: «كَلامُ هَذَا الثَّانِي كَلامٌ بَاطِلٌ وَخَوْضٌ فِي مَا لَمْ يَحُطْ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَتَهُ، وَلا هُوَ عَارِفٌ بِحَقِيقَةِ قَوْلِ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَأَصْلُهُ الَّذِي تَفَرَّعَ مِنْهُ هَذَا الشِّعْرُ وَغَيْرُهُ، وَلا هُوَ أَخْذٌ بِمُقْتَضَى هَذَا اللَّفْظِ وَمَدْلُولِهِ. فَأَمَّا أَصْلُ ابْنِ عَرَبِيٍّ فَهُوَ أَنَّ

---

[٣٣٢] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢، ص١١١، ١١٢.
[٣٣٣] ينظر: القمع في الإسلام حقائق مغيبة، للمؤلف، ص٢٢٥ وما بعدها.

الْوُجُودَ وَاحِدٌ، وَأَنَّ الْوُجُود الْوَاجِبَ هُوَ عَيْنُ الْوُجُودِ الْمُمْكِنِ[٣٣٤]، وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ وَأَعْيَانُ الْمَعْدُومَاتِ ثَابِتَةٌ فِي الْعَدَمِ وَوُجُودُ الْحَقِّ فاضَ عَلَيْهَا، فَوُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ عَيْنُ وُجُودِ الْحَقِّ عِنْدَهُ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ»[٣٣٥]. ويستشهد شيخ الإسلام، من كلام ابن عربي، بما يؤكد رأيه في المسألة فيقول: «... إلَى قَوْلِهِ: وَمَنْ عَرَفَ مَا قَرَّرْنَاهُ فِي الأَعْدَادِ وَأَنَّ نَفْيَهَا عَيْنُ إثْبَاتِهَا عَلِمَ أَنَّ الْحَقَّ الْمُنَزَّهَ هُوَ الْخَلْقُ الْمُشَبَّهُ، فَالآمِرُ الْخَالِقُ الْمَخْلُوقُ، وَالأَمْرُ الْمَخْلُوقُ هُوَ الْخَالِقُ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، لا بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ. وَقَالَ: أَلا تَرَى أَنَّ الْحَقَّ يَظْهَرُ بِصِفَاتِ الْخَلْقِ؟ فَكُلُّ صِفَاتِ الْحَقِّ حَقٌّ لَهُ، كَمَا أَنَّ صِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ حَقٌّ لِلْخَالِقِ. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ فِي كَلامِهِ»[٣٣٦]، ثم يؤكد تلاقي عقيدته مع عقائد كل من الْمَلاحِدَةِ الْقَرَامِطَةِ، ومُعْتَزِلَةِ الكلابية، والْفَلاسِفَةِ، ويضيف: «ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يُجْعَلُ هَذَا الْوُجُودُ هُوَ وُجُودُ كُلِّ مَوْجُودٍ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ وُجُودَانِ: أَحَدُهُمَا وَاجِبٌ وَالآخَرُ مُمْكِنٌ . وَلا أَحَدُهُمَا خَالِقٌ وَالآخَرُ مَخْلُوقٌ ؛ بَلْ عَيْنُ الْوُجُودِ الْوَاجِبِ هُوَ عَيْنُ الْوُجُودِ الْمُمْكِنِ فَقَوْلُهُ بَاطِلٌ... فَإِنَّ كَلامَ الرَّجُلِ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضاً وَهَذَا الأَصْلُ - وَهُوَ

---

٣٣٤ الوجود الواجب هو وجود الخالق، والوجود المُمْكِن هو وجود المخلوق، ينظر شرح الأسماء الحسنى، لابن القيم، والكتاب ليس من تأليفه، وإنما جمعه عمر سليمان الأشقر من كتب ابن القيم في كتاب واحد.

٣٣٥ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢، ص١١٢.

٣٣٦ المصدر السابق، ص١١٣.

الْقَوْلُ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ - قَوْلُهُ وَقَوْلُ ابْنِ سَبْعِينَ وَصَاحِبِهِ الششتري والتلمساني وَالصَّدْرِ القونوي وَسَعِيدٍ الفرغاني وَعَبْدِ اللَّهِ البلياني وَابْنِ الْفَارِضِ صَاحِبِ نَظْمِ السُّلُوكِ، وَغَيْرِ هَؤُلاءِ مِنْ أَهْلِ الإِلْحَادِ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ وَالْحُلُولِ وَالاتِّحَادِ...»[٣٣٧].

ومن يلحظ إصرار شيخ الإسلام ابن تيمية على تكفير ابن عربي يظن أن له معه عداء شخصياً، وهذا ليس مما يتصف به شيخ الإسلام، إلا أن أصل ذلك كله هو اختلافهما في فهم مصطلح «وحدة الوجود» التي تكلم بها ابن عربي، فابن تيمية فهم المصطلح على ما يقول به الفلاسفة ومن سار على طريقتهم؛ بأنه وحدة ذوات الأشياء مع ذات الله سبحانه، في حين فهمه غيره على أنه «وحدة الشهود» التي ستأتي في شرح كل من الشيخين عبد الغني النابلسي وابن عجيبة لمفهوم «وحدة الوجود» وشرح الشيخ البوطي لـ«وحدة الشهود»، وقد أكد ذلك قول ابن تيمية: «فَأَمَّا أَصْلُ ابْنِ عَرَبِيٍّ فَهُوَ أَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ، وَأَنَّ الْوُجُودَ الْوَاجِبَ هُوَ عَيْنُ الْوُجُودِ الْمُمْكِنِ»، ومن هذه النقطة انطلقت شرارة الخلاف التي جعلت شيخ الإسلام يكفّره ويسمه بالضلال والزندقة والاتحادية. وشيخ الإسلام إنما عمل بالقاعدة الفقهية: «قال النووي: القاعِدةُ المعروفةُ في الفِقهِ

---

٣٣٧ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢، ص١١٤، ١١٥.

والأصولِ: أنَّ الأحكامَ يُعمَلُ فيها بالظَّاهِرِ، واللهُ يتولَّى السَّرائِرَ»، وبمثل هذا قال الجنيد للحلاج، والله تعالى أعلم بالنيات والمقاصد، وهو الذي يحاسب الخلق.

وقد انقسم مشايخ الصوفية في شأن ابن عربي ثلاثة أقسام:

الأول: ألحقه بالحلاج، فأخرجه من دائرة التصوف إلى دائرة الباطنية، كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية.

الثاني: لم يحكموا عليه، وإنما قالوا: «أمره إلى الله؛ هو أعلم بنيته ومقاصده، وهو الذي يحاسبه»، ومنعوا تداول كلامه.

الثالث: تأولوا ما أمكنهم من كلامه - كما فعل الرجل الثاني في القصة التي وردت في «الفتاوى» وذكرناها آنفاً - وهم قلة - أما ما لم يمكنهم تأوله فأحسنوا فيه الظن وسكتوا عنه.

وممن تعرض لكلامه من المفكرين مصطفى محمود، الذي استجاد أشياء من أقواله وأشاد واستشهد بها في كتاب «السر الأعظم»، لكنه أيضاً ذكر له أقوالاً أخرى أوضح أنها تعارضت مع كلامه في مواضع أخرى!

وعموماً فإن «وحدة الوجود»، بهذا المفهوم الذي أوضحه شيخ الإسلام، ينكرها أئمة الصوفية ويبرؤون إلى الله منها ومن القائلين بها، ويعدونهم منحرفي العقيدة خارجين من دائرة الإسلام، وقد مر بنا في «التمهيد» في هذا الكتاب أن ثمة لبساً حاصلاً بين المقصود

بـ«وحدة الشهود»، والتعبير عنها بلفظ «وحدة الوجود»، وللشيخ عبد الغني النابلسي رسالة بخط اليد محققة مطبوعة بمطبعة العلم بدمشق عام ١٩٦٩م، بعنوان «إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود»، وجدتها في صورة مخطوط مودع في قسم المخطوطات بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، وهي غير مرقمة، وسنعتمد ترقيمها بحسب ترتيبها بعد الغلاف. ولابن عجيبة كتاب عنوانه: «تقييدان في وحدة الوجود»، وسنمرّ بالكتابين، إن شاء الله تعالى، ونأخذ منهما وجهة النظر، لأن الشيخين يُعدان من الصوفية الحقيقية لا من المتصوفة المدعين أو المنتسبين، وكذلك نتناول مفهوم وحدة الشهود عند من لم يقل بوحدة الوجود.

مفهوم وحدة الوجود عند النابلسي

افتتح الشيخ عبد الغني النابلسي، رحمه الله، رسالته بمقدمة بدأها بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الموصوف بوحدة الوجود، على ما تعرفه أهل المعاينة والشهود، لا على المعنى الذي عند أهل الإلحاد والزندقة وأهل الإنكار والجحود، لأن كل شيء من جهة نفسه معدوم مفقود، وإنما هو بوجود الله تعالى موجود»[٣٣٨].

فأشار من البداية إلى «الشهود»، وبيّن أن المراد بـ«وحدة الوجود» معنىً مغايرٌ لما يقصده «أهل الإلحاد والزندقة وأهل الإنكار والجحود»، ويقول إن غاية كتابه: «تحقيق المراد عند أهل الله تعالى المحققين الأمجاد، وقولهم بأنه لا شيء مع الله تعالى موجود، وبيان صحة هذه المقالة، ونفي ما عداها من ضلالات أهل الغواية والجهالة، والحكم على ما يخالف ذلك بالاستحالة... اعلم أن هذه المسألة قد أكثر فيها العلماء قديماً وحديثاً، وردّها قوم قاصرون محجوبون، وقبِلَها قوم آخرون عارفون محققون، ومن ردها إنما ردّها لعدم فهم معناها عند القائلين بها وتوهّمه منها المعنى الفاسد، فلا التفات لردّه كائناً من كان، لصدّه عن الحق، وإنما رده في حقيقة الأمر واقع على ما فهمه من المعنى الفاسد لا على هذه المسألة؛ فهو الذي صوّر الضلال وردّه، أما القائلون بها فإنهم العلماء المحققون

---

٣٣٨ إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود، للنابلسي، ص١.

والفضلاء العارفون أهل الكشف والبصيرة الموصوفون بحسن السيرة وصفاء السريرة»[٣٣٩].

فهو يقول إن الذين ردوا هذا المصطلح إنما جاء ردهم على الفهم الفاسد له، ومن هذا الفهم صوروه ضلالاً فردُّوه، فكان ردهم على الفهم الفاسد لا على المعنى المقصود في كلام العلماء المحققين العارفين، ثم يعود لتوكيد فكرة «الشهود» عند القائلين بها: «فإن علومهم مبنية على الكشف والعيان... وبداية طريقهم العمل الصالح... ونهاية علومهم الوصول إلى شهود حضرة القيوم... فلا طريق إلا طريق السادة الأئمة الهداة القادة، ولا قول إلا بوحدة الوجود على المعنى الصحيح الموافق للشهود»[٣٤٠]. ثم يبدأ إيضاح المقصود بهذا المصطلح في الفهم الصحيح، فيقول: «إن جميع العوالم كلها على اختلاف أجناسها وأنواعها وأشخاصها موجودة من العدم بوجود اله تعالى لا بنفسها، محفوظ عليها الوجود في كل لمحة بوجود الله تعالى لا بنفسها، وإذا كانت كذلك فوجودها الذي هي موجودة به في كل لمحة هو وجود الله تعالى، لا وجود آخر غير الله تعالى، فالعوالم كلها من جهة نفسها معدومة بعدمها الأصلي، وأما من جهة الله تعالى فهي موجودة بوجوده تعالى، فوجود

---

[٣٣٩] إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود، للنابلسي، ص٢.
[٣٤٠] المصدر السابق، ص٣، ٤.

الله تعالى، ووجودها - الذي هي موجودة بوجوده (سبحانه) - وجود واحد، وهو وجود الله تعالى فقط، وهي لا وجود لها من نفسها أصلاً، وليس المراد بوجودها - الذي هو وجود الله تعالى - عين ذاتها وصورها، بل المراد ما به ذواتها وصورها ثابتة في أعيانها، وما ذلك إلا وجود الله تعالى، بإجماع العقلاء، وأما ذواتها وصورها من حيث هي نفسها - مع قطع النظر عن إيجاد الله تعالى لها بوجوده سبحانه - فلا وجود لأعيانها أصلاً»[٣٤١].

فهو يريد أن يقول إن المعنى المقصود أن كل ما غير الله تعالى مفتقر إلى الله بوجوده، فلولا وجود الله سبحانه لما وُجِد، وهو محفوظ بهذا الوجود في كل لمحة، فلولا إبقاء الله له لما بقي، كما يقال في العلوم المادية إن أصل الشجرة هو البذرة، فلو لم توجد البذرة لما وجدت الشجرة، وقولهم: عناصر الطبيعة الماء والهواء والتراب والنار، فلو لم توجد هذه العناصر لما وُجدت حياة. فكل وجود غير وجود الأصل هو وجودٌ عارضٌ، حاصلٌ بوجوده، وهو قائم ومستمر بوجود الأصل لا بوجود ذاته، ووجوده ليس وجود الأصل ذاته، وعليه فالوجود الطارئ غير حقيقي، لأن الوجود الحقيقي يَستلزم استغناءه عن غيره في وجوده، والله سبحانه مستغنٍ في وجوده عن وجود غيره، وغيرُهُ مفتقرٌ في وجوده إلى وجوده سبحانه، فلا وجودَ حقيقياً لغير

---

[٣٤١] إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود، للنابلسي، ص٤، ٥.

الله تعالى، وهو سبحانه واحد أحد، وإيجاد كل موجود صادر عنه سبحانه قائم به، فلا يُعد وجودُ غيره وجوداً، وبذلك يكون التوجه إلى الأصل في كل فهمٍ ومعرفة، وعلى هذا المفهوم بنيت العقيدة الإسلامية؛ فلا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يفرق ولا يجمع ولا يصل ولا يقطع إلا الله سبحانه، فالمؤمن لا يخاف إلا الله، ولا يأمل إلا بالله، مع أن الرزق والشفاء والأمن والنجاة والهلاك كلها لها أسبابها، فالرزق مقترن بالعمل، والشفاء مقترن بالعلاج، والأمن مقترن بالحراسة، والنجاة مقترنة بوسائلها، والأسد يفترس الإنسان، والسيف يقطعه، لكن الإيمان بالله يقتضي الإيمان بوجوده وبأسمائه وصفاته، وعليه يكون الرجاء به سبحانه لا بالأسباب، والخوف منه لا من الأسد أو السيف، فكلها طارئة في وجودها مفتقرة إلى فعله افتقارَ وجودها إلى وجوده سبحانه، فلا أثر حقيقياً لها، وإنما الفاعل فيها المتحكم بها هو الله سبحانه، جعلها أسباباً وهو مستغنٍ عنها، فإذا شاء رزق وشفى وحمى ونجّى بلا أسباب، وإذا شاء لم تقطعِ السكين بيد الذابح، ولم يفترس الأسد الرجل الأعزل، فالمؤمن الصادق الإيمان لا يشهد في الكون غير وجودٍ واحد هو وجود الله تعالى، وهذا معنى مفهوم «وحدة الوجود» عند الشيخ النابلسي، فهو شهود بأن الوجود واحد هو وجود الله الواحد الأحد، فهو وجود حقيقي لأنه وجود أزلي لا مبدأ له ولا بادئ، أما وجود غيره سبحانه

فوجود طارئ قائم به عز وجل وهو الموجِد، لذلك لا يعد وجود غيره وجوداً حقيقياً، وقال النابلسي إن هذا الفهم هو نفسه عند السابقين، إلا أن غيرهم فهموه فهماً خاطئاً حين ربطوه بمفهوم أهل الكلام والزنادقة. ويستشهد بقول الفخر الرازي: «فإن القائلين بوحدة الوجود مرادهم بالوجود: الوجود الذي صار به الموجود موجوداً لا الوجود الذي هو مفروض مقدر»[٣٤٢]، ويضيف: «أن الوجود الحق (الحقيقي) هو عين ذات الحق تعالى، وهو وجود واحد لا ينقسم ولا يتبعض ولا يتجزأ ولا ينتقل ولا يتغير ولا يتبدل أصلاً، وهو مطلق عن الكيفيات والكميات والأماكن والأزمان والجهات، ولا يُتَصوّر فيه الحلول في شيء؛ إذ ليس معه شيء غيره، ولا يتَّحد مع شيء؛ إذ لا شيء معه، وإنما جميع الأشياء به موجودة، بوجوده - الذي هو عين ذاته - ثابتة مشهودة، وجميع الأشياء - بالنظر إلى ذواتها - مفروضة مقدرة»[٣٤٣]. فهو يؤكد فساد فهم من فهم أن «وحدة الوجود» اتحاد الخالق مع المخلوقات وأنه هو عينه هي أعيانها، وإنما يقصد بها أن الوجود الحقيقي هو الوجود الأزلي الذي لا يقوم بغيره، وليس الوجود الطارئ الذي لا يقوم إلا بالله، فالوجود واحد هو وجود الله تعالى، ويبدو أنه يعني بالفرض:

---

[٣٤٢] إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود، للنابلسي، ص١٠.
[٣٤٣] المصدر السابق، ص١٠، ١١.

التخطيط، أو تصور الشيء قبل إيجاده، أي وضع صورة افتراضية، ويعني بالتقدير: التنفيذ أو الإنشاء، فالمخلوقات خلقها الله تعالى بتخطيط مبني على حكمة في شكلها وآلية عملها، ثم خلقها بعد ذلك كما خطط سبحانه. لذلك يقول: «إن الله تعالى خالق الكلِّ، والخَلْقُ: (هو) الفرضُ والتّقديرُ، والمفروض المقدَّر - كيفما فرضناه وقدّرناه - محتاج إلى الوجود، ولا وجود إلا وجود الله تعالى، فهو موجود بوجود الله تعالى، مع أنه عدمٌ صرفٌ في نفسه»[٣٤٤].

---

[٣٤٤] إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود، للنابلسي، ص١٢.

مفهوم وحدة الوجود عند ابن عجيبة

بدأ ابن عجيبة من حيث انتهى النابلسي، فقال: «العلم بظهور العبودية قديم، وكذلك المعاني التي هي مادة الأشكال والرسوم، وظهور نعوت العبودية حادثة»[٣٤٥]، وهو المعنى ذاته الذي أراده النابلسي بقوله: «إن الله تعالى خالق الكلِّ، والخَلْقُ: (هو) الفرض والتقدير»، وأضاف: ابن عجيبة: «وشواهد هذه النعوت من طريق النقل قوله ﷺ: ﴿كانَ اللَّهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ، وكانَ عَرْشُهُ علَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، وكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شيءٍ﴾[٣٤٦] فزاد بعض العارفين: وهو الآن على ما عليه كان[٣٤٧] لأن ما ظهر من الأواني غير المعاني، فما ظهر في عين الشهادة هو عين الغيب من غير زيادة... فالأمر الآن كما كان عليه في الأزل، وفي حديث الترمذي، عن أبي رزين العقيلي: ﴿قلنا: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء، ليس تحته هواء، وليس فوقه هواء﴾[٣٤٨] أي كان في خفاء ولطافة لم يحصره هواء من فوقه ولا

---

[٣٤٥] ابن عجيبة، تقييدان في وحدة الوجود، ص١٣.

[٣٤٦] صحيح البخاري، برقم ٧٤١٨.

[٣٤٧] الحكم العطائية، الحكمة ٢٦، ونسب بعضهم هذا القول لابن مشيش، وهو أقدم من ابن عطاء.

[٣٤٨] رواه ابن ماجه بلفظ ﴿قلت: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وما ثَمَّ خلق، عرشه على الماء﴾ وقال الشيخ عبد العزيز الراجحي: في سنده وكيع بن عدس أو حدس وهو مقبول، وله شواهد (شرح سنن ابن ماجه، للراجحي، ج١٢، ص٨، نسخة المكتبة الشاملة. وضعفه الألباني، إلا أن الراجحي ضعّف الرواية الثانية، وهي: «قال: كان في عماء فوقه هواء، والذي تحته هواء، ثم خلق العرش على الماء».

من تحته، إذ لا فوقَ ولا تحتَ، بل هو أوسع من كلِّ فوقٍ ومن كلِّ تحتٍ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٤٩] وقيل لسيدنا علي كرم الله وجهه: يا بن عم رسول الله ﷺ، أين كان ربنا؟ وهل له مكان؟ فتغير، وسكت ساعة، ثم قال: قولكم: أين الله؟ سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان، ثم خلق الزمان والمكان، وهو الآن كما كان؛ لا زمان ولا مكان. (انتهى) أي لا وجود لهما في ذاتهما، فلا شيء معه، وفيها لا يزال. وسئل أبو الحسن النوري: أين الله من مخلوقاته؟ فقال: كان الله ولا أين، والمخلوقات في عدم، فكان حيث هو، وهو الآن حيث كان، إذ لا أين ولا مكان. (انتهى)»[٣٥٠].

والمشكلة أن ابن عجيبة يتكلم بطريقة رمزية تجعلنا مضطرين إلى تجاوز كثير من كلامه كي لا نتأوله على غير وجهه، وهو قد صرح منذ البداية بقوله: «عِلْمُنا كلُّه إشارة، فإذا صار عبارة فقد خفي»[٣٥١]. لكننا حاولنا أن نجتزئ ما كان واضحاً بَيِّناً من كلامه مما يخدم ما نحن بصدده، وإن كان ما جاء به الشيخ عبد الغني النابلسي، رحمه الله، كافياً وافياً، لا يُحتاج معه إلى كلام غيره.

---

[٣٤٩] سورة البقرة: ١١٥.
[٣٥٠] ابن عجيبة، تقييدان في وحدة الوجود، ص١٣، ١٤.
[٣٥١] المصدر السابق، ص١١.

وحدة الشهود عند البوطي

لم يكن الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، رحمه الله، يتكلم بوحدة الوجود، بل ولا يُقِرُّبها، وإنما تكلم بوحدة الشهود، لكنه حين شرح «الحكم العطائية» ووصل إلى قول ابن عطاء: «وهو الآن على ما عليه كان»، جاء بتوضيح جليٍّ، وضرب مثلاً يقرّب الفكرة من الأذهان، فقال: «يجب أن نتساءل: أتشترك المخلوقات التي نراها مع الله عز وجل في صفة الوجود؟ لا تستطيع أن تقول في الجواب: نعم إنها تشترك معه في صفة الوجود، إلا إن استطعت أن تقول، عن الطفل الصغير الذي يوقفه والده على قدميه بيديه؛ إذ يمسكه بهما: إنه يشترك مع والده في صفة الوقوف على القدمين! إن من الأمور البدهية أن الطفل في هذه الحال إنما يقف على قدميه بإيقاف والده له، فهو ما دام يمسكه بيده، يشدّه إلى الأعلى، يظهر بمظهر الواقف كأبيه، فإذا تركه خرّ واقعاً على الأرض، إذاً فوقوفه متحقق بأبيه، لا مع أبيه. وكم بين العبارتين من الفرق الشاسع الكبير! فكذلكم المخلوق بالنسبة للخالق، إنّ الله هو الذي أمدّه بصفة الوجود ابتداء، وهو الذي يمتعه بهذه الصفة دواماً، أي إن استمرار وجود المخلوق - أياً كان - باستمرار إمداد الله له بالوجود لحظة فلحظة، فلو تخلّى الله عنه فلسوف يتحول في اللحظة ذاتها إلى هلاك وعدم... فكيف يكون المخلوق شريكاً مع خالقه في صفة لا

يملك أن يستبقيها عنده لحظة واحدة؟ ومن هنا قال رسول الله ﷺ: ﴿أصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَها الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلٌ﴾[٣٥٢]**، أي كل شيء ما خلا الله في حكم المعدوم، وليس بينه وبين أن يتبين لك هلاكه وبطلانه، سوى أن يتخلّى الله عنه، أي سوى أن ينتهي الإمساك الذي عبرّ عنه بيان الله بقوله:** ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾[٣٥٣]**، ولا يتحقق العبد بتوحيد الله عز وجل، إلاّ إن أدرك الحقيقة التي يقولها ابن عطاء الله بيقينه العقلي؛ وهي أنه ليس مع الله أي موجود، لا اليوم، ولا من قبلُ، ولا من بعدُ، ثم اصطبغ وجدانه بهذا المعنى التربوي. وملاك هذا الأمر أن تكون على بينة من الفرق بين الوجود مع الله، وهو باطل ومستحيل، وبين الوجود بالله وهو ثابت وحق»[٣٥٤]. وما أجلى وأبسط هذا الشرح، وهو أيضاً دليل على أن البوطي فهم «وحدة الوجود» على أنها «وحدة الشهود»، فقد شرح «وحدة الشهود» بالفهم نفسه الذي شرح فيه النابلسي وحدة الوجود، ما يؤكد أن معنى المصطلحين واحد، كما بينّا في التمهيد في كلام الصوفي العالم، وخلاصة القول إن «وحدة الوجود» عند الصوفية لها معنى مختلف**

---

[٣٥٢] صحيح البخاري، برقم: ٣٨٤١.
[٣٥٣] سورة فاطر: ٤١.
[٣٥٤] الحكم العطائية شرح وتحليل، للبوطي، ج٢، ص٩٦، ٩٧.

عما عند أهل الكلام وأصحاب الفرق الضالة، فهي في فهم الصوفية أن الوجود واحد، هو لله الواحد الأحد، وكل ما غير الله عَرَضٌ ووجوده طارئ، فوجوده قائم بالله لا مع الله، وهذا الوجود مفتقر إلى الله تعالى ولا يقوم بنفسه، فلا يعد وجوداً حقيقياً، أما الله سبحانه فوجوده قائم بنفسه مستغنٍ عن غيره، فلا الخالق عين المخلوق ولا العكس، ولا اتحاد ولا حلول.



يقول إخواني السلفيون: إن الصوفية يزعمون أن الله سبحانه وتعالى يتجلى في نظام الكون وفي النبات وفي الوجه الجميل، وفي المخلوقات عموماً، وهذا إن لم يكن يعني الحلول أو الاتحاد فإنه يعني التماثل بينه، سبحانه، وبين خلقه، والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣٥٥]، فقول الصوفية هذا باطل من الوجهين، وهو كفر واضح، لا يمكن لأحد تأوُّله بغير صريح لفظه.

والخبر الذي جاء به إخواني السلفيون صحيح، فالصوفية يقولون بتجلي الله، سبحانه وتعالى، «من خلال» كل مظاهر الصنع والإبداع والجمال، وليس «في تلك المظاهر»، والفرق شاسع بين «من خلال» وبين «في»، فالتجلي ليس انعكاساً كانعكاس الصورة في المرآة، ولا «بالأشياء» على مبدأ الحلول، وحين يتبين لنا معنى التجلي سيتغير الحكم، لنكتشف أن المسألة إيمانية لا لَبْس فيها ولا تُفضي إلى اتحاد ولا إلى حلول ولا إلى مماثلة. فما هو التجلي؟

يظن بعضنا أن التجلي هو الظهور الصوري، وهو فهم خاطئ، ولو كان كذلك لكان معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ

---

[٣٥٥] سورة الشورى: ١١.

دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[٣٥٦] أن الله سبحانه ظهر للجبل ظهوراً صورياً، وهذا فهم سقيم، ولم يتجرأ أحد من المفسرين على شرح معنى «تجلى» في الآية، وإنما طافوا حوله بحذر، وهذا من ورعهم، من باب الأدب مع الله من جهة، وخوفاً من الوعيد الشديد في قول النبي ﷺ: ﴿مَن قال في القرآنِ برأيِهِ، فليتَبوَّأْ مَقعدَهُ مِن النَّارِ﴾[٣٥٧]، فالتفسير مسؤولية عظيمة، لا يصلح لها كل من اجتهد أو وضع معجمات اللغة بين يديه، وقد جاء في تفسير هذه الآية شيء كثير من الإسرائيليات لا يعتد به، و«عن السدي، قال: إن موسى، عليه السلام، لما كلّمه ربه، أحب أن ينظر إليه، قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، فحُفَّ حول الجبل بملائكة، وحُفَّ حول الملائكة بنار، وحُفّ حول النار بملائكة، وحُفّ حول الملائكة بنار، ثم تجلى ربه للجبل»[٣٥٨]، ونلاحظ في هذا التفسير أن كل ما سبق «التجلي» لا دور له، فحضور الملائكة في دوائر تحيط بهم النار وملائكة يحيطون بالنار، هذا كله لا أهمية له في اندكاك الجبل، وإنما الأثر الحقيقي كان لتجلي الله تعالى له، وحين وصل إلى مصطلح «التجلي» قال: «ثم تجلى ربه للجبل»، فلم يفسر ولم يشرح معنى «التجلي»، الذي كان

---

٣٥٦ سورة الأعراف: ١٤٣.
٣٥٧ سنن الترمذي، برقم: ٢٩٥١.
٣٥٨ تفسير الطبري للآية.

اندكاك الجبل بسببه، ولم تذكر الآية ملائكة أو ناراً! وفي رواية إسرائيلية أنه سبحانه قال لموسى: «فلستُ في مكان واحد فأتجلى لعين تنظر إليّ»، فربطت الرواية التجلي بالنظر بالباصرة، وهو معنى فاسد لا يصح، فالتجلّي غير الجلاء، وسنذكر ما ورد في المعجم في «التجلي»:

«الْجَلاءُ: الأَمْرُ الْجَلِيُّ، جَلا لِيَ الْخَبَر: وَضَحَ، وَجَلَوْتُ: أَوْضَحْتُ وَكَشَفْتُ. وَجَلَّى الشَّيْءَ: كَشَفَهُ. وَهُوَ يُجَلِّي عَنْ نَفْسِهِ أَيْ: يُعَبِّرُ عَنْ ضَمِيرِهِ. وَتَجَلَّى الشَّيْءُ: تَكَشَّفَ. وَجِلاءُ السَّيْفِ وَالْمِرْآةَ: صَقَلَهُمَا. عَنْ أَنَسٍ ﴿أنَّ النَّبيَّ ﷺ: قَرأَ هذِهِ الآيةَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾[359]. قالَ حمَّادٌ: هَكذا، وأمسَكَ سليمانُ بطرفِ إبْهامِهِ على أنملةِ إصبعِهِ اليمنى قال: فساخَ الجبلُ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[360] قَالَ الزَّجَّاجُ: تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أَيْ: ظَهَرَ وَبَانَ، قَالَ: وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: تَجَلَّى بَدَا لِلْجَبَلِ نُورُ الْعَرْشِ»[361].

وقد ظن بعضهم أن معنى الحديث السابق أن الله تعالى وضع طرف إصبعه على الجبل! ففسروا التجلي من هذا الفهم السقيم، والصواب ما ذكره علوي السقاف: «وقول حمّادٌ: (هكذا)، أي: أشار

---

[359] سورة الأعراف: ١٤٣.

[360] صحيح الترمذي، للألباني برقم ٣٠٧٤.

[361] لسان العرب، لابن منظور.

إلى قدْرِ التَّجلِّي، (وأمسَكَ سُليمانُ بطرَفِ إبهامِه على أَنمُلَةِ إصبَعِه اليُمنى) أي: فسَّر سليمانُ، وهو الرَّاوي عن حمَّادٍ، إشارتَه، والمرادُ: أنَّه ما تَجلَّى مِنه سبحانه وتعالَى إلا هذا القَدْرُ»[٣٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[٣٦٣] أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عِياناً[٣٦٤].

ومن المعلوم أن النهار ليس أمراً حسياً فيدرك بالبصر، فالنهار لم يره أحد، وإنما رأى الأشياء في ضوء الشمس، وهذا الطرف من طرفي اليوم اسمه «النهار» ويقابله «الليل»، فبمجيئه ظهرت الأشياء للبصر، فعبر عنه الله سبحانه بأنه ﴿تَجَلَّى﴾، ولم يقل سبحانه: تجلت الشمس، فإشراق النهار ليس إشراق ذاته، ولذلك كان الشيخ عادل الأمين، رحمه الله، يقول: «إن الله تعالى مُتجَلٍّ دائماً، ولكن الغفلة فينا، فإن صح توجُّه القلب أدرك العبد التجلي، وإن لم يصح ظل محجوباً، مثل التلفاز؛ فإن بَثَّ القمر الاصطناعي مستمر لا يتوقف، فإن حصل عطل في جهاز الاستقبال، أو كان توجّهه

---

٣٦٢ موسوعة الدرر السنية الموسوعة الحديثية، للسقاف.
٣٦٣ سورة الليل: ٢.
٣٦٤ ينظر: تفسير الطبري للآية.

منحرفاً عن الإشارة فإنه لا يستقبل البث، فإذا صلح جهاز الاستقبال (القلب) وتوجه توجهاً صحيحاً (الإخلاص) فإنه يستقبل الإشارة (التَّجلي)، وتتناسب درجة تلقي هذه الإشارة وصفاؤها ونقاوتها طرداً مع درجة صلاح المُسْتَقْبِل (القلب) وصحة توجهه». فمن التجلي ما يكون غامراً يصل بالعبد إلى درجات الفناء، ومنه ما يكون بدرجة أقل فيأخذ العبدَ بكاءٌ شديد ومتواصل، وأقل درجة يستولي فيها على العبد فرحٌ وسعادةٌ شديدان يذهلانه عما حوله. وبناء على ذلك يُقسم ثلاثة أصناف: تجلّي القهر، وتجلّي الجلال، وتجلّي الجمال، والله أعلم.

ومن العارفين من صنّفه في تسعة وتسعين قسماً، بعدد أسماء الله الحسنى، فقالوا: يتجلى الله باسم الرحمن، ويتجلى باسم القدوس، ويتجلى باسم المهيمن، ويتجلى باسم السلام... وهكذا، ولكل اسم أحوال خاصة به يستشعرها العبد عند التجلي.

ومع ذلك يبقى معنى «التجلي» غامضاً، فهو مما يدرك بالقلب لا بالحس، وكثير من المعاني القلبية يعجز التعبير عن الإحاطة بها، فينقسم فيها الناس ثلاثة أقسام؛ قسم يحاول التعبير عنها بالتعابير الحسية فيخطئ، فيكفِّره من يسمع منه ذلك، وقسم

يلجأ في ذلك إلى الرمز، فيعبر عنه بمصطلحات تتعلق بأثره في القلب لا به، مثل «الخمر» كما مر بنا، وأجود ما قيل في هذا المعنى قول السهروردي صاحب عوارف المعارف:

رَقَّ الزُّجاجُ وراقَتِ الخَمْرُ فَتَشابَها فَتَشاكَلَ الأمْرُ

فَكَأنَّما خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ وَكَأنَّما قَدَحٌ وَلا خَمْرٌ

وتشاكلَ الأمر، أي: الْتَبَس، فهو تَجَلٍ لله تعالى، لكنه سبحانه لا يُرى بالبصر في الدنيا، وأثر التجلي موجود غير مدرك بالحواس، مثل حال نشوة السكر، يعيشها شارب الخمر ولا أثر لها يظهر للعيان ولا له، فالله سبحانه لا يُنْكَرُ وجوده، مع أنه لا يدرك بالحواس، وتجلّيه حاصل، وهو أيضاً لا يدرك بالحواس.

ولعل أصح ما قاله القسم الثالث ممن تكلم في التجلي، الشيح علوي السقاف: «تَجلَّى اللهُ تَجلِّيًا يَليقُ بجَلالِه وكَمالِه بالكيفيَّةِ الَّتي أرادها ولا نَعرِفُها، والتَّجلِّي مِن الصِّفاتِ الخبَريَّةِ الَّتي نُؤمِنُ بها دونَ تشبيهٍ أو تعطيلٍ أو تجسيمٍ»[٣٦٥]. فقد أوضح أنه «خبر» نؤمن به دون تعطيل أو تشبيه، وهذا منتهى الفقه.

ولا بد لأي مفسر أو باحث في ألفاظ القرآن الكريم أن يقف عند «التجلي»، وعند صدر الدين القونوي، التجلّي أنواع:

---

٣٦٥ موسوعة الدرر السنية الموسوعة الحديثية، للسقاف.

التجلي الوجودي: ويقصد به المدرَك بآثار الله سبحانه في هذا الكون بإيجاده الموجودات، فالأثر يدل على المسير، والصنعة تدل على الصانع، وهكذا فإن كل متفكّر يتجلى له الله سبحانه وراء هذا الإبداع في نظام الكون وخلق الإنسان والحيوان والنبات، وإتقان الصنع وإبداع الجمال.

والتجلي الكثيبي: ويقصد به ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٣٦٦].

والتجلي البرزخي: وهو الذي يكون معه كلام، كما في حال سيدنا موسى عليه وعلى سيدنا محمد الصلاة السلام.

والتجلي المطلق: وقصد به غير المقيد بشيء مما سبق، وهو الشهود[٣٦٧]. وبحثُها يطول لسعته، وهذا التقسيم بتفصيله ذكره نسخاً عن القونوي عبد الرحمن بن محمد القمّاش، في كتابه «الحاوي في تفسير القرآن» وأسماه «جنة المشتاق في تفسير كلام الملكِ الخلاق»، دون أن يشرحه أو يعزوه إلى القونوي.

---

[٣٦٦] سورة الأعراف: ١٧٢.

[٣٦٧] إعجاز البيان في تفسير أم القرآن، للقونوي.

وأضاف إليها محيي الدين بن عربي التجلي المثالي[٣٦٨]: وهو المقصود بالحديث في مرتبة الإحسان ﴿أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك﴾[٣٦٩] وقال إنه يكون للصائم، «فهو أن يكون الصائم في حضرة إلهية فأقيم في حضرة مثالية»[٣٧٠]، فهو يدع طعامه وشرابه موقناً بأن الله معه في كل أحواله ولو أغلق عليه في كبد جبل.

ولعل صالح عضيمة كان الأكثر تبسيطاً للأمر بما نقله بلا رموز، يقول: «ويرى الراغب (الأصفهاني) أن تجلي النهار يكون بالذات ﴿وَالنَّهارِ إذا تَجَلّى﴾، يعني أن النهار كله قد ظهر بذاته، ولم يبق منه شيء مخفياً. وأن تجلي الرب للجبل ﴿فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ كان بالأمر والفعل، أي أن الله لا يتجلى بذاته كشفاً للأشياء، وإنما يتجلى لها بمقدار ما تستطيع أن تأخذ من أمره وفعله. أو كما يقول الجرجاني الشريف في كتابه (التعريفات)، عندما يشرح التجلي الذاتي، (والتجلي عنده ذاتي وصفاتي)، يقول: إذ لا يتجلى الحق من حيث ذاته على الموجودات إلا من وراء حجاب من الحجب الإسمائية. وإنه لمن الضروري أن نأتي على التعريفات

---

٣٦٨ الفتوحات المكية، ج١، ص٦٠٩.
٣٦٩ صحيح البخاري، برقم: ٥٠.
٣٧٠ الفتوحات المكية، ج١، ص٦٠٩.

التي ذكروها للتجلي، فمن ذلك ما قاله الشيخ الأكبر في (اصطلاح الصوفية) بأنه: (ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب). ويتردد هذا التعريف على أقلام أهل الفكر والعرفان، ومنهم القاشاني والشريف الجرجاني. ونحكم يقيناً أن من أوجه وأجدر من يؤتى برأيه وكلامه لتعريف التجلي، وفهمه على الوجه الأدق المحكم، هو الأمير المكزون السنجاري، ففي رسالته (تزكية النفس) يقول وهو يعرّف التجلي ويبيّن معناه بأنه: (رفع الحجاب، حجاب الظلمة عن بصر المبصر، ليشاهد من ذات المتجلي على قدر طاقته، في حد عجزه وكلال بصره عن مشاهدة نور اللاهوت، من غير تغيير في ذات المتجلي بحركة توجب الانتقال عن حال بطونه، وإنما شُهد بذلك من قبل تقلب القلوب والأبصار، وذلك في مشاهدة الشهادة، تعالى عن الحركة والسكون، وتنزّه عن حلول الأجساد والتغيير والفساد). ومن تأمل هذا الكلام الرفيع، ينتهي إلى معرفة التجلي بأنه، يكون بين الخالق من جهة وبين المخلوق من جهة أخرى، فالخالق يمد المخلوق بفيوضات منه، والمخلوق يتقبل ما يستطيع أن يتقبل منها، والخالق يُنزل من رحمته وعلمه وقدرته، والمخلوق يتلقى منها ما هو مخصوص له أن يتلقاه، ويستحيل أن يطرأ على الخالق تغير أو تحول في ذاته من خلال التجلي، وإنما التغيير

والتحول واقعان في المخلوق، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، نشاهد أن المتغير عن صفته والمتحول عن شكله هو الجبل الذي يتلقى فعل التجلي، وأن تغيراً ما وتحوّلاً لا يقعان إلا بعد التجلي. وإلى هذا المعنى قصد ابن عربي في بعض ما عنى عندما يقول: (له تعالى التجلي الدائم العام في العالم على الدوام، وتختلف مراتب العالم فيه لاختلاف مراتب العالم في نفسها، فهو يتجلى بحسب استعدادهم). وفي مكان من الفصوص يقدم مثلاً يشرح فيه عملية التجلي فيقول: (فالشيء الواحد يتنوع في عيون الناظرين، هكذا هو التجلي الإلهي)، وعنده أن التجلي على نوعين: التجلي الوجودي، وهو عام شامل للموجودات بأسرها، ويعني أن الوجود وما فيه هو مظهر للذات الإلهية، والأشياء لا توجد إلا إذا تجلت فيها أسماء الحق وصفاته من نور وعلم وقدرة ورحمة وغير ذلك: (وهذا التجلي دائم مع الأنفاس في العالم، واحد يتكثر في مظاهره لاختلاف استعداد المتجلي فيه) كما ورد في المعجم الصوفي. وعن هذا التجلي يقول ابن عربي: (والتجلي الإلهي يكسب الممكنات وجودها)، ويقول: (إن العالم ليس إلا تجليه في صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل وجودها بدونه، وأنه يتنوع ويتصور بحسب حقائق هذه الأعيان

وأحوالها). والتجلي الثاني، هو التجلي الشهودي أو العلمي العرفاني، وهو الوصول إلى المعرفة من طريق الكشف والشهود الذوقي، ولا يتيسر إلا لمن بذل النفس والنفيس في سبيله. فالعلم الكامل في رأي الشيخ لا يحصل إلا (في التجلي الإلهي وما يكشف الحق عن أعين البصائر والأبصار من الأغطية، فتدرك الأمور قديمها وحديثها على ما هي عليه في حقائقها وأعيانها). ويقول أيضاً: (والتجلي لا يكون إلا بما أنت عليه من الاستعداد الذي به يقع الإدراك الذوقي... إنك ما أدركت إلا بحسب استعدادك). ولهذين النوعين من التجلي عند غيره أسماء أخرى، وكلها تلتقي في فضاء واحد، وله كتاب (التجليات) والشرح عليه لابن سودكين، وقد بلغا مبلغاً في شرح التجلي والحديث فيه بما لا مزيد عليه»[٣٧١].

ويتابع صالح عضيمة: «ويذكر القشيري في الرسالة أن: (العوام في غطاء الستر، والخواص في دوام التجلي). يعني أن العامة من جماعة الصوفية، لا يستطيعون أن يتحملوا الوصول إلى مرحلة الكشف، فحقهم أن يظلوا متأخرين في دور الاستتار والاحتجاب، حتى يصل استعدادهم إلى الدرجة التي يقدرون معها أن يتحملوا بَوادِهَ أنواره. أما الخواص، وهم من منحوا نعمة قدرة التلقي والاستلام، فهؤلاء

---

٣٧١ مصطلحات قرآنية، لصالح عضيمة.

يعيشون في كشف دائم. وفي الخبر: (أن الله إذا تجلى لشيء خشع له)، فهم في خشوع دائم لا يستطيعون الخروج منه. ويقول القشيري أيضاً: (والستر للعوام عقوبة، وللخواص رحمة، إذ لولا أنه يستر عليهم ما يكاشفهم به، لتلاشوا عند سلطان الحقيقة، ولكنه كما يظهر لهم يستر عليهم). وكلامه هذا يشرحه بكلام له آخر، أعني قوله: (وأما الخواص فهم بين طيش وعيش، لأنّهم إذا تجلى لهم طاشوا، وإذا ستر عليهم رُدّوا إلى الحظ فعاشوا). ونقدر أن نقول بيقين وثبات، إن التجلي لا يشير من قريب ولا بعيد إلى الحلول ولا إلى الامتزاج بين المتجلي والمتجلَّى لهم، ولا يُفهم منه في ظاهره وباطنه إلا خالص التوحيد. وهل ندل على ذلك بأنصح وأبين من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي يوضح فيه مفهوم التجلي مع أصفى معنى للتوحيد؟ فهو كرّم الله وجهه يقول: (... ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع عن عين البصيرة، فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره). وفي خطبة أخرى يقول: (وإنما تجد الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها... بها تجلى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون). ويقول: (إن الله تجلى لعباده من غير أن يروه، وأراهم نفسه من غير أن يتجلى).

ويقول أيضاً: (لم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها)»[٣٧٢].

وللدكتور حسن هويدي، رحمه الله، ومجموعة من العلماء كتيب بعنوان «ردود على سقطات مجلة العربي» نشروه تصويباً لأخطاء وقع فيها الأستاذ عبد الوارث كبير، المشرف على باب «أنت تسأل ونحن نجيب» في هذه المجلة العريقة، وكان أحد الأسئلة التي وُجِّهت إليه عن التجلي الوجودي عند محيي الدين بن عربي، حيث ذكر السائل أن ابن عربي يقول في بعض كتبه: إن الله تعالى يتجلى من خلال المخلوقات، فكان الجواب: «أحرقوا هذه الكتب»! فردوا عليه بشرح لمفهوم التجلي، وأنه لا يقصد به الاتحاد أو الحلول، وإنما هو إدراك من يرى هذه الموجودات أن لها مُوجِداً قادراً خالقاً بديعاً. واستشهدوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣٧٣]**، وبينوا أن هذا التفكر هو الطريق إلى مرتبة الإحسان، وأن التراث الصوفي من كنوز المكتبة الإسلامية، وهو كغيره من العلوم الإسلامية، يحتاج دارسه إلى فهم اللغة العربية لكي لا يلقي أحكامه جزافاً فيقول:**

---

[٣٧٢] مصطلحات قرآنية، لصالح عضيمة.

[٣٧٣] سورة آل عمران: ١٩٠- ١٩١.

«أحرقوا هذه الكتب».

ولست أذكر الكلام بحذافيره، لأن الكتيب صدر في حدود السبعينيات في دير الزور، فكان انتشاره محدوداً، ولم أجد نسخة منه في السعودية ولا في الشابكة، والنسخة التي تركها لنا والدي رحمه الله انتُهبت مع المكتبة في ما مرت به سورية. لكن أستطيع أن أقول إن من يرى بناء عظيماً متناسقاً جميلاً مفصلاً أكمل تفصيل يناسب كل الظروف، وكل ما فيه محسوب بدقة، فلا اختلال فيه ولا نقص ولا عيب، فإنه سيقول: ما أعظم هذا المهندس، أو البنّاء، أو الصانع! مع أنه لم ير الصانع، ولا أخبره أحد بوجوده، لكنه أدرك أن مثل هذا البناء لا يقوم بغير صانع، وهذا التناسق لا يحصل بغير علم، وهذه العظمة لا تتم بغير قدرة، وهذا التناسب مع الظروف لا يأتي بغير حكمة، وهذا الجمال لا يكون بغير إبداع. فعرف الناظر أن لهذا البناء صانعاً قادراً حكيماً بديعاً، فأدرك وجودَه وأيقن ببعض صفاته، وهو لم يره ولم يخبره عنه أحد، وما ذلك إلا أن هذا الصانع تجلّى له من خلال صنعته، ودون أن يراه أو يسمعه أو يسمع عنه من أحد. والله أعلم. فعندما تنظر إلى سعة البحر أو نظام الفلك أو النبات بخضرة أوراقه ولينها مع قسوة ساقه وخشونتها، وإلى أزهاره بألوانها وعطورها وإلى ثماره باختلاف طعومها، فلا شك أنك ستقول: «سبحان الله!»، وأنت لم تر الله تعالى لتدرك عظمته

فتسبحه، ولكنك رأيت بديع صنعه، فهو سبحانه تجلى لك في قدرته من خلال إبداعه في خلقه لا في خلقه. وشتان بين المعنيين.

ولم يفت شيخ الإسلام ابن تيمية التعبير عن هذا المعنى، وإن لم يستخدم مصطلح «التجلي»، فقال: «وَقَدْ يُشَاهِدُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَمَالِهِ أُمُورًا عَظِيمَةً تُصَادِفُ قُلُوباً رَقِيقَةً فَتُحْدِثُ غَشْياً وَإِغْمَاءً. وَمِنْهَا مَا يُوجِبُ الْمَوْتَ. وَمِنْهَا مَا يُخِلُّ الْعَقْلَ. وَإِنْ كَانَ الْكَامِلُونَ مِنْهُمْ لا يَعْتَرِيهِمْ هَذَا كَمَا لا يَعْتَرِي النَّاقِصِينَ عَنْهُمْ؛ لَكِنْ يَعْتَرِيهِمْ عِنْدَ قُوَّةِ الْوَارِدِ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَضَعْفِ الْمَحَلِّ الْمَوْرُودِ عَلَيْهِ، فَمَنْ اغْتَرَّ بِمَا يَقُولُونَهُ أَوْ يَفْعَلُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ كَانَ ضَالا مُضِلاً. وَإِنَّمَا الأَحْوَالُ الصَّحِيحَةُ مِثْلُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا. فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنه، وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ

مُسَاءَتَهُ وَلا بُدَّ لَهُ مِنْهُ)[٣٧٤]. فإذا توقفنا عند قوله، رحمه الله: «يُشَاهِدُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَلالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَمَالِهِ أُمُورًا عَظِيمَةً» فإننا لا نفهم منه أنه يشاهد الله سبحانه أو يرى جماله بعينيه، لأنه قال: «يشاهد من جلال الله وعظمته وجماله» و«مِن» تفيد «التبعيض»، والله سبحانه لا يتجزأ، وكذلك فإن مفعول الفعل «يشاهد» في قوله جاء متأخراً وهو «أموراً» أي أن أصل كلامه «يشاهد أموراً عظيمة من جلال الله وعظمته وجماله» وهو بهذا الفهم يلتقي مع قول الصوفية الذي مر بنا أنه سبحانه يتجلى بالقهر أو الجلال أو الجمال، فشيخ الإسلام يعني أنه سبحانه يتجلى بالجلال والعظمة والجمال وإن لم يذكر مصطلح «التجلي»، ويؤكد ذلك قوله: «تُصَادِفُ قُلُوباً رَقِيقَةً فَتُحْدِثُ غَشْياً وَإِغْمَاءً، وَمِنْهَا مَا يُوجِبُ الْمَوْتَ، وَمِنْهَا مَا يُخِلُّ الْعَقْلَ»، ما يعني أن المسألة قلبية وليست بصرية، لكن شيخ الإسلام ابتعد عن مصطلح «التجلي» لئلا يلتبس بما فهمه من مدلول التجلي عند ابن عربي وتأوَّلَه بالحلول، وذمّه وألحقه بالجهمية، بناء على ما فهمه من كلامه، وذلك اجتهاده - رحمه الله - وخصوصاً أنه تأوّل تجلي الله سبحانه للجبل بأنه «ظهوره، وأنه مع ذلك قد لا يطيق المتجلي له رؤيته لعجزه، وأن التجلي ليس هو خلق الرؤية فيه، عُلم أنه قد

---

[٣٧٤] الفتاوى، ج١١، ص٧٤، ٧٥

يتجلى لمن يراه ولمن لا يراه،»[٣٧٥]. وهنا أيضاً يستوقفنا قوله، رحمه الله: «أنه قد يتجلى لمن يراه ولمن لا يراه» لنفهم منه أن التجلي ليس رؤية بصرية، ولو كان كذلك فكيف يتجلى لمن لا يراه؟!

أقوال أئمة الصوفية في التجلي:

الجنيد، في التجلي والاستتار: «إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب، فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام، والتهذيب للخواص وهو التجلي، والتذويب للأولياء وهو المشاهدة»[٣٧٦].

ابن عجيبة: «التجلي: عبارة عن كشف العبد بعظمة ربه، وهذا قبل الرسوخ، وأما بعد الرسوخ فلا غيبة له»[٣٧٧].

القشيري: «التجلي: هو إشراق أنوار الحق على قلوب المريدين»[٣٧٨].

زكريا الأنصاري: «التجلي: ظهور الذات في حجب الأسماء والصفات تنزّلاً»[٣٧٩].

السراج الطوسي: «التجلي: هو إشراق أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه»[٣٨٠].

---

٣٧٥ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية، ج٨، ص١٣٢.
٣٧٦ أبواب التصوف مقاماته وآفاته، لمحمد بن عبد القادر الكيلاني، ص١٧٤.
٣٧٧ معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ابن عجيبة، ص ٦٧.
٣٧٨ أربع رسائل في التصوف لأبي القاسم القشيري، قاسم السامرائي، ص٥٣.
٣٧٩ الرسالة القشيرية، للقشيري، ص٦٦.
٣٨٠ اللمع في التصوف، للسراج الطوسي، ص٣٦٣.

عبد الحافظ المالكي: «التجلى: هو ما ينكشف لقلب السالك من أنوار الغيوب، فإن كان مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات سُمِّيَ بتجلى الذات، وأكثر الأولياء ينكرونه ويقولون إنه لا يحصل إلا بواسطة صفة من الصفات، فيكون هذا من تجلي الأسماء، الذي هو قريب من تجلي الصفات، وإن كان مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعيُّنها وامتيازها عن الذات سُمّيَ تجلي الصفات، وإن كان مبدؤه فعلاً من أفعاله تعالى سُمِّي تجلي الأفعال»[381].

الأمير عبد القادر الجزائري: «أما التجلي الذاتي فإنما يعنون به: تجلي الحق - تعالى - للعبد من حيث إنه لا يظهر لذلك التجلي نسبة إلى اسم ولا صفة ولا نعت ولا إضافة، وإنما يعرف أنه تجلٍّ له فقط. ومتى ظهر شيء مما ذكر نسب ذلك التجلي إلى ما ظهر، فالتجلي الذاتي عند الطائفة العلية هو تجلي الذات من حيث الذات الإلهية لا من حيث الذات الأحدية، فإنه مَحْلُ المُحال، ولا يقول به أحد من الناقصين فضلاً عن أهل الكمال»[382].

أبو المواهب الشاذلي: «تجلي ذات الحق تمحق الكائنات، وتجلي صفاته توجب لها الثبات، لذلك لم تُطَقْ رؤية الذات بالأبصار، ولا

---

[381] هداية الراغبين، للمالكي، ص٤.
[382] المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، لعبد القادر الجزائري، ج٢، ص٣٣٥.

يُدرَك كنهها بالعقول والأفكار. كيف وأنى لجائز حادث سقيم أن يثبت لوجوب الوجود القديم»[٣٨٣].

وكما نرى؛ كلها عبارات واضحة المعاني والدلالات، لا إغراب فيها ولا رمزية مغرقة، إضافة إلى خلوّها من أي دلالات أو حتى إشارات ضلالية كالتجسيم، أو شركية كالاتحاد، أو كفرية كالحلول، وهذا يدعونا إلى التأني حين نأخذ الأحكام عن غيرنا دون تحقق من أصحاب المقولات أنفسهم، فمن ناوأ أو عادى خضعت أحكامه لعاطفته تجاه من عادى، كما يجب أن نرجع إلى علوم اللغة العربية من معاني مفردات، وعلم دلالة، ونحوٍ، ومجاز، واضعين نصب أعيُنِنا أن العلم ليس حكراً على شخص أو جماعة، وكلنا يخطئ ويصيب، ويؤخذ منه ويردّ عليه إلا سيدنا محمداً ﷺ، إضافة إلى أن العدل يستوجب أن نسمع من الطرفين، وقد عاتب الله داوود عليه السلام حين حكم بعد استماعه إلى طرف واحد: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ

[٣٨٣] نفائس العرفان من أنفاس الرحمن، محمد بن محمد وفا الكبير، هامش ص١٠١.

بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[٣٨٤]، **فجاء التوجيه الإلهي بأمرين؛ «الحكم بالحق» و«عدم اتباع الهوى»**: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٣٨٥].

وقد قال المتنبي:

وكمْ من عائِبٍ قوْلاً صَحيحاً ... وآفَتُـــهُ مِنَ الفَهْمِ السّـقيمِ
ولـكِـنْ تـأخُـذُ الآذانُ مِـنْـهُ ... على قَـدْرِ القَرائحِ والعُلُومِ

---

٣٨٤ سورة ص: ٢١ - ٢٥.
٣٨٥ سورة ص: ٢٦.

الفَنَاء

قال إخواني السلفيون: خرج الصوفية على الأمة بمصطلح «الفناء» الذي لم يؤثر عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولا التابعين، وزعموا أنهم يبلغون هذه المنزلة فتتلاشى ذواتهم لتصير فيهم ذات الله سبحانه، حتى يقول أحدهم «ما في الجبّة إلا الله» و«سبحاني» و«أنا الحق» وأمثال تلك الأقوال من الكفر الصريح الذي يوهم الاتحاد أو الحلول، وهذا يروى عن أعلام من الصوفية وأكابرهم، من أمثال أبي يزيد البسطامي.

وما ذكره إخواني السلفيون صحيح في خبره، لكنهم أخطؤوا في فهم المعنى المقصود بالمصطلح، الذي تكلم به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وشرحه مفهومه، وقد بينّا من قبل أن عدم اشتهار المصطلح لا يعني عدم وجوده، وها هو الإمام ابن تيمية يبيّن مفهوم «الفناء» ويؤكد أنه أصل في الإسلام، فيقول: «وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣٨٦]، قَالُوا: هُوَ السَّلِيمُ مِمَّا سِوَى اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى عِبَادَةِ اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى إرَادَةِ اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَهَذَا الْمَعْنَى إنْ سُمِّيَ فَنَاءً أَوْ لَمْ يُسَمَّ هُوَ أَوَّلُ الإِسْلامِ وَآخِرُهُ. وَبَاطِنُ الدِّينِ وَظَاهِرُهُ»[٣٨٧]. فقد أكد

---

[٣٨٦] سورة الشعراء: ٨٩.

[٣٨٧] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ص٢١٩.

الإمام ابن تيمية أن مفهوم الفناء موجود قبل أن يتكلم به الصوفية وأنه «هُوَ أَوَّلُ الإِسْلامِ وَآخِرُهُ. وَبَاطِنُ الدِّينِ وَظَاهِرُهُ» لكن المصطلح غير موجود، لذلك قال ابن تيمية: «وَهَذَا الْمَعْنَى إنْ سُمِّيَ فَنَاءً أَوْ لَمْ يُسَمَّ هُوَ أَوَّلُ الإِسْلامِ وَآخِرُهُ». ثم يبين ابن تيمية، رحمه الله، آثار هذا الفناء في السالكين وانعكاساته في مراياهم وردود فعلهم، فيقول: «وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى، وَهَذَا يَحْصُلُ لِكَثِيرٍ مِنْ السَّالِكِينَ؛ فَإِنَّهُمْ لِفَرْطِ انْجِذَابِ قُلُوبِهِمْ إلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْ تَشْهَدَ غَيْرَ مَا تَعْبُدُ وَتَرَى غَيْرَ مَا تَقْصِدُ؛ لا يَخْطُرُ بِقُلُوبِهِمْ غَيْرُ اللَّهِ؛ بَلْ وَلا يَشْعُرُونَ؛ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾[٣٨٨] قَالُوا: فَارِغاً مَنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى. وَهَذَا كَثِيرٌ يَعْرِضُ لِمَنْ فَقَمَهُ أَمْرٌ مِنْ الأُمُورِ؛ إمَّا حُبٌّ وَإِمَّا خَوْفٌ وَإِمَّا رَجَاءٌ يُبْقِي قَلْبَهُ مُنْصَرِفاً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا عَمَّا قَدْ أَحَبَّهُ أَوْ خَافَهُ أَوْ طَلَبَهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَ اسْتِغْرَاقِهِ فِي ذَلِكَ لا يَشْعُرُ بِغَيْرِهِ. فَإِذَا قَوِيَ عَلَى صَاحِبِ الْفَنَاءِ هَذَا فَإِنَّهُ يَغِيبُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، حَتَّى يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمُعَبَّدَةُ، مِمَّنْ سِوَاهُ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزُلْ، وَهُوَ الرَّبُّ تَعَالَى. وَالْمُرَادُ فَنَاؤُهَا فِي شُهُودِ الْعَبْدِ وَذِكْرِهِ، وَفَنَاؤُهُ عَنْ

---

[٣٨٨] سورة القصص: ١٠.

أَنْ يُدْرِكَهَا أَوْ يَشْهَدَهَا. وَإِذَا قَوِيَ هَذَا ضَعُفَ الْمُحِبُّ حَتَّى اضْطَرَبَ فِي تَمْيِيزِهِ، فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ مَحْبُوبُهُ، كَمَا يُذْكَرُ: أَنَّ رَجُلاً أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْيَمِّ، فَأَلْقَى مُحِبُّهُ نَفْسَهُ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَنَا وَقَعْتُ، فَمَا أَوْقَعَكَ خَلْفِي؟ قَالَ: غِبْتُ بِكَ عَنِّي فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِي، وَ هَذَا الْمَوْضِعُ زَلَّ فِيهِ أَقْوَامٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ اتِّحَادٌ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ يَتَّحِدُ بِالْمَحْبُوبِ حَتَّى لا يَكُونَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ فِي نَفْسِ وُجُودِهِمَا، وَهَذَا غَلَطٌ؛ فَإِنَّ الْخَالِقَ لا يَتَّحِدُ بِهِ شَيْءٌ أَصْلاً، بَلْ لا يَتَّحِدُ شَيْءٌ بِشَيْءٍ إلا إذَا اسْتَحَالا وَفَسَدَا وَحَصَلَ مِنْ اتِّحَادِهِمَا أَمْرٌ ثَالِثٌ لا هُوَ هَذَا وَلا هَذَا، كَمَا إذَا اتَّحَدَ الْمَاءُ وَاللَّبَنُ، وَالْمَاءُ وَالْخَمْرُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَلَكِنْ يَتَّحِدُ الْمُرَادُ وَالْمَحْبُوبُ وَالْمَكْرُوهُ وَيَتَّفِقَانِ فِي نَوْعِ الإِرَادَةِ وَالْكَرَاهَةِ، فَيُحِبُّ هَذَا مَا يُحِبُّ هَذَا. وَيُبْغِضُ هَذَا مَا يُبْغِضُ هَذَا، وَيَرْضَى مَا يَرْضَى، وَيَسْخَطُ مَا يَسْخَطُ، وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِي، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِي، وَهَذَا الْفَنَاءُ كُلُّهُ فِيهِ نَقْصٌ. وَأَكَابِرُ الأَوْلِيَاءِ، كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ: لَمْ يَقَعُوا فِي هَذَا الْفَنَاءِ فَضْلاً عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ مِنْ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَعْدَ الصَّحَابَةِ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ مِمَّا فِيهِ غَيْبَةُ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ لِمَا يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ أَحْوَالِ الإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا أَكْمَلَ وَأَقْوَى وَأَثْبَتَ فِي الأَحْوَالِ الإِيمَانِيَّةِ مِنْ أَنْ تَغِيبَ عُقُولُهُمْ، أَوْ يَحْصُلَ لَهُمْ غَشْيٌ أَوْ

صَعْقٌ أَوْ سُكْرٌ أَوْ فَنَاءٌ أَوْ وَلَهٌ أَوْ جُنُونٌ. وَإِنَّمَا كَانَ مَبَادِئُ هَذِهِ الأُمُورِ فِي التَّابِعِينَ مِنْ عُبَّادِ الْبَصْرَةِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُغْشَى عَلَيْهِ إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ: كَأَبِي جهير الضَّرِيرِ، وزرارة بْنِ أَوْفَى قَاضِي الْبَصْرَةِ. وَكَذَلِكَ صَارَ فِي شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ مَنْ يَعْرِضُ لَهُ مِنْ الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ مَا يَضْعُفُ مَعَهُ تَمْيِيزُهُ حَتَّى يَقُولَ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ الأَقْوَالِ مَا إِذَا صَحَا عَرَفَ أَنَّهُ غَالَطَ فِيهِ، كَمَا يُحْكَى نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ مِثْلِ أَبِي يَزِيدَ (يعني البسطامي) وَأَبِي الْحُسَيْنِ النُّورِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الشِّبْلِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ. بِخِلافِ أَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ، بَلْ وَبِخِلافِ الْجُنَيْد وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ كَانَتْ عُقُولُهُمْ وَتَمْيِيزُهُمْ يَصْحَبُهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ، فَلا يَقَعُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِهِ، بَلْ الكُمَّلُ تَكُونُ قُلُوبُهُمْ لَيْسَ فِيهَا سِوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَعِنْدَهُمْ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ مَا يَشْهَدُونَ الأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، بَلْ يَشْهَدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ مُدَبَّرَةً بِمَشِيئَتِهِ، بَلْ مُسْتَجِيبَةً لَهُ قَانِتَةً لَهُ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهَا تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى وَيَكُونُ مَا يَشْهَدُونَهُ مِنْ ذَلِكَ مُؤَيِّداً وَمُمَدّاً لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إخْلاصِ الدِّينِ وَتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لَهُ وَالْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ. وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْقُرْآنُ وَقَامَ بِهَا أَهْلُ تَحْقِيقِ الإِيمَانِ والكُمَّل مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَنَبِيُّنَا ﷺ إِمَامُ هَؤُلاءِ وَأَكْمَلُهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ وَعَايَنَ مَا هُنَالِكَ مِنْ الآيَاتِ، وَأُوحِيَ

إِلَيْهِ مَا أُوحِيَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُنَاجَاةِ، أَصْبَحَ فِيهِمْ وَهُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ وَلا ظَهَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، بِخِلافِ مَا كَانَ يَظْهَرُ عَلَى مُوسَى مِنْ التَّغَشِّي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ»[٣٨٩].

وفي إطار هذا المفهوم برر شيخ الإسلام كثيراً من الشطحات التي تصدر عن بعضهم في هذه الحال، كما مر بنا، فقال: «وَفِي هَذَا الْفَنَاءِ قَدْ يَقُولُ: أَنَا الْحَقُّ أَوْ سُبْحَانِي أَوْ مَا فِي الْجُبَّةِ إلا اللَّهُ... وَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ يَقَعُ السُّكْرُ الَّذِي يُسْقِطُ التَّمْيِيزَ مَعَ وُجُودِ حلاوَةِ الإِيمَانِ كَمَا يَحْصُلُ بِسُكْرِ الْخَمْرِ وَسُكْرِ عَشِيقِ الصُّوَرِ. وَكَذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ الْفَنَاءُ بِحَالِ خَوْفٍ أَوْ رَجَاءٍ كَمَا يَحْصُلُ بِحَالِ حُبٍّ فَيَغِيبُ الْقَلْبُ عَنْ شُهُودِ بَعْضِ الْحَقَائِقِ وَيَصْدُرُ مِنْهُ قَوْلٌ أَوْ عَمَلٌ مِنْ جِنْسِ أُمُورِ السُّكَارَى، وَهِيَ شَطَحَاتُ بَعْضِ الْمَشَايِخِ: كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَنْصِبُ خَيْمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ؛ وَقَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا غَيْرَ مَأْثُومٍ ... وَيَحْكُمُ عَلَى هَؤُلاءِ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذَا زَالَ عَقْلُهُ بِسَبَبٍ غَيْرِ مُحَرَّمٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ الْمُحَرَّمَةِ بِخِلافِ مَا إذَا كَانَ سَبَبُ زَوَالِ الْعَقْلِ وَالْغَلَبَةِ أَمْرًا مُحَرَّماً... وَكَمَا أَنَّهُ لا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فَلا يَجُوزُ الاقْتِدَاءُ بِهِمْ وَلا حَمْلُ كَلامِهِمْ وَفِعَالِهِمْ عَلَى الصِّحَّةِ بَلْ هُمْ فِي الْخَاصَّةِ مِثْلُ الْغَافِلِ وَالْمَجْنُونِ فِي التَّكَالِيفِ... وَفِي الْجُمْلَةِ

[٣٨٩] سورة القصص: ١٠.

فَهَذَا الْفَنَاءُ صَحِيحٌ، وَهُوَ فِي عيسوية الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِالصَّعْقِ وَالصِّيَاحِ الَّذِي حَدَثَ فِي التَّابِعِينَ»[٣٩٠]. لكنه لم يبرّر للحلاج قوله «أنا الحق» ولا شطحات محيي الدين بن عربي أو العفيف التلمساني، لأنه رأى في أشعارهم ما يدينهم، أما الشطحات في رأيه فتكون عارضة يتنكر لها قائله بعد صحوه، أما إذا أثبتها في شعره فإن ذلك يعني ثباته عليها، وقد يكون لديه مقاصد غير واضحة الدلالة لمن لم يتعمق فيها، ويكثر ذلك عند محيي الدين بن عربي، وسبق أن بينّا ذلك.

---

[٣٩٠] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ص٣٣٩ - ٣٤١.

الحلاّج

الحسين بن منصور، تلك الشخصية المثيرة للجدل؛ بين الصوفية والمنكرين من جهة، وبين المسلمين والملاحدة من جهة أخرى، ويمثل هو ومحيي الدين بن عربي وأبو العلاء المعري وغيلان الدمشقي رباعية عُني بأقوالهم ونتاجهم المستشرقون وأعداء الإسلام من داخله وخارجه، وعظّموا مكانتهم ونوّهوا بهم وبنتاجهم وأشاروا على تلامذتهم بدراسته، ليستغل الملاحدة نتاجهم في الطعن في الإسلام، فأشعار المعري يُحتَجُّ بها على العدمية وبطلان الأديان، ومع أن المعري تاب في أواخر عمره، ورجع إلى الله تعالى، إلا أن بعضهم يحاول إنكار هذه التوبة إما للطعن في الإسلام والأديان من خلال أقواله السابقة، كونه من كبار الفلاسفة والمفكرين الأفذاذ الذين طبّل لهم المستشرقون كثيراً، فيؤكدوا أنه بقي على اعتقاده حتى آخر عمره، وهذا فعل الملاحدة، وإما للطعن في شخصه كرها لما سبق منه من إلحاد، ويشهد بتوبته قوله:

يا مَنْ يَرى مَدَّ البَعوضِ جناحَها ... في ظُلْمةِ الليلِ البهيمِ الأَلْيَلِ
ويرى مَناطَ عروقِها في نَحرِها ... والمُخَّ في تِلكَ العِظامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تابَ عَن فَرَطاتِهِ ... ما كانَ مِنْه في الزّمانِ الأوّلِ

وقد أثبت نسبة هذه الأبيات إليه ابن كثير، والقرطبي، وابن أيدمر في «الدر الفريد»، وزعم بعضهم نسبتها إلى الزمخشري الذي أوردها في «الكشاف» عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[٣٩١]، إلا أن ذلك يرده قول الزمخشري في السياق: «وأنشدت لبعضهم» وذكر الأبيات، وبذلك قال اليافعي وابن خلكان، وأثبتها للمعري كل من الطيبي والجاربردي والتفتازاني في حواشيهم على «الكشاف»، لكن الملاحدة يصرون على أنه لم يؤمن بإله ولا بصحة دين.

وأما محيي الدين بن عربي فأقواله التي تناولها ابن تيمية على ظاهرها بلا تأول، وخصوصاً مصطلح «وحدة الوجود» الذي يستخدمه الفلاسفة الملحدون بالمعنى الذي يقصدونه لا بمفهوم الصوفية، فيحتج بها الملاحدة على بطلان الحقيقة الإلهية القائمة على التوحيد، ويزعمون أن ابن عربي بعد تبحره في الدين والبحث والفكر وصل إلى هذه الحقيقة فتكلم بكلامهم.

وغيلان بن مسلم الدمشقي الذي كان قدرياً، يحتجون به على القمع الديني في الإسلام، متناسين جرائم محاكم التفتيش

---

[٣٩١] سورة البقرة: ٢٦.

المسيحية، ويعتقد الملاحدة أنه وصل إلى مرحلة الإلحاد، لكنه أخفى إلحاده خوفاً من القتل، وأن إنكاره للقدر إنما كان يخفي وراءه إنكاره للمُقدِّر سبحانه. مع أن غيلان كان يعتقد أن الخير فقط من الله، أما الشر فمن المخلوقات وليس بتقدير الله، فهو مؤمن بالله وبأن الخير يأتي منه، لكنهم تأولوا كلامه كما يريدون واتخذوا من قتله ذريعة لاتهام الإسلام بالقمع. وهذا كله ناقشناه في كتاب «القمع في الإسلام - حقائق مغيبة» لكن ارتباط الحلاج بالتصوف دفعنا إلى بحث مشكلته، وجاء ذكر هؤلاء معه لبيان عناية المستشرقين والملاحدة بهم.

أما الحلاج، فقد حاول بعضهم نسبته إلى التيارات الباطنية، معتمدين على الظن المجرد، من خلال الفهم الظاهري لكلامه، والصواب أنه يحسب على التيار الصوفي من حيث المنهج على الأقل، إن لم يكن من حيث الانتماء. والمدرسة الصوفية تلزم المريد اتخاذ شيخ، لكي يأمن تلبيس إبليس عليه بما يشبه الكرامات وبالخواطر والظنون، أو حتى بالتلبيس عليه برؤية الحق سبحانه وتعالى، ويروون من ذلك قصصاً، منها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية: «أن الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ فِي حِكَايَتِهِ الْمَشْهُورَةِ حَيْثُ قَالَ: كُنْت مَرَّةً

فِي الْعِبَادَةِ فَرَأَيْت عَرْشاً عَظِيماً وَعَلَيْهِ نُورٌ، فَقَالَ لِي: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنَا رَبُّك، وَقَدْ حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَى غَيْرِك. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ! اِخْسَأْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ. قَالَ: فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُّورُ وَصَارَ ظُلْمَةً، وَقَالَ يَا عَبْدَ الْقَادِرِ نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِك فِي دِينِك وَعِلْمِك وَبِمُنَازَلاتِك فِي أَحْوَالِك. لَقَدْ فَتَنْت بِهَذِهِ الْقِصَّةِ سَبْعِينَ رَجُلاً. فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ عَلِمْت أَنَّهُ الشَّيْطَانُ؟ قَالَ بِقَوْلِهِ لِي: حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَى غَيْرِك. وَقَدْ عَلِمْت أَنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لا تُنْسَخُ وَلا تُبَدَّلُ، وَلأَنَّهُ قَالَ أَنَا رَبُّك وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ أَنَا اللَّهُ الَّذِي لا إلَهَ إلا أَنَا»[٣٩٢]. وزاد بعضهم في تبيين تفاصيل القصة أن الشيطان حين فشل في إضلاله بهذا الأسلوب لم يضيع الفرصة فأراد إضلاله بالعجب، فقال له: «نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِك فِي دِينِك وَعِلْمِك وَبِمُنَازَلاتِك فِي أَحْوَالِك» فعرف الشيخ مقصده، فقال له: بل بفضل الله أيها الخبيث!

ومعارض تلبيس إبليس على جميع الفرق، ومنهم الصوفية، كثيرة، لذا كان قادة الفكر الصوفي يركزون على أن يتخذ المريد شيخاً يرجع إليه في ما يعرض له من عوارض قد يظنها كرامات وفتوحاً، في حين أنها تلبيس شيطاني، وأطلقوا مقولة: «من لا شيخ له

[٣٩٢] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١، ص١٧٢.

فشيخه الشيطان»، أي أن الشيطان سيقعد له مقعد الشيخ في نفسه فيوسوس له ويدخل الخلل في عقيدته أو منهجه أو فكره. وهنا لنا أن نتساءل: من كان شيخ الحلاج؟

لم تثبت المصادر التاريخية أنه كان له شيخ، وقد زعم بعضهم أن شيخه سهل التستري، وذكر ابن الجوزي أن شيخه أبو بكر الأنصاري، في حين ذكر آخرون أن شيخه الجنيد البغدادي، إلا أن ذلك لم يصح، وإن كان الحلاج يتردد على مجالس الجنيد فلم يكن يأتي بصفة التلميذ أو المريد، وإنما كان يأتي بصفة الندّ، قال السلمي: بلغني أن الحلاج وقف على الجنيد، فقال: أنا الحق. فقال الجنيد: بل أنت بالحق، أي خشبة تفسد؟!(سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج١٤ ص٣٣٠.) وفسّر بعضهم كلام الجنيد بأنه يعني خشبة النفاق في قوله تعالى في المنافقين: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾[٣٩٣]، ورأى آخرون، منهم يوسف زيدان، أن الجنيد تنبأ للحلاج بأنه سيصلب [٣٩٤]، لأن الكلام الذي قاله كُفرٌ يحل به دمه. فلم يكن الجنيد شيخَه، ولم يكن الحلاج يأخذ عن الجنيد، وقد تحقق ما ظنه الجنيد في ما بعد فصلب الحلاج على خشبة.

---

[٣٩٣] سورة المنافقون، ٤.

[٣٩٤] https://youtu.be/8C5flDfZWwI

لقد سلك الحلاج طريق التصوف منفرداً بلا جماعة ولا شيخ، فلُبِّس عليه ما لُبِّس على كثير من أضرابه، فقال: «أنا الحق»، وقد قال الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله فيه: «ينقلون عن الحلاج أنه قال أنا الحق! أخطأ بوهمه، لو كان على الحق ما قال أنا الحق! يذكرون له شعراً يوهم الوحدة، كل ذلك ومثله باطل، ما أراه رجلاً واصلاً أبداً، ما أراه شرب، ما أراه حضر، ما أراه سمع إلا رنة أو طنيناً، فأخذه الوهم من حال إلى حال، من ازداد قرباً ولم يزدد خوفاً فهو ممكور»[٣٩٥]. فالمعنى أنه لم يحضر شهود عالم الروح ولم يشرب ماء اليقين، ولو كان ذلك لقَدَرَ اللهَ حقَّ قدْرِه وغابت ذاته وتلاشت فلم يبق في وجوده «أنا»، ويوضح قوله: «ما أراه سمع إلا رنة أو طنيناً» أنه وقع في التلبيس.

لم يكن الحلاج تابعاً لمدرسة، ولم يكن هو لمن بَعدَهُ مدرسة، وإن زعم المستشرقون أن من مدارس التصوف «الاتحادية» ويمثلهم ابن عربي، و«الحلولية» ويمثلهم الحلاج، فهذا محض افتراء وتأصيل لوهم لنشره بين المسلمين، فالحلاج عاش في تصوفه الخاص الذي خلط بين هدى المنهج وضلال التلبيس، ووصل إلى حال اختلاط لم تكن جذباً، وإنما هي ضرب من التخبط، حتى إنه دخل المسجد،

---

٣٩٥ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٣٦.

كما يروي شيخ الاسلام العز بن عبد السلام: «قال عبد الكريم بن عبد الواحد: دخلت على الحسين بن منصور (الحلاج) في مسجد، وحوله جماعة، فكان أول ما قاله في كلامه: لو يُلقى مما في بطني ذرة على جبال لذابت، وإني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار، ولو كنت في الجنة لهدمتها. ودخل يوماً جامع المنصور ببغداد، وقال: أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا مني حديثاً. فاجتمع عليه خلق كثير، منهم محب ومنكر، فقال: اعلموا أن الله قد أباح لكم دمي فاقتلوني. فبكى القوم، فتقدم إليه عبد الودود بن سعد الزاهد وقال: يا شيخ، كيف نقتل رجلاً يصلي ويصوم ويقرأ القرآن؟ فقال: يا شيخ، المعنى الذي يحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن، فاقتلوني تؤجروا وأستريح، فتكونوا أنتم مجاهدين، وأكون أنا شهيداً. ثم ذهب، فتبعته إلى داره وقلت: يا شيخ، ما معنى هذا؟! قال: يا بني، ليس للمسلمين شغل أهم من قتلي قياماً بالحدود ووقوفاً مع الشريعة، فإن من تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود[٣٩٦]. يقول العز: فقلت في معنى ذلك:

أَبـاحَ دمـي إذ بـاحَ قـلـبي بحُـبِّهـا   وَحَلَّ لها في حُكمها ما استَحَلّتِ

[٣٩٦] زبد خلاصة التصوف، للعز بن عبد السلام، ص١١٦، ١١٧.

وما كنتُ ممّن يُظهر السّرَّ إنّما عَروسُ هَواها في ضَميري تَجلّتِ
فإن أكُ من سُكري شَطَحْتُ فإنني حَكمتُ بتمزيقِ الفؤادِ المفتّتِ

وفيها يتأول قول الحلاج الذي قتل بسببه «أنا الحق»، فيقول:

أنا الحقُّ في عِشقي كما أنَّ سيّدي هُو الحقُّ في حُسنٍ بغيرِ مَعيّةِ

فقد كان الحلاج يضطرب في حيرته، فقلبه مؤمن ونفسه في مهب الوساوس والتلبيس، ففقد الطمأنينة وصار يطلب الموت ليستريح، هكذا بكل صراحة مفعمة بالرغبة في الخلاص «اقتلوني تؤجروا وأستريح».

وهذا من «السكر بسبب لا فعلَ للعبد فيه»، الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، وأكد أن «القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم»، وقد يدخِل قول الحلاج في هذا الباب، قال بعض الصوفية إن الحلاج عاش حال سكر غلبت عليه كما غلبت على عدد من أمثاله، لكن الله ثبتهم بوجود مشايخ يوجهونهم، ولم يكن للحلاج شيخ، حتى ذاع بين الناس أمره وانتشر خبره ولصقت به تهمة الزندقة لقوله «أنا الحق»، بين ظان به ادعاء الألوهية، وآخر يرى قوله ادعاء اتحاد أو حلول، فلم يكن هناك بد من الحكم عليه بحكم الشرع وهو القتل بتهمة الزندقة، وقد قال له الجنيد: « لقد

فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك» . ومعنى كلام الجنيد أنه تعامل مع فتوى قتله بظاهر الشرع وترك أمر قلبه لله سبحانه، فهو وحده العالم بما تكن القلوب، ولو أنه تُرك كما تُرك قبله عبد الله بن سبأ، وممثل دور الزاهد العابد التقي حمدان قرمط، فربما كان من أمره ما كان من أمرهما، إذ تَركا وراءهما فتنة ما تزال قائمة إلى يومنا هذا . فإن لم تكن وراءه فتنة فإنه يفتح باباً للزنادقة، فتظهر جماعات تتكلم بالهرطقات والتشبيه والحلول والاتحاد والتجسيم، فإن عورضوا قالوا قصدنا كقصد الحلاج، فتأولوا معنى كلامنا كما تأولتم معنى كلامه. ففي كل الأحوال فإنه فتح في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسه،

ويظن عدد من المستشرقين وكثير الملاحدة الذين يتداولون قصة الحلاج في إسقاطاتهم الشعرية أو القصصية أنه كان ملحداً أخفى إلحاده بمقولات مبطنة، ليوهموا قرّاءهم بأنه سار في رحلة البحث عن الحقيقة الإلهية فوجدها وهماً فلا حقيقة لوجود إله، فخاف أن يصرح بما وصل إليه فقال كلاماً مبطناً يمكن تأوله بغير ظاهره، ولا يفهم حقيقته أحد سواهم، إذ يظنون أنفسهم أهل الفكر ومعرفة الحقيقة، ويكذّب ظنونهم ويفنّد أوهامهم أن الحلاج طلب من الناس بلسانه أن يقتلوه، وقال لهم إنهم إن قتلوه يكونون قد طبقوا شرع

الله، وهو سيكون شهيداً، فاعترف بشرع الله، وكيف يكون شرع من غير شارع له؟ ودليل آخر هو قصة قتله التي رواها العز بن عبد السلام، فقال: «لما أتي بالحلاج ليصلب فرأى الخشب والمسامير ضحك ضحكاً كثيراً، ثم نظر في الجماعة، فرأى أبا بكر الشبلي، فقال: يا أبا بكر، أمعك سجادة (للصلاة)؟ قال: بلى. قال: فافرشها لي. ففرشها، فتقدم وصلى، فقرأ في الأولى الفاتحة وبعدها ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقةُ المَوتِ...﴾[٣٩٧]. ثم ذكر أشياء، فكان ما حفظ عنه: «اللهم بحق قيامك بحقي وبحق قيامي بحقك، وقيامي بحقك يخالف قيامك بحقي، لأن قيامي بحقك ناسوتية، وقيامك بحقي لاهوتية، مع أن ناسوتيتي مُستهلَكة في لاهوتيتك غير ممازِجةٍ إياها، ولاهوتيتك مُستولِية على ناسوتيتي غير مماثِلة لها، أسألك أن توفقني لشكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ؛ حيث كشفت لي عن مطالع وجهك، وحرّمت على غيري ما أبحتَ لي من النظر في مكنونات سرك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرّباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما

---

[٣٩٧] سورة آل عمران، ١٨٥.

ابتليتُ، فلك الحمد في ما تفعل، ولك الحمد في ما تريد». ثم تقدم أبو الحارث السياف، فلطمه لطمة هشم وجهه وأنفه، فصاح الشبلي ومزق جبّته، وغُشي عليه وعلى أبي الحسن الواسي وجماعة من المشايخ المشهورين»[٣٩٨].

والحقيقة أن الرمز الصوفي أمر لا يُحمل على ظاهر المعنى كعموم المصطلحات اللغوية، ولا المجاز فيه كالمجاز الأدبي المعروف، وإنما له خصوصية تشبه في كنهها رؤية الطفل للقمر فيمد يده ليتناوله، قال السمعاني: «كان عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيهٌ صالحٌ ديّنٌ خيّرٌ، كثيرُ الذكر، دائمُ الفكر، سريعُ الدمعة، تفقّه على المخرّمي، وصحب الشيخ حماداً الدباس، وكان يسكن بباب الأزج في مدرسة بنيت له، مضينا لزيارته، فخرج وقعد بين أصحابه، وختموا القرآن، فألقى درساً ما فهمت منه شيئاً، وأعجب من ذا أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس، فلعلهم فهموا لإلفهم كلامه وعبارته»[٣٩٩] وهناك من حاول الدخول فيها مثل د. عبد الكريم اليافي، وآخرون حاولوا وضع معجم للمصطلحات الصوفية، لكن يبدو أنه من الصعب فهمها على من لم يعايش تلك

---

[٣٩٨] زبد خلاصة التصوف، للعز بن عبد السلام، ص١١٥.

[٣٩٩] سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٢٠، ص٤٤١.

الأحوال، أو يبلغ درجات الوجد والشهود وعين اليقين، فهذا الشيخ عبد القادر الجيلاني المشهود له بالعلم والصلاح واستقامة العقيدة يقول:

وَكَمْ سَائِلٍ عَنْ سِرِّ لَيْلَى رَدَدْتُهُ ... بِعَمْيَاءَ مِن لَيلى بِغَيْرِ يَقِينِ

يَقُولونَ حَدِّثْنا فَأَنْتَ أَمِينُها ... وَما أَنا إِنْ حَدَّثْتُهُمْ بِأَمِينِ

فالحلاج - كما نرى - مؤمن مسلم، لكنه وصل إلى حال لم يحتملها، فلُبِّست عليه حاله، فاضطرب، وبلغ به الوجد والألم مبلغاً جعله يقول إنه لو دخل النار لأحرق النار! وعرف خطأه وضاق به احتمال ما به، فدعا الناس إلى قتله: «فاقتلوني تؤجروا وأستريح، فتكونوا أنتم مجاهدين، وأكون أنا شهيداً»، ولو لم يكن مؤمناً بالله لما صلى ركعتين، وهي سنة القتل، سنها الصحابي خبيب رضي الله عنه حين قتله المشركون بعد أسره يوم بئر معونة؟ والكلام الذي قاله يوم صلبه كلام ينم عن إيمان عميق وتسليم مطلق، ودعاؤه الذي عذر فيه صالبيه فاستغفر لهم: «وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرّباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما

ابتليتُ بما ابتليت»، فبلاؤه كان أعظم من صبره ولم يكن أكبر من طاقته. ولأئمة التصوف في مقتله قولان:

الأول: قول الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: لو كنت بينهم لحكمت عليه بما حكموا عليه.

والثاني: قول العز بن عبد السلام رحمه الله: لو كنت بينهم لتأوّلت كلامه ومنعت عنه القتل.

لقد قُتل الحلاج في الظاهر زنديقاً، وربما يكون عند الله صديقاً، لكننا لنا الظاهر، أما البواطن فعلمها عند الله، فسد برأسه ثغرة فتحها في الإسلام، ويبقى صدى كلماته: «مع أن ناسوتيّتي مُستَهلَكةٌ في لاهوتِيَّتِكَ غيرَ مُمازِجةٍ إياها، ولاهوتِيَّتَكَ مُسْتولِيةٌ على ناسوتِيَّتي غيرَ مُماثِلةٍ لها» يرن في أفق الفكر مؤكداً أنه لم يتوهّم اتحاداً ولا حلولاً ولا وحدةَ الوجود الفلسفية ولا مماثلةً بين الخلق والخالق.

التصوف الرّباني والتصوف البشري

قال إخواني السلفيون: ما علمناه من أحوال الصوفية الأوائل، وما بلغنا من أقوالهم، يختلف عمّا نجده في صوفية اليوم، فأولئك كان مقصدهم الله سبحانه، فاسمه على ألسنتهم، وحضوره في قلوبهم، وهو حديثهم بين جلاسهم، يجتهدون في السير إليه، لا يذكرون غيره ولا يشتغلون بسواه، أما صوفية اليوم فكل حديثهم عن حب النبي ﷺ لا عن سيرته وسنته، وعن مشايخهم وكراماتهم لا عن حِكَمِهم ومناهجهم، حتى أناشيدهم لا تسمع فيها شوقاً إلى لقاء الله سبحانه ولا تشويقاً، ولا ذكراً لحبه عز وجل، وإنما عن حب النبي ﷺ، وتعظيم مشايخهم، بل إن شوقهم إلى قبر النبي وليس إلى ذاته ﷺ، مع أن زائر القبر لا يرى مَن فيه، فلا تَبُلُّ شوقَه رؤيتُه، كما أنهم بالغوا في النبي ﷺ وفي مشايخهم، حتى قال البوصيري:

فَإِنَّ مِنْ جُوْدِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتها   وَمِنْ عُلُوْمِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

وقد صدق إخواني السلفيون في ما قالوا، وأنا - بعد أن بدأت هذا المبحث - نمت، فرأيتني في المنام أشتغل بالكتاب وأقول: «لا أغطّي أمراً بان نقصه»، فلما استيقظت قلت كذلك سأفعل، إن شاء الله.

منذ نحو ألف عام، قال أبو القاسم القشيري، رحمه الله: «ثم اعلموا، رحمكم الله، أن المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم، ولم

يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أمّا الخِيامُ فَإنَّها كَخِيامِهِمْ وَأرى نِساءَ الحَيِّ غَيْرَ نِسائِها

حصلت الفترة (الفتور والتراخي) في هذه الطريقة... لا، بل اندرست الطريقة، بالحقيقة: مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقَلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء»[٤٠٠]. فإذا كان هذا منذ ألف عام في زمن القشيري وأمثاله من الأئمة، فكيف بنا اليوم؟ لقد طرأ على التصوف ما طرأ على غيره من مناهج التربية والمسالك الأخلاقية، في غياب الأئمة الحقيقيين الذين يجمعون بين الفقه والسلوك، وظهور مشايخ جهلة لا يعرفون من التصوف إلا الأناشيد وقليلاً من الأذكار، فكان دأبهم المحافظة على مكانتهم الاجتماعية والتفاف أكبر عدد من المريدين حولهم، فتحول الأمر إلى عداوات بين أتباع الطرق، بل وبين أبناء الطريقة الواحدة، حتى إني سمعت الشيخ عادل الأمين رحمه الله، يقول: «لقد مزَّقوا الطريق! مزَّقهم الله». وماذا سيُخَرِّج هؤلاء المشايخ الجهلة سوى نماذج تمثلهم، وحتى الأئمة الذين جمعوا بين الفقه والتصوف (الشريعة والحقيقة) باتوا يعانون في اختيار خلفائهم من بين مريديهم، إذ استولى على كثير منهم حظ النفس والرغبة في المشيخة وظنهم أنهم أولى من غيرهم بهذه المهمة، التي أصبحت في

---

٤٠٠ الرسالة القشيرية، للقشيري، ص١٩.

عصرنا - مثلها مثل كل المسؤوليات - تشريفاً لا تكليفاً، مع أن السابقين كانت لهم نظرة أخرى، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سيد القوم خادمهم» يعني أن الخليفة أو الوالي أقيم لخدمة الناس لا التسلط عليهم، وقال أهل التصوف: «الشيخ مطيّة المريد» أي أنه الوسيلة التي تحمل المريد في سلوكه إلى الحق تعالى. فقلَّ العلم وانتشر الجهل، وركن الناس إلى السماع، مع أن الجنيد كان يمنع السماع عن السالك في أول الطريق، وباتت ثقافة الغالبية الحديث في الكرامات ومقامات المشايخ، ومع أن ثمة مجلس ذكر وعلم، إلا أن مجلس العلم لا علاقة له بالتصوف، وإنما يكون غالباً في تفسير آيات من القرآن الكريم أو الإجابة على مسائل فقهية، ولا يكون للتربية الصوفية فيه مكان، ولو سئل بعض الشيوخ عن مسائل في التصوف لما استطاع الإجابة غالباً، هذا عند الفقهاء، أما غير الفقهاء فصاروا يتكلمون بالحقائق التي سمعوا عنها ولم يدركوها، فتجده يتكلم في «قلوب عرشية» و «أرواح سماوية» و«نفوس مطمئنة» وما إليها، وهو لا يعرف أبجديات التصوف. ولا ننكر أن ثمة علماء صادقين، لكنهم في الغالب مهمّشون، لأن خلافة طريق التصوف في الغالب صارت وراثة، لا تعتمد على علم ولا فكر، وهذا ما أنكره الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله، فقال: «أي حبيبي... تظن أن هذه الطريقة تورث من أبيك، تسلسل من جدك، تأتيك

باسم بكرٍ وعمروٍ، تُصَرُّ لك في وثيقة نسبك»[٤٠١]، وما ذلك التوريث إلا لأجل الدنيا، ولو كان لأجل الطريق لاختير له الأصلح لا الأقرب نسباً، وأول من خلف النبي ﷺ أبو بكر، لا عليٌّ ولا العباسُ، رضي الله عنهم أجمعين. فإن بلغ أحدُ المشايخِ العلماءِ العارفين الخلافةَ بدأت حوله الدسائس والوشايات والمطاعن، وما ذلك إلا منازعة له على الصدارة، لذلك كان معظم هؤلاء يتجنبون ذلك حرصاً على عدم وقوع إخوانهم في الطريق في حبائل الشيطان، فيتصدى لها من لا يعرف قدرها ولا يدرك عظم مسؤوليتها وحساسيتها، فهمُّه أن يتصدر، وهو لا يرى التكاليف أكثر من قراءة آيات من القرآن الكريم، ثم قراءة تفسيرها من أحد كتب التفسير، ثم مجلس سماع، وحلقة ذكر، ثم ادعُ لنا يا شيخ فلان... ومريدو هذا الصنف من المشايخ تصوُّفهم شكليٌّ، إلا من اجتهد منهم وقرأ وواصل سيره إلى الله من طريق الكتب، فمشايخهم لا يعرفون شيئاً أكثر من توجيههم بكثرة الصلاة على النبي ﷺ، أما السلوك والسير إلى الله فلا علم لهم به. وهذا النوع من التصوف بشري وليس ربانياً، فالسعي فيه إلى التواصل الروحي مع المشايخ أو مع الحضرة المحمدية، فتكون لهم منامات وخواطر ومبشرات جيدة وبعضها صحيح، لكنها لا ترقى إلى المستوى الصوفي في مناهج السلوك، ولا

---

[٤٠١] البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٥٠.

في قصد السير إلى ملك الملوك.

أما البوصيري، فقصيدته الميمية من روائع الشعر، وقد ارتبطت بشفائه من الفالج، بعد أن رأى في منامه النبي ﷺ يكسوه بردته ويأمره بالمشي، فاستيقظ معافىً يمشي، ولا ريب أن مثل حاله هذه تولد شحنة عاطفية قوية تجعله يخطئ من شدة الفرح، كما في المثال الذي ذكره النبي ﷺ عن الرجل الذي أخطأ من شدة الفرح فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»! فقال الرجل قصيدته، وفيها:

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِمِ   وَاحكُمْ بما شِئْتَ مَدْحاً فيهِ واحْتَكِمِ

تحرّزاً من تجاوز نهي النبي ﷺ: ﴿لا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فإنَّما أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾[402]، فظن أن أي شيء يقال غير تأليهه ﷺ جائز، فأدرج فيها البيت الذي انصبت عليه الاعتراضات:

فَإِنَّ مِنْ جُوْدِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتها   وَمِنْ عُلُوْمِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

وما ندري هل بقي البوصيري على إيمانه هذا، أم أنه تراجع عنه، ونحن إذ نعترض فإنما نعترض على الشطر الأول من البيت، أما الثاني فله دليله في حديث النبي ﷺ: ﴿أتاني الليلة ربي - تبارك وتعالى - في أحسن صورة - قال: أحسبه قال: في المنام - فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. قال:

---

[402] صحيح البخاري برقم: ٣٤٤٥.

فوضع يده بين كتفيّ، حتى وجدت بردها بين ثدييّ، فعلمت ما في السموات، وما في الأرض...»[٤٠٣]، وإذ إن اللوح والقلم في السماوات، فلا ريب أن من يعلم ما في السماوات فإن اللوح والقلم يكونان من علمه بالضرورة، أما الشطر الأول: فَإِنَّ مِنْ جُوْدِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَها

فإن مضمونه يتعارض مع الآية الكريمة: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾[٤٠٤]، فالدنيا وضرتها (الآخرة) هما مما في السماوات وما في الأرض، فهما لله تعالى بصريح الآية، وسيدنا محمد ﷺ هو مما في السماوات والأرض، فهو مملوك لا مالك، والتخريج الوحيد للشطر انه قاله في دفقة عاطفية غالبة، كما حصل لعمر بن الخطاب رضي الله عنها عند موت النبي ﷺ، فقد غلبه الحزن وهيمنت عاطفته على وعيه: «ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات»[٤٠٥] فهل أصاب عمر في قوله؟ لا، ولكنه

---

٤٠٣ سنن الترمذي، برقم ٣٢٣٣، ٣٢٣٤، ومسند أحمد برقم٣٤٨٤، وقال الألباني: صحيح.
٤٠٤ سورة الأنعام: ١٢.
٤٠٥ الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، ص٤٧٠.

الحب وقسوة الخبر على العقل، فتكلمت العاطفة، لكن عمر رضي الله عنه تراجع عن كلامه هذا حين قرأ أبو بكر الصديق قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٤٠٦]**. فلو جاء اليوم أحد وزعم أن النبي ﷺ سيرجع، وأسند القول إلى عمر بن الخطاب فإنه يكون صادقاً في النقل مدلّساً في الاستشهاد، لأن عمر تراجع عن هذا القول بعد أن ثبت له خطؤه بمدلول الآية، وعليه يقاس كلام البوصيري، فقد ثبت خطؤه بمدلول الآية، فإن تراجع عنه فقد لزم الحق، أما من يقول بكلامه هذا فحكمه حكم من يستدل بقول عمر على رجوع النبي ﷺ، وهذا من المفاهيم التي يجب أن تصحح عند إخواني الصوفية، مع مجمل ما يحتاج إلى تصحيح مما يعتقده ويعمل به «المتصوفة» ويُحسب على «الصوفية» الذين يسيرون إلى الله سبحانه، ويوقنون بقوله تعالى:** ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[٤٠٧]**، ويسعون إلى الترقي في منازل السائرين إلى مرتبة وحدة الشهود، التي لا يشهد فيها وجوداً لنفسه ولا لنبي ولا لملك، فلا وجود إلا لله تعالى. ولو تيسّر لهؤلاء علماء**

---

٤٠٦ سورة آل عمران: ١٤٤.

٤٠٧ سورة مريم: ٩٣.

يرشدونهم ويوجهونهم ويشرفون على سلوكهم، علماء ربانيون كعلماء بلاد الشام من الصوفية العارفين من أمثال الشيخ عبد الرحمن حبنّكة الميداني، والشيخ عبد الرحمن الشاغوري، والشيخ أحمد الحبال، والشيخ عبد الله سراج الدين، والشيخ عبد القادر عيسى، والشيخ محمد عدنان السقّا، والشيخ عبد الكريم الرفاعي، ومشايخ مصر من أمثال الشيخ الزكي محمد إبراهيم، وتلميذه الشيخ محمد المهنا، ومشايخ المغرب من أمثال الشيخ مصطفى البحياوي، ومشايخ الحجاز مثل الشيخ محمد بن علوي المالكي، وأمثال هؤلاء من الراسخين في العلم الذين جمعوا بين الفقه والتصوف، وأمثال هؤلاء الأئمة الأفاضل المنتشرين في كل البلاد الإسلامية، لتغيرت حالهم وصح سلوكهم وبات سيرهم إلى الله عز وجل وحده، لا يرون غيره ولا يريدون سواه، ولما رأينا هذه الاتهامات التي تُوجَّه إلى التصوف وتستشهد بأحوال المتصوفة لإدانته، وعموماً فإننا نلحظ بوادر صحوة صوفية حقيقية بعد انتشار الكتب ومحاضرات المشايخ العارفين، نسأل الله تعالى أن ينفع بهم الصوفية ويعيد المتصوفة إلى الطريق الصحيح، وأن ينفع بهم الإسلام والمسلمين.

آداب جهالة وإذلال

يقول علوي بن عبد القادر السقاف، في موقع «الدرر السنية»: «وقد وضع المتصوفة آداباً أوجبوها على المريد والسالك في الطريق الصوفي، وأهم هذه الآداب، نقول - تجاوزاً - آداب، وإنما هي في الحقيقة جهل وانحلال وعبودية وإذلال:

١- لا تخالف الشيخ مطلقاً في ما يأمرك به. هذا هو المبدأ الأول والشرط الأول والأدب الأول للمريد، وأن تكون موافقة الشيخ بالقلب والجوارح، فلا إنكار ولا مخالفة لشيء مما يقوله مطلقاً، ولا اعتراض عليه بلسان أو بقلب، وشعارهم دائماً: «كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي الغاسل»! يقول القشيري (في الرسالة) في بيان ما يجب على المريد: «وألا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه، لأن الخلاف للمريد في ابتداء حاله دليل على جميع عمره. ومن الأقوال يُقصد بها بالطبع إماتة القلب واستسلامه للدواهي والمصائب التي سيتلقاها المريد في طريقه الصوفي. وإليك طائفة من الأقوال والحكايات الصوفية التي يراد من ورائها في النهاية استسلام المريد لشيخه ليعبث بعقله وقلبه كيف شاء»[٤٠٨].

ويستشهد الشيخ علوي السقاف بقصة: «يقول أحمد بن المبارك: (في الإبريز): سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول جاء بعض المريدين

---

٤٠٨ موقع الدرر السنية، موسوعة الفرق، المبحث الثالث: آداب المريد.

لشيخ عارف فقال له يا سيدي القبول لله عز وجل. قال: نعم، ثم أمره بالمقام عنده والعكوف على خدمته وأعطاه مسحاة في رأسها كورة حديد زائدة لا نفع فيها إلا تثقيل المسحاة، وكان المريد هو وارث الشيخ بشرط ألا ينتبه لكورة الحديد المذكورة فإن انتبه وقال ما فائدتها، ولأي شيء تصلح، ولا معنى لها إلا التثقيل فإنه لا يرث شيئاً. قال رضي الله عنه فبقي في خدمته سبع سنين وهو يخدم بالفأس ولا يتحرك له عرق وسواس ولا هزته عواصف رياح الشيطان وصارت الكورة المذكورة بمنزلة العدم الذي لا يرى ولا يسمع فهذه مسألة الصادقين الموفقين رضي الله عنهم والله تعالى الموفق.

فانظر كيف يكون المريد (الصادق) في زعمهم مع شيخه. إنه الذي ينفذ ما يأمره به الشيخ ولا يسأله عنه بتاتاً ولو كان شيئاً غير معقول المعنى ولا فائدة أصلاً منه، ككرة الحديد هذه التي كانت في رأسها المسحاة (الفأس)»[٤٠٩].

ولا ريب أن الشيخ علوي يعرف منهج السابقين في الضَّنِّ بالعلم فلا يجعلونه مشاعاً لكل من أراد، وذلك لعلمهم بنفاسة بضاعتهم، فلا يعطونها لطالبٍ ما لم يتأكدوا من حرصه على العلم وأن طلبه إياه ليس تقضية للوقت أو طلباً للشرف والشهرة، فكانوا يعمدون إلى اختبار الطالب بالطاعة والتضييق عليه في نوع من الغربلة

---

[٤٠٩] موقع الدرر السنية، موسوعة الفرق، المبحث الثالث: آداب المريد.

ليستمر من يثبت ويمضي من يسقط، وما ذكره السقاف غيض من فيض، ولهم في ذلك أساليب كثيرة، فقد أعزّوا العلم وإن كان على حساب مصالحهم، وهذه بعض النماذج:

الفراهيدي: الخليل بن أحمد، رحمه الله، فلتة من فلتات الزمان في العلم والزهد، كان يعيش في خصٍّ (بيت من خشب) من أخصاص البصرة، وتلاميذه يأكلون بصحاف الذهب على موائد الأمراء ببغداد، فكان يقال له: لو ذهبت إلى بغداد (العاصمة) فإن علمك هناك نافق! فيقول: «العلم يؤتى ولا يأتي»! فالفراهيدي يقصد أن من أراد العلم عليه أن يسافر إلى أهله ويرتحل في طلبه.

الإمام مالك بن أنس: أدى هارون الرشيد فريضة الحج ثم ذهب إلى المدينة، وأراد أن يرى مالكاً، الذي سمع عن علمه ونبوغه الكبير، فأرسل من يستقدمه، فقال الإمام مالك للرسول: قل لأمير المؤمنين: الطالب يسعى إلى العلم، والعلم لا يسعى إلى أحد! فطلب منه الرشيد إخلاء المجلس له، فأبى مالك، فأذعن الخليفة وزاره في بيته وجلس بين طلابه يستمع.

الأعمش: قال أبو إسحق الحويني: «وقد كان الأعمش يؤدب تلاميذه أدباً ما نعرفه عن كثير من المشايخ، كان يذلّهم إذلالاً في طلب الحديث، وكان عَسِراً جداً فما يكاد يعطي واحداً حديثاً إلا

بشق الأنفس، حتى إن واحداً سأله سؤالاً فكلح وَجْهُهُ، فقال له: والله لقد علمناك كالحَ الوجهِ إذا سُئلت حديثاً كأنما تُنتَزعُ روحك! مع أن الأعمش من المتقنين، يعني: أحاديثه كثيرة جداً في دواوين الإسناد، فلم يكن على عُسرٍ في الحقيقة، وإلا لو كان عَسِراً ما حفظنا عنه كل هذه الأحاديث، لكن كان إذا رآهم مقبلين على الحديث تمنّع عليهم، حتى إذا كان فيهم مستكبر أو من يظن نفسه ابن أمير أو وزير فسيقول: أيظن أنه يذلنا؟ فينصرف، ومثل هذا لا يفلح، فهو كان يعالج فيهم الكِبْرَ بهذا الإذلال. حتى إن رجلاً ذات مرة جاءه - وهذا الراوي: كان يبكي في تذكره، لأنه كان إماماً كبيراً - وقال له: يا أبا محمد! حديث كذا وكذا؛ ما إسناده؟ فأخذه من حلقه ورجزه في الحائط وقال: هذا إسناده، فما قال الرجل: الأعمش هذا سيئ خلق، والمشايخ غيره كثير، وكان بدل الأعمش ألوف؛ لكنهم كانوا يريدون الأعمش لعلو سنده وثقته وضبطه. وذكر الخطيب في شرف أصحاب الحديث عن الأعمش مقالات كثيرة جداً، وخص الأعمش بالذات بهذا الكم، فذكر من ضمن ما ذكر أنه اشترى كلباً لأصحاب الحديث، حتى إذا جاؤوا واقتربوا من الباب أطلق عليهم الكلب، فيتفرقون، وهم في كل ذلك لا يكلّون ولا يملّون، أي: ليس إذا رأوا الكلب يعتبرون ذلك اليوم عطلة، لا، وإنما إذا دخل الكلب الدار رجعوا مرة أخرى، فإذا خرج

الكلب عليهم فروا مرة أخرى وهكذا، حتى دخلوا عليه ذات يومٍ وإذا بالكلب غير موجود، فلما رآهم الأعمش بكى، فقالوا له: ما يبكيك يا أبا محمد؟! قال: قد مات الذي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (الذي هو الكلب)! وذات مرة كان يمشي في جنازة - وكان الأعمش كفيفاً رحمه الله - فأخذه رجلٌ من أصحاب الحديث، وقال: أصاحبك يا أبا محمد!، فصحبه، لكنه أخذه وانحرف به عن طريق الجنازة، وطبعاً كان هناك صمت فلم ينتبه الأعمش أنه خرج من طريق الجنازة، فما زال يمشي ويمشي حتى قال له الرجل: يا أبا محمد! أتدري أين أنت؟ قال له: لا. قال له: أنت في جبانة كذا وكذا، والله لا أردك البلد حتى تملأ ألواحي حديثاً، فقال له: اكتب، فكتب! فقال: حدثني فلان عن فلان عن فلان حتى ملأ الألواح، وهذا الذي لا يستطيع أن يأخذ حديثاً من الأعمش، فأخذ منه هذه الأحاديث كلها، فرجع به، والأعمش متغيظٌ عليه، وهو يعلم ماذا سيفعل الأعمش به إذا رجع إلى الدار، فدفع الألواح لأول صاحبٍ لقيه في الطريق، فلما ذهب إلى الدار قال: وصلت إلى الدار يا أبا محمد! فأمسك بعنقه، وقال: خذوا الألواح من الفاسق! فقال: لقد مضت الألواح يا أبا محمد؟ فقال له: كل ما حدثتك به كذب! قال ذلك كي يزهّده فيها، فقال له: أنت أعلم بالله من أن تكذب. فكان عسراً جداً رحمه الله. فهذا كان يربّي تلاميذه،

وكان تلاميذه يجلسون فما يستطيع الواحد منهم أن يتنفس، فلو تكلم رجل في الحلقة فإنه يوقف مجلس التحديث وينصرف، حتى إن رجلاً من الغرباء جاء وجلس بجانب الأعمش، وكان الأعمش يكره أن يجلس أحد بجانبه، ولكن الرجل لا يعرف أن العادة أنهم لا يجلسون بجانب الأعمش، فجلس، فأحس به الأعمش، فكان يقول: حدثنا فلان، ويبصق عليه، ومن حوله ينهونه أن يتحرك؛ لأنه لو قال للأعمش: ماذا تعمل؟ فسوف يوقف مجلس التحديث، فصبر على هذا حتى انتهى المجلس. فأي ذل أكثر من هذا؟! إنها تربية، فكان رحمه الله شديداً، والمربّي يحتاج في هذه المواضع إلى الشدة، حتى لا يفلت منه الحبل كما يقولون»[٤١٠]

فهل كان الأعمش رحمه الله، على رأي الشيخ السقاف «يقصد بها - بالطبع - إماتة القلب واستسلامه للدواهي والمصائب التي سيتلقاها المريد في طريقه... ويراد من ورائها في النهاية استسلام المريد لشيخه ليعبث بعقله وقلبه كيف شاء»؟ وقد قال «بالطبع» أي «الأكيد»، ولعله لم يبلغه خبر الأعمش وغيره، فهذا أبو إسحق الحويني ينفي ظن السقاف ويبرر للعلماء والمشايخ أسلوبهم هذا فيقول عن الأعمش: «كان إذا رآهم مقبلين على الحديث تمنّع

---

[٤١٠] دروس للشيخ أبي إسحاق الحويني، أبو إسحاق الحويني الأثري حجازي محمد شريف، ج٥، ص١٤٦، الموسوعة الشاملة.

عليهم، حتى إذا كان فيهم مستكبر أو من يظن نفسه ابن أمير أو وزير فسيقول: أيظن أنه يذلنا؟ فينصرف، ومثل هذا لا يفلح، فهو كان يعالج فيهم الكبر بهذا الإذلال... فأي ذل أكثر من هذا؟! إنها تربية فكان رحمه الله شديداً، والمربي يحتاج في هذه المواضع إلى الشدة، حتى لا يفلت منه الحبل كما يقولون».

وقد كانوا - قديماً - في الجامع الأزهر إذا جاءهم الطالب أخذوه في البداية إلى بستانٍ وقفٍ للأزهر، فأعطوه مسحاة مثقلة بكورة حديد، ويتركونه يعمل شهراً في البستان، فإن صبر أدخلوه في حلقات العلم، وإن انسحب ورجع إلى بلده علموا أنه لم يأت لطلب العلم وإنما جاء يريد السمعة أو الوظيفة في بلده.

هذا مع سالك طريق العلم، أما الطريق إلى الله فهو أعز وأنفس، فكان مشايخ الصوفية يسعون إلى احتواء من جاء يريد السير إلى الله مخلصاً، وعدم إضاعة الوقت والجهد مع من جاء يطلب الانتساب ولا يخرج من تحت أيديهم إلا بالدعوى، فكانوا يتخذون أساليبَ لِقمعِ شهوات النفس وكَسرِ حظوتها ومَحْقِ كبْرِها ونزعِ كل غاية من المريد سوى الله عز وجل، ومن ذلك أن يوسف إمري الذي كان قاضياً، لما أراد أن يتتلمذ على للشيخ تابدوك أعطاه ثوباً رثّاً وأوكل إليه تنظيف التكية وحجرات المريدين، وكان في البداية يستحيي من العمل في حين يمر به المريدون بثيابهم النظيفة

يحملون كتبهم، فكان يختبئ عند مرورهم به، عند ذلك أدرك أن التواضع ليس مجرد كلام يقال، وإنما ممارسة، فلما أمات نفسه وتابع سلوكه بلغ ما بلغ من العرفان والولاية، فالمشايخ لم يكونوا يعلِّمون فحسب، وإنما كانوا يربّون، وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ﴾[٤١١]، وطلبُ الله سبحانه أعز من طلب الجنة، فلا بد من نزع الكبر نهائياً من السالك إليه عز وجل وإماتة النفس. فكان لهم أساليبهم في التربية مما لا يخطر على قلب المريد أنه امتحان له، لكي يتصرف على سجيته وطبع نفسه الأصيل، فلا يتحالم الغضوب، ولا يدعي التواضع متكبر، ولا يمثِّل دور الأمين من في طبعه الخيانة، ومن ذلك أن مريداً تبع شيخاً، وكان يلح عليه أن يعلمه اسم الله الأعظم، والشيخ يقول له: اصبر، فلما كان بعد سنوات أرسل معه الشيخ طبقاً صغيراً مغطى، إلى شيخ آخر وقت الظهيرة، فأخذه، وفي الطريق قال لنفسه: ماذا يرسل شيخي إلى الشيخ فلان في هذا الطبق الصغير في وقت الظهيرة، فكشف الغطاء ليرى ما في الطبق وإذ بفأرة تقفز من الطبق وتفر، وليس في الطبق غيرها! فرجع إلى الشيخ وأعلمه بهربها، فقال له: يا بني! لم تؤتمن على فأرة، فكيف تؤتمن على اسم الله الأعظم؟!

[٤١١] صحيح مسلم، برقم ٩١.

أما الفهم الذي وجَّه إليه الشيخ السقاف وأنه لأجل: «إماتة القلب واستسلامه للدواهي والمصائب التي سيتلقاها المريد في طريقه الصوفي» فهو فَهْمٌ بعيد عن الحقيقة، وإنما يُقصَد به تجهّزهم واستعدادهم لتحمل البلاء والتعايش معه بالصبر، فقد سُئل رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَشَدُّ الناسِ بَلاءً؟ قال: الأَنْبياءُ. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: العلماءُ. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال الصَّالِحُونَ، وكان أحدُهُمْ يُبْتَلَى بِالقَمْلِ حتى يَقْتُلَهُ، ويُبْتَلَى أحدُهُمْ بِالفَقْرِ حتى ما يَجِدُ إلا العَباءَةَ يَلْبَسُها، وَلأحدُهُمْ كان أَشَدَّ فَرَحاً بِالبلاءِ من أَحَدِكُمْ بِالعَطَاءِ﴾[٤١٢]. فمن لم يتعود على القمل، ولم يعتد الفقر كيف يصبر عليهما، ولا بد من أحدهما أو غيرهما من الابتلاءات، كما بيَّن حديث النبي ﷺ؟ و﴿قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، والله إني لأحبك. فقال له: انظر ما تقول! قال: والله إني لأحبك؛ ثلاث مرات، قال: إن كنت تحبني فأعدَّ للفقر تجفافاً، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه﴾[٤١٣]. التجفاف: شيء من قماش أو لبد أو غيره يوضع على ظهر الدابة تحت السرج لامتصاص العرق. هذا في شأن من يحب النبي ﷺ، فكيف بمن يحب اللهَ تعالى ويسلك الطريق إليه؟! أليس كلامُه ﷺ أمراً بالاستعداد والتجهّز للفقر؟

---

[٤١٢] صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، برقم ٣٤٠٣.
[٤١٣] السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم: ٢٨٢٧.

هل الصوفية والرافضة وجهان لعملة واحدة؟

مرّ بنا هذا القول لبعض متشددي السلفية[٤١٤]، قاله بلا مرجعية ولا أدلة، وقد رَدَدْنا هذا الادعاء في موضعه وعرضنا بعض الأدلة، وهنا سنناقش المسألة بطريقة علمية، فلعل من قال بذلك أطلق حكمه من بعض التشابه الذي لا ينكر في جانب بين الطرفين.

بداية علينا أن نميز بين التشيع وبين الرفض، فهما ليسا كياناً واحداً. الشيعة: لغةً: «الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى وَاحِدٍ[٤١٥]. ووردت اللفظة في القرآن الكريم ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[٤١٦] بعد ذكر نبي الله؛ نوح عليه السلام.

فالتشيع لم ينشأ عقيدة أو منهجاً، وإنما كان منشؤه مناصرة أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين خرج عليه من خرج، وكان جُلُّ أنصاره من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين. واستمروا من بعده لمناصرة الحسن رضي الله عنه حين بويع خليفة إلى عام الجماعة (٤١هـ)، الذي تنازل فيه عن الخلافة لحقن دماء المسلمين وإنهاء التفرق، واتفق الطرفان على أن يكون الحسن هو الخليفة بعد معاوية، وهنا لم يعد ثمة شيعة، فكل

---

٤١٤ سبق بهامش رقم ١٠.

٤١٥ لسان العرب، لابن منظور.

٤١٦ سورة الصافات: ٨٣.

المسلمين صاروا في ظل خلافة معاوية مقرّين بها، فلما أُخرِجت الخلافة عن المبدأ الأصل «الشورى» وورثها يزيد بن معاوية إرثاً كما يورث الملك، مع وجود كبار الصحابة، وكان الحسن رضي الله عنه قد قُتِل غيلةً بالسم، خرج الحسين بن علي، رضي الله عنهما، على يزيد، فمن ناصره يُعَدُّ من الشيعة، «قالَ الأَزْهَرِيُّ: وَالشِّيعَةُ قَوْمٌ يَهْوَوْنَ هَوَى عِتْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَيُوَالُونَهُمْ»[٤١٧]. وبمقتل الحسين، رضي الله عنه، انتهى التشيع، ليظهر على أنقاضه «الرفض»، والفرق بين الرافضة والشيعة أن الرافضة، حين رفضوا إمامة من أجمع المسلمون على إمامتهم، خرجوا من التشيع، لأن علياً بايع أبا بكر رضي الله عنهما، وقد حرّضه أبو سفيان للخروج على أبي بكر وانتزاع الخلافة منه؛ «فزجره عليٌّ، رضي الله عنه، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً! لا حاجة لنا في نصيحتك»[٤١٨]، وبايع عليٌّ عمر رضي الله عنهما، وكان مستشاراً له، وحين بويع عثمان رضي الله عنه كان عليّ رضي الله عنه هو الذي سأل الصحابة واستشار الناس فيه، فقد أقرَّ رضي الله عنه بخلافتهم رضي الله عنهم، ولم يخالفهم ولا خرج عليهم، أما الرافضة فقد رفضوا من رضيهم عليٌّ وآل البيت، وبذلك خرجوا

---

[٤١٧] لسان العرب، لابن منظور.
[٤١٨] تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٣٧.

من مسمى «شيعة» إلى مسمى رافضة، وإن ادّعوا أنهم شيعة، فقد أسسوا لأنفسهم عقيدة شركية وديناً جديداً - وليس مذهباً - جمعوا فيه أشياء من المجوسية واليهودية والنصرانية والمانوية والمزدكية والزرداشتية، وأخرى من الإسلام، ونادوا بمحبة آل البيت، التي هي منهج كل المسلمين، عدا النواصب، ليستغلوا العاطفة الدينية عند العامة، بعد الذي تعرض له أهل بيت النبي ﷺ من القتل والمطاردة في العصرين الأموي والعباسي، ليسحبوهم إلى صفهم ويحشروا بقية المسلمين في زاوية «النواصب»، وللأسف فإن بعض علماء المسلمين منحوهم الفرصة بردود الفعل التي تدافع عن يزيد وتعد الحسين خارجاً على الخليفة المبايع، وهو ملك وارث وليس خليفة، وآخرون يقولون إن علياً ومعاوية متعادلان متساويان في ميزان واحد، فكلاهما صحابي، متغافلين عن قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[٤١٩]**، والآية لا تحتاج إلى شرح، لكن بعض العلماء في ذلك الوقت خافوا، والعامة طمعوا، وقد صرح بذلك الأحنف بن قيس: «لما نصّب معاوية ولده يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء، فجعل الناس يسلّمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع إلى معاوية فقال: يا**

---

٤١٩ سورة الحديد: ١٠.

أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تُوَلِّ هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس، فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر! فقال: أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف؛ فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب فقال له: يا أبا بحر، إني لأعلم أن الشركة المتعهدة من خلق الله سبحانه وتعالى لا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله تعالى وجيهاً»[٤٢٠]، حتى صار من يتكلم بحب آل البيت يُعَدُّ رافضياً، وبذلك اتُّهم الإمام الشافعي رحمه الله، فقال:

يا راكِباً قِف بِالُمحَصَّــبِ مِن مِنىً ... وَاهتِف بِقاعِدِ خَيفِها وَالناهِضِ

سَحَراً إِذا فاضَ الحَجيجُ إِلى مِنىً ... فَيضاً كَمُلتَطِمِ الفُراتِ الفائِضِ

إِن كانَ رَفضــاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَليَشـهَدِ الثَقَـلانِ أَنّي رافِـضي

فحُبُّ آل البيت وإجلالهم وتقديرهم ليس رفضاً، وإنما هو من صلب الدين وفيه آية كريمة ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٤٢١]، وفيه أكثر من حديث شريف: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي تارِكٌ فيكُم ما إن تمسَّكتُمْ بهِ لن تضلُّوا بَعدي أحدُهُما أعظَمُ منَ

---

٤٢٠ وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج٢، ص٥٠٠.

٤٢١ سورة الشورى: ٢٣.

الآخرِ: كتابُ اللَّهِ حَبلٌ ممدودٌ منَ السَّماءِ إلى الأرضِ. وعِترتي أَهْلُ بيتي، ولَن يتفرَّقا حتَّى يَرِدا عليَّ الحوضَ فانظُروا كيفَ تخلُفوني فيهِما﴾[٤٢٢]، والأمر في هذا الحديث لا يقف عند المحبة، بل وجوب التمسك بهم كما التمسك بالقرآن الكريم، فالقرآن نصٌّ، وهم تطبيق لهذا النص، فكيف خلفت الأمة نبيها ﷺ في أهل بيته؟ قاتلوا علياً ثم قتلوه غيلة، ودسوا السم للحسن فقتلوه غيلة، ورفضوا إعطاء الحسين الأمان واضطروه إلى القتال فقاتلوه وقتلوه! ثم يأتي من يمجّد قتلتهم ويتّهم من ينادي بمحبتهم بالرفض! أما النواصب فقد يظن بعضهم أن هذه التسمية أطلقها الرافضة على أهل السنة، وذلك ظنٌّ باطل، فقد أطلقه المسلمون على مبغضي آل البيت النبوي، فهذا الإمام الذهبي، رحمه الله، يصف به يزيد بن معاوية: «قلت: كان قوياً شجاعاً ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة، وله شعر جيد، وكان ناصبياً فظاً غليظاً جلفاً، يتناول المسكر ويفعل المنكر»[٤٢٣]، في حين يأتي معاصر فيصنّفه في «مئة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ»! وقبله قال أبو بكر بن العربي في الحسين رضي الله عنه: «وما خرج إليه أحد إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل، المخبر بفساد الحال، المحذر

---

٤٢٢ صحيح الترمذي، للألباني، برقم: ٣٧٨٨.
٤٢٣ سير أعلام النبلاء، للذهبي.

من الدخول في الفتن. وأقواله في ذلك كثيرة»[٤٢٤] وقد رد عليه ابن خلدون بقوله: «وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربيّ المالكيّ في هذا، فقال في كتابه الّذي سمّاه بـ«العواصم من القواصم» ما معناه: إنّ الحسين قتل بشرع جدّه، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومَن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!»[٤٢٥]. وعموماً ففي عصرنا لم يعد هناك نواصب، إذ انتهوا بانتهاء دولة بني أمية، وكذلك الشيعة انتهوا بمقتل الحسين رضي الله عنه، فلا شيعة بعد كربلاء، وأما من قصد محبة آل البيت وتقديمهم وإجلالهم فإنه مسلم قد طبّق أمر الله سبحانه ووصية رسوله ﷺ، فهذا شأن المسلمين جميعاً وليس مقصوراً على فئة دون أخرى، ومن أبغضهم أو بخسهم حقهم ومكانتهم فهو ناصبي، لا فرق بينه وبين الرافضي. فعلى أصل مفهوم التشيع فكل المسلمين شيعة، أما الذين يدّعون العصمة في آل البيت، أو أن الإمامة في الحسين وذريته رضي الله عنهم، سواء الاثني عشر أو أكثر أو أقل، فهم من مجمل الرافضة، وإن تسمّوا باسم الشيعة، لأن عقيدتهم منحرفة تبنى على مبدأ العصمة، ولا عصمة لغير الأنبياء، أما حصر الإمامة في ذرية الحسين رضي الله عنه فليس

---

[٤٢٤] العواصم من القواصم، لابن العربي، طبعة الأوقاف السعودية، ص٢٣٢.
[٤٢٥] تاريخ ابن خلدون، ج، ص٢٧١.

لأجله ولا لأجل أبيه، رضي الله عنهما، ولا لأجل جده ﷺ، وإنما لأجل أمهم زوجة الحسين رضي الله عنه السيدة زنان شاه بنت كسرى يزدجرد الفارسية، رحمها الله، إذ يعدّون ذريتها امتداداً للأسرة الساسانية، تجري في عروقهم الدماء النبيلة التي لها قدسية عند الفرس، إذ يعدونها مرتبطة بالآلهة، فكانت فرصة لهم أن يلبسوا هذه المسألة العرقية ثوب الإسلام، فهم يتعصبون لهم ويعدّونهم معصومين في الظاهر، أما في الباطن فيعدّونهم تجسّداً لله - سبحانه وتعالى عما يفترون - في جسد إمام الزمان من آل البيت الساساني لا المحمدي، ولذلك أخرجوا الحسن وأبناءه، رضي الله عنهم أجمعين، من دائرة الأئمة، مع أنه الشقيق الأكبر للحسين، أبوهما الإمام علي، وأمهما السيدة الجليلة فاطمة الزهراء، وجدهما سيد الخلق محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.

فلما التزم الرافضة محبة آل الحسين رضي الله عنهم، ملبّسين على العامة بذلك محبة آل البيت، وكان الصوفية أكثر الجماعات الإسلامية إظهاراً لمحبة أهل البيت والأمر بإجلالهم وتقديرهم، ظن بعضهم أن هذا التشابه بينهم وبين الرافضة يجعلهما وجهين لعملة واحدة، مثله في ذلك كمثل من يرى المسلمين يختتنون، ولا يأكلون لحم الخنزير، ولا الميتة، ويرى اليهود كذلك، فيقول إنهما وجهان لعملة واحدة! وهذا حكم باطل بني على أساس تشابه

بعض التشريعات، لكن الأصل هو اختلاف العقيدتين وأكثر التشريعات. فهل في مَن يزعمون أن التصوف والتشيع وجهان لعملة واحدة من يأتينا بقول لأحد أئمة الصوفية المعترف بهم يرفض خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم، أو ينكر فضلهم؟ وهل في الصوفية من يسيء إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها؟ وهل في الصوفية من يفرّق بين آل الحسين وآل الحسن؟ وهل في الصوفية من ينادي بإمامة أبناء الحسين رضي الله عنه وعنهم دون غيرهم؟ فعلام بنى الرجل مقولته؟ وكنا قد ذكرنا أدلة أخرى في الصفحات من ١١ - ١٤ من هذا الكتاب، لا حاجة إلى تكرارها، ومن أراد فليرجع إليها.

أما تفضيل آل البيت على غيرهم ممن ساواهم بسابقة الإسلام فلم يحصل عند الصوفية، فهم يفضلون عمر وعثمان على علي، رضي الله عنهم، مع أن علياً أسلم قبلهما! وما ذلك إلا لما جرت عليه الأمة، ولو كانت الأفضلية بالسبق لكان زيد بن حارثة رضي الله عنه قبل عمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، لأنه أسلم قبلهم، والسيدة الجليلة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وأرضاها أسلمت قبل الجميع، وقد مر بنا قول الشيخ أحمد الرفاعي، رحمه الله، أن أفضل الصحابة أبوبكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم

أجمعين[٤٢٦]، وعلى ذلك كل أئمة الصوفية، فضلاً على أن الصوفية في أصل منهجهم يتعلقون بالله تعالى لا بالخلق، أما محبة النبي ﷺ وكثرة الصلاة عليه ﷺ فليست منهجاً، وإنما هي تنفيذ أمر إلهي ووسيلة وقربة إلى الله، مثلها مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج، وبقية الطاعات والقربات، وفضائل الصلاة عليه ﷺ مشهورة في الأحاديث الصحيحة.

---

[٤٢٦] مقدمة هذا الكتاب، ص٩.

نحن أهل الحقيقة

يقول إخواني السلفيون: درج على ألسنة الصوفية قولهم: «نحن أهل الحقيقة وأنتم أهل الشريعة، نحن أهل الباطن وأنتم أهل الظاهر».

ولم نَرَ أثراً لهذه الحقيقة في سلوكهم ولا أحوالهم ولا معاملاتهم!

وقد صدق إخواني السلفيون في ما قالوا، لكن الحق أن الذين يتكلمون بهذا الكلام ليسوا من أهل هذه ولا تلك، وإنما هم «متصوفة» وليسوا «صوفية»، انتسبوا إلى التصوف بلا حقيقة، ارتدوا زي الفقراء وقلّدوا حركات الأولياء، على قلوب خاوية، فأهل الحقيقة لا يتكلمون إلا بالشريعة، والحقيقة عندهم حال خاصة بينهم وبين الله سبحانه، يعدونها سراً لا يبوحون به، وفي ذلك يقول شهاب الدين السهروردي:

وَارَحْمَتَا لِلعاشِقِينَ تَكَلَّفُوا   سِتْرَ المَحَبّةِ وَالهَوى فَضّاحُ
بِالسِّرِّ إنْ بَاحُوا تُباحُ دِماؤُهُمْ   وَكَذا دِماءُ البائِحينَ تُباحُ

فمن كان من أهل الحقيقة لا يبوح، وللشيخ أحمد الرفاعي، رحمه الله، كتاب اسمه: «حالة أهل الحقيقة مع الله»، لو قرأه أولئك المتنطّعون لفهموا معنى «الحقيقة» وأن أحداً لم يصل إليها إلا من طريق الشريعة. وقد حذر الشيخ الرفاعي أمثال هؤلاء من مثل هذا التنطع، فقال: «عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم شأن الأولياء والعرفاء، فإن الطريق واحد، وهؤلاء ورّاثُ ظاهر الشريعة

وحملة أحكامها، الذين يعلّمونها الناس، وبها يصل الواصلون إلى الله، إذ لا فائدة بالسعي والعمل على الطريق المغاير للشرع، ولو عبَد اللهَ العابدُ خمسمئة عام بطريقة غير شرعية فعبادته راجعة إليه ووزره عليه، ولا يقيم له الله يوم القيامة وزناً، وركعتان من فقيه في دينه أفضل عند الله من ألف ركعة من فقير جاهل في دينه، فإياكم وإهمال حقوق العلماء، وعليكم بحسن الظن فيهم جميعاً، وأما أهل التقوى منهم العاملون بما علَّمهم الله فهم الأولياء على الحقيقة، فلتكن حرمتهم عندكم محفوظة، قالوا: من عمل بما يعلم ورّثه الله علم ما لم يعلم. وقال ﷺ: ﴿وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ﴾[٤٢٧]، الدالون على طريق الحق هم سادات الناس وأشراف الخلق، لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة: نحن أهل الباطن وهم أهل الظاهر! هذا الدين الجامع باطنه لبُّ ظاهره، وظاهره ظرف باطنه، لولا الظاهر لما بطن، لولا الظاهر لما كان الباطن ولما صح؛ القلب لا يقوم بلا جسد، بل لولا الجسد لفسد، والقلب نور الجسد. هذا العلم الذي سماه بعضهم بعلم الباطن هو إصلاح القلب، فالأول عمل بالأركان وتصديق بالجنان، إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته وقتلتَ وسرقتَ وزنيتَ وأكلتَ الرّبا وشربتَ الخمرَ وكذبتَ وتكبّرتَ وأغلظتَ القولَ، فما الفائدة من نيّتك وطهارة قلبك؟ وإذا عبدتَ

---

[٤٢٧] صحيح أبي داود، للألباني، برقم: ٣٦٤١.

اللَّهَ وتَعففّتَ وصُمتَ وتَصدّقتَ وتواضعتَ، وأبطنَ قلبُك الرياءَ والفسادَ، فما الفائدة من عملك؟! فإذا تعين لك أن الباطنَ لبُّ الظاهر، والظاهرَ ظَرفُ الباطن، ولا فرق بينهما، ولا غنى لكليهما عن الآخر، فقُلْ: نحن من أهل الظاهر، وكأنك قلت من أهل الباطن، قل: نحن من أهل ظاهر الشرع، وقد ذكرت باطن الحقيقة، أيُّ حالة باطنة للقوم لم يأمر ظاهر الشرع بعملها؟ أيُّ حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشرع بإصلاح الباطن لها؟ لا تعملوا بالفرق والتفريق بين الظاهر والباطن؛ فإن ذلك زيغ وبدعة، لا تهملوا حقوق العلماء والفقهاء، فإن ذلك جهل وحمق، لا تأخذوا بحلاوة العلم وتبطلوا مرارة العمل، فإن تلك الحلاوة لا تنفع بغير تلك المرارة، وإن تلك المرارة تنتج الحلاوة الأبدية»[٤٢٨] فقد أخرج الشيخ الرفاعي، رحمه الله، القائلين بذلك من دائرة الصوفية، في قوله: «لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة»، وصنف ذلك القول بأنه «بدعة»، ومن يقول به «من أهل الزيغ». وحسبنا بهذا الشاهد من كلام وتوجيه أحد أكابر أئمة الصوفية.

---

٤٢٨ البرهان المؤيد، للرفاعي، ص٨٣ - ٨٥.

الاحتفال بذكرى المولد النبوي

قال إخواني السلفيون، دأب الصوفية على الاحتفال بذكرى المولد النبوي، وهذه بدعة لم يفعلها النبي ﷺ وأهل القرون الأولى، وإنما بدأها الفاطميون، وهم باطنية مخالفون لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ودرجت الأمة بعدهم على ذلك.

وهذا الكلام فيه صواب وفيه خطأ، فالأول أن النبي ﷺ ﴿سُئِلَ عن صَوْمِ يَومِ الإِثْنَيْنِ؟ قالَ: ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ، أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ﴾[٤٢٩]، وهذه إشارة إلى الاحتفاء بذكرى يوم ولادته من كل أسبوع، وشكر الله تعالى عليه بالتقرب بعبادة الصيام، ولم يحتفل النبي ﷺ ولا أصحابه به احتفالنا اليوم بذكرى موالدنا، وقد بحثنا موضوع البدعة، ولا نريد أن نعيد ما قلناه، والثاني أن الاحتفال بالمولد نسبه أهل العلم إلى غير الفاطميين العبيديين؛ «يذكر الإمام السيوطي، في كتابه (حسن المقصد في عمل المولد) أن أول من احتفل بالمولد بشكل كبير ومنظم هو حاكم أربيل (في شمال العراق حالياً) الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين. وقال ابن خلكان في ترجمة الحافظ أبي الخطاب ابن دحية: «كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، قدم من المغرب فدخل الشام والعراق واجتاز بأربل سنة أربع وستمئة، فوجد

---

[٤٢٩] صحيح مسلم، برقم: ١١٦٢.

ملكها المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعتني بالمولد النبوي، فعمل له كتاب «التنوير في مولد البشير النذير» ﷺ، وقرأه عليه بنفسه، فأجازه بألف دينار. وقال ابن كثير، في البداية والنهاية: كان الملك المظفر يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل به احتفالاً هائلاً، وكان مع ذلك شهماً شجاعاً بطلاً عاقلاً عالماً عادلاً. والمظفر وثقه علماء السنة، فقال السيوطي وابن كثير: إنه أحد الملوك الأمجاد والكبراء الأجواد، وكان له آثار حسنة، وهو الذي عمر الجامع المظفري بسفح قاسيون. وقال عنه الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: كان متواضعاً خيّراً سنيّاً يحب الفقهاء والمحدثين[٤٣٠]. وسنأخذ ما أحصي من آراء العلماء السابقين والمعاصرين في موضوع المولد:

«من السابقين:

السيوطي: عندي أن أصل عمل المولد، الذي هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن، ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبي ﷺ وما وقع في مولده من الآيات، ثم يُمدُّ لهم سماط يأكلونه وينصرفون، من غير زيادة على ذلك، هو من البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها؛ لما فيه من تعظيم قدر النبي ﷺ وإظهار الفرح

---

٤٣٠ موسوعة ويكيبيديا، المولد النبوي.

والاستبشار بمولده الشريف. (حسن المقصد في عمل المولد، للسيوطي.)

ابن الجوزي: من خواص المولد أنه أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام. (السيرة الحلبية، لعلي الحلبي، ج١، ص٨٣ - ٨٤)

ابن حجر العسقلاني: أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن السلف الصالح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرى في عملها المحاسن وتجنب ضدها كانت بدعة حسنة، وقد ظهر لي تخريجها على أصل ثابت، وهو ما ثبت في الصحيحين من أن النبي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون، ونجى موسى، فنحن نصومه شكراً لله، فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما مَنَّ به في يوم معين من إسداء نعمة، أو دفع نقمة... وأي نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبي ﷺ نبي الرحمة في ذلك اليوم، فهذا ما يتعلق بأصل عمله، وأما ما يعمل فيه: فينبغي أن يقتصر فيه على ما يُفْهِمُ الشكر لله تعالى، من نحو ما تقدم من التلاوة والإطعام والصدقة وإنشاد شيء من المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة. (حسن المقصد في عمل المولد، للسيوطي)

السخاوي: لم يفعله أحد من السلف في القرون الثلاثة، وإنما حدث بعدُ، ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ﷺ، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. (السيرة الحلبية، لعلي بن برهان الدين الحلبي، ج١، ص ٨٣-٨٤)

ابن الحاج المالكي: فكان يجب أن نزداد يوم الإثنين الثاني عشر في ربيع الأول من العبادات والخير شكراً للمولى على ما أولانا من هذه النعم العظيمة، وأعظمها ميلاد المصطفى ﷺ. (المدخل عن تعظيم شهر ربيع الأول، لابن الحاج، ج١، ص٣٦١)

ابن عابدين: اعلم أن من البدع المحمودة عمل المولد الشريف من الشهر الذي ولد فيه ﷺ... فالاجتماع لسماع قصة صاحب المعجزات، عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، من أعظم القربات، لما يشتمل عليه من المعجزات وكثرة الصلوات. (شرح ابن عابدين على مولد ابن حجر)

الحافظ عبد الرحيم العراقي: إن اتخاذ الوليمة وإطعام الطعام مستحب في كل وقت، فكيف إذا انضم إلى ذلك الفرحُ والسرورُ بظهور نور رسول الله ﷺ في هذا الشهر الشريف، ولا يلزم من كونه

بدعة كونه مكروهاً، فكم من بدعة مستحبة قد تكون واجبة! (شرح المواهب اللّدنّية، للزرقاني)

الحافظ شمس الدين ابن الجزري: قال السيوطي: ثم رأيت إمام القراء الحافظ شمس الدين ابن الجزري قال في كتابه (عرف التعريف بالمولد الشريف): قد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم، فقيل له: ما حالك؟ فقال: في النار، إلا أنه يخفف عني كل ليلة إثنين، وأمص من بين إصبعيَّ ماء بقدر هذا- وأشار لرأس أصبعه - وأن ذلك بإعتاقي لثويبة عندما بشرتني بولادة النبي وبإرضاعها له. فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جُوزِيَ في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به، فما حال المسلم الموحد من أمة النبي ﷺ يُسَرُّ بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته؟! لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله جنات النعيم (حسن المقصد في عمل المولد، للسيوطي، ص١٠)

الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي، قال في كتابه (مورد الصادي في مولد الهادي): قد صح أن أبا لهب يخفف عنه عذاب النار في مثل يوم الإثنين لإعتاقه ثويبة سروراً بميلاد النبي ﷺ، ثم أنشد:

إذا كانَ هَـــذا كافِرٌ جــاءَ ذَمُّـــهُ وَتَبَّتْ يَـداهُ في الجَحِـيمِ مُخَـلَّدا
أَتى أَنَّـــهُ في يَـــومِ الاِثْنَيْنِ دائِـــماً يُخَفَّفُ عَنْهُ لِلسُّـرورِ بِأَحْـــمَدا
فَما الظَّـــنُّ بِالعَبْدِ الَّذي طُولَ عُمْرِهِ بِأَحْمَدَ مَسْرورٌ وَمَاتَ مُوَحِّـــدا

أبو شامة (شيخ النووي): ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يُفعل كل عام في اليوم الموافق لمولده ﷺ، من الصدقات، والمعروف، وإظهار الزينة والسرور، فإن ذلك مُشعِرٌ بمحبته ﷺ، وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكرٌ لله تعالى على ما منّ به من إيجاد رسوله ﷺ، الذي أرسله رحمة للعالمين.

الشهاب أحمد القسطلاني (شارح البخاري): فرحم الله امرءاً اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشدَّ علةً على مَنْ في قلبه مرضٌ وإعياءُ داء. (المواهب اللدنية، ج١، ص١٤٨، طبعة المكتب الإسلامي)

من المتأخرين:

محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة ومن أبرز علماء المالكية: قال في كتابه (التحرير والتنوير): فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْمَوَاقِيتِ الْمَحْدُودَةِ اعْتِبَاراً يُشْبِهُ اعْتِبَارَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ الْمُتَجَدِّدِ، وَإِنَّمَا هَذَا اعْتِبَارٌ لِلتَّذْكِيرِ بِالأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ الْمِقْدَارِ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾(سورة إبْرَاهِيم: ٥)، فَخَلَعَ اللَّهُ عَلَى الْمَوَاقِيتِ الَّتِي قَارَنَهَا شَيْءٌ عَظِيمٌ فِي الْفَضْلِ أَنْ جَعَلَ لِتِلْكَ الْمَوَاقِيتِ فَضْلاً مُسْتَمِراً تَنْوِيهاً بِكَوْنِهَا تَذْكِرَةً لأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لأَجْلِهِ سُنَّةَ الْهَدْيِ فِي الْحَجِّ، لأَنَّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ابْتَلَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَأَظْهَرَ عَزْمَ إِبْرَاهِيمَ وَطَاعَتَهُ رَبَّهُ، وَمِنْهُ أَخَذَ الْعُلَمَاءُ تَعْظِيمَ الْيَوْمِ الْمُوَافِقِ لِيَوْمِ وِلادَةِ النَّبِي ﷺ.

حسنين محمد مخلوف شيخ الأزهر: إن إحياء ليلة المولد الشريف وليالي هذا الشهر الكريم، الذي أشرق فيه النور المحمدي، إنما يكون بذكر الله وشكره لما أنعم به على هذه الأمة من ظهور خير الخلق ﷺ إلى عالم الوجود، ولا يكون ذلك إلا في أدب وخشوع وبُعدٍ عن المحرمات والبدع والمنكرات. ومن مظاهر الشكر على حبه مواساة المحتاجين بما يخفف ضائقتهم، وصلة الأرحام، والإحياء بهذه الطريقة، وإن لم يكن مأثوراً في عهده ﷺ، ولا في عهد السلف الصالح، إلا أنه لا بأس به، وسنة حسنة. (فتاوى شرعية وبحوث إسلامية، لحسنين محمد مخلوف، ج١، ص١٣١)

محمد الفاضل بن عاشور، من علماء تونس: إن ما يملأ قلوب المسلمين في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول كل عام، من ناموسِ المحبة العُلْوي، وما يهزّ نفوسهم من الفيض النوراني المتدفق جمالاً وجلالاً، ليأتي إليهم محمّلاً من ذكريات القرون الخالية بأريج طيب ينمّ عما كان لأسلافهم الكرام من العناية بذلك اليوم التاريخي الأعظم، وما ابتكروا لإظهار التعلّق به وإعلان تمجيده من مظاهر الاحتفالات، فتتطلع النفوسُ إلى استقصاء خبر تلك الأيام الزهراء والليالي الغراء؛ إذ المسلمون - ملوكاً وسوقةً - يتسابقون إلى الوفاء بالمستطاع من حقوق ذلك اليوم السعيد. (ومضات فكر، لمحمد الفاضل بن عاشور، ص ١٩٩)

محمد الشاذلي النيفر، شيخ الجامع الأعظم في تونس: إِنّ اللَّهَ أَوْجَبَ عَلَيْنَا مَحَبّةَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصّلاةُ وَالسّلامُ بَعْدَ مَحَبّتِهِ جَلّ وَعَلا، وَذَلِكَ يُوجِبُ عَلَيْنَا تَعْظِيمَ كُلِّ مَا يَتَعَلّقُ بِالنّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ يَوْمِ مَوْلِدِهِ بِالاحْتِفَالِ بِهِ بِمَا يُجِيزُهُ الشّرْعُ الكَرِيمُ. (مقالة: احتفاء وتذكير، لمحمد الشاذلي النيفر، صحيفة الرأي العام بتونس، ١٩- ٨ - ١٩٩٤)

محمد متولي الشعراوي: وإكراماً لهذا المولد الكريم، فإنه يحق لنا أن نظهر معالم الفرح والابتهاج بهذه الذكرى الحبيبة لقلوبنا،

كل عام، وذلك بالاحتفال بها من وقتها. (على مائدة الفكر الإسلامي، لمحمد متولي الشعراوي، ص٢٩٥)

محمد علوي المالكي: إننا نقول بجواز الاحتفال بالمولد النبوي الشريف والاجتماع لسماع سيرته ﷺ والصلاة والسلام عليه وسماع المدائح التي تُقال في حقه، وإطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب الأمة.

عبد اللّه بن بيه: فحاصل الأمر أن من احتفل به فسرد سيرته وذكّر بمناقبه العطرة احتفالاً غير ملتبس بأي فعل مكروه من النّاحية الشرعية، وليس ملتبساً بنيّة السنّة ولا بنيّة الوجوب، فإذا فعله بهذه الشروط، حباً للنبي ﷺ ففعله، لا بأس به إن شاء اللّهُ، وهو مأجور. (موقع ابن بيه: حُكمُ الاحتفال بالمولد النبوي).

نوح القضاة، مفتي الأردن سابقاً: ولا شك أن مولد المصطفى ﷺ من أعظم ما تفضل الله به علينا، ومن أوفر النعم التي تجلّى بها على هذه الأمة؛ فحق لنا أن نفرح بمولده ﷺ. (موقع دار الإفتاء الأردنية: خطبة جمعة بمناسبة المولد النبوي الشريف)

وهبة الزحيلي: إذا كان المولد النبوي مقتصرًا على قراءة القرآن الكريم، والتذكير بأخلاق النبي ﷺ، وترغيب الناس في الالتزام

بتعاليم الإسلام وحضّهم على الفرائض وعلى الآداب الشرعية، ولا يكون فيها مبالغة في المديح ولا إطراءٌ، كما قال النبي ﷺ: ﴿لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، ولكن قولوا عبد الله ورسوله﴾، فإذا كان هذا الاتجاه في واقع الأمر لا يُعد من البدع. (الجزيرة نت: حلقة البدعة ومجالاتها المعاصرة، مع الدكتور وهبة الزحيلي)

محمد بن عبد الغفار الشريف، الأمين العام للأوقاف في الكويت: الاحتفال بمولد سيد الخلق، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم، أمر مستحب، وبدعة حسنة في رأي جماهير العلماء. (موقع الدكتور الشريف، رقم الفتوى ٤٣١ في حكم المولد النبوي)

محمد راتب النابلسي: الاحتفال بعيد المولد ليس عبادة، ولكنه يندرج تحت الدعوة إلى الله، ولك أن تحتفل بذكرى المولد على مدى العام؛ في ربيع الأول وفي أي شهر آخر، في المساجد وفي البيوت. (موقع النابلسي: الدرس (٩٤-٩٥)، الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف؛ هل هو بدعة أم ماذا؟)

عبد الملك السعدي، المفتي العام للعراق سابقاً: لم يكن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف معروفاً في عصر الصحابة الكرام، ولكن لا يَلزم من عدم وجوده في عصر النبي ﷺ أو في عصر الصحابة كونه بدعة سيئة أو منافياً للشريعة، فالاحتفال بالمولد، إن أُقيم على

أساس أنّه عبادة مشروعة - كالصوم والصلاة والعبادات الأخرى - فهو بدعة. وكذا لا نسمِّيه عيداً، بل إحياء ذكرى؛ لأنّه لا يوجد سوى عيدين في الإسلام. وإن أقيم على أساس إحياء ذكرى مولد سيد المرسلين ﷺ، وإعادة ذكريات سيرته العطرة، وخلا من المنكرات واختلاط الرجال بالنساء والمبالغة في مدحه ﷺ فلا يعد بدعة. (موقع الأمة الوسط: مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف)»[٤٣١]

وقد صنّف عدد من العلماء السابقين والمتأخرين كتباً في جواز وصحة الاحتفال بالمولد النبوي، ومع كل هذه الفتاوى والمقالات والكتب، ومع أن هذا الاحتفال ليس خاصاً بالصوفية وإنما يشمل معظم فئات الأمة، فإن الخلاف يحيا بين المؤيدين والمعارضين كلما جاءت هذه الذكرى، فيتحول السرور بها إلى نزاع ومناكفات، ليبقى الشرخ قائماً بين طرفي الأمة؛ طرفٍ مُتَّهِم وآخر مُتَّهَم، ومعظم المتَّهِمين حجتهم: قال ابن باز وقال الألباني، ولا ندري ما الفرق بين «قال ابن باز» و«قال ابن حجر العسقلاني»؟ وما الفرق بين «قال الألباني» و«قال النابلسي»، ولماذا يؤخذ من ذاك ويرد على هذا، ولا يؤخذ من هذا ويرد على ذاك، وليس بينهم نبي يوحى إليه، وإنما هي اجتهادات وأدلة؟

---

[٤٣١] موسوعة ويكيبيديا، المولد النبوي.

الجواب إن المسألة عصبية محضة لشيخ أو لتيار، وقد أثمرت شقاقاً وعداوة وبغضاء، ووصلت إلى حد التكفير، وهي مسألة لا علاقة لها بالدين؛ فلا أحد أوجبها ولا أحد كفّر تاركها أو جاحدها، فكما تحتفل بذكرى ميلادك أو ميلاد ولدك أو ذكرى زواجك أو «يوبيل» مؤسستك، أو نجاح ولد، أو عودة غائب، أو ذكرى الجلاء أو التحرير أو أي مناسبة شخصية أو جَمْعِية أو وطنية، يمكنك أن تحتفل بذكرى مولد النبي ﷺ أو بعثته، أو ذكرى الانتصار ببدر، أو في حطين، أو عين جالوت، أو لا تحتفل مطلقاً، فلا مشكلة؟

ولكن أسوأ ثمرات هذا النزاع المتكرر سنوياً هو رد الفعل، فالقاعدة تقول: «لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة ومضاد له في الاتجاه»، فكانت الموالد تُقرأ فيها سيرة النبي ﷺ ويصلي عليه السامعون، فيثاب القارئ والسامع، ويستذكر الجميع سيرته ﷺ، يقول ابن القيم: «وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ، فيجِب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف مِنْ هَدْيِهِ وسيرتِهِ وشأنِهِ مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين به، ويدخل به في عِداد أتباعه وشِيعته وحِزبه. والناس في هذا بين مستقِلٍّ، ومستكثِر، ومحروم. والفضلُ بيد اللّه يُؤتيه من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم»[٤٣٢]، و«قال علي بن الحسين: كنا نُعلّم مغازي النبي ﷺ

---

٤٣٢ زاد المعاد، لابن القيم، ج١، ص٦٩.

كما نُعلّم السورة من القرآن»[٤٣٣]، لكن نتيجة هذه الضغوط وهذا التشنيع من المعارضين كانت ردّةَ الفعل هي المبالَغةُ في المدائح والاستكثار من الأناشيد، حتى صار الاحتفال بذكرى المولد عند كثير من المجتمعات مجرد سماع أناشيد وتناول الطعام أو الحلوى، ولا قراءة للسيرة ولا تذكير بما عاناه ﷺ حتى أوصل الدين إلينا كما أنزله الله، ولا موعظة تحث على السير على نهجه واتباع سنته ﷺ، فإن كان من قبلُ في الموالد شيء مما يعدونه بدعاً فقد أصبحت عند بعضهم كلها من هذا الصنف، ولو أن المعارضين تعاملوا مع المسألة بعقلانية خالية من التعصب، واغتنموا الفرصة للدعوة إلى الله تعالى، فحضروا هذه الموالد، ووعظوا، وأرشدوا، ووجهوا، ونبّهوا، وحذّروا، وحثّوا، وشرحوا، وبينوا، لكان خيراً لهم ولغيرهم وأنفع! قال بعض الدعاة: أنا مستعد أن أدخل خمارة لأدعوَ روّادها إلى الله! فقيل له: تدخل مكاناً نجساً وتنظر إلى الخمر بين أيديهم وأنت تعلم أن ناظرها ملعون! فقال: إذا كانوا لا يأتون إلى المساجد أو حلقات العلم، ولم نذهب نحن إليهم، فمتى تَبْلُغُهم رسالة الله؟ فقيل له: قد يؤذونك! فقال ذلك أدنى أن أموت شهيداً في سبيل الله.

---

[٤٣٣] البداية والنهاية، لابن كثير، ج٣، ص١٩١.

شهادات العلماء
في
التصوف ورجاله

ابن تيمية

يظن كثير من الصوفية ومن السلفيين الذين لم يقرؤوا لشيخ الإسلام ابن تيمية، أنه، رحمه الله، حارب الصوفية وكفّرهم، وهم إنما قرؤوا أو استمعوا إلى من ادّعوا الانتساب إلى شيخ الإسلام، ولم يأخذوا عنه فقهاً ولا فكراً، والصواب أن ابن تيمية حارب أهل الباطل وأهل الزيغ وأهل الضلال وأهل البدع وأهل الشركيات، أما من أخذ أو نادى بأقوال منها أو عمل بأعمال أصحابها وانتسب إلى التصوف فإن شيخ الإسلام ابن تيمية حسبه على أهلها، ولم يحسبه على الصوفية، وقد برّأ التصوف ممن انتسبوا إليه وليسوا من أهله، وقال في الثناء على أهل التصوف ما لم يقله كثير من العلماء المتماهين مع التصوف والموالين لأتباعه، وأكد ذلك في عدد من المواضع من كتبه، وقد مرت بنا أشياء من أقواله، سنذكّر بها، ونضيف إليها أقوالاً أخرى لم تمر بنا.

شهاداته في التصوف:

قال: «وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري... وهو (الصوفي) في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو

الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه»[٤٣٤].

وقال: «طائفة ذمت الصوفية، وطائفة غلت فيهم، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين»[٤٣٥].

وقال: «فَإِنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ مُتَّفِقُونَ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ فِي رَسَائِلِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ لا يَلْتَزِمُونَ حُكْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَفِيهِمْ السُّنِّيُّ وَالْبِدْعِيُّ... ثُمَّ هُمْ إمَّا قَائِمُونَ بِظَاهِرِ الشَّرْعِ فَقَطْ، كَعُمُومِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ فِي الْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْعِبَادِ الظَّاهِرِينَ فِي الْعِبَادَةِ. وَإِمَّا عَالِمُونَ بِمَعَانِي ذَلِكَ وَعَارِفُونَ بِهِ، فَهُمْ فِي الْعُلُومِ كَالْعَارِفِينَ مِنْ الصُّوفِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ. فَهَؤُلاءِ هُمْ عُلَمَاءُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَحْضَةِ، وَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَكْمَلُهُمْ وَأَقْوَمُهُمْ طَرِيقَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»[٤٣٦].

وقال: «فَإِنَّ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ، الَّتِي يُسَمِّيهَا بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ أَحْوَالاً وَمَقَامَاتٍ، أَوْ مَنَازِلَ السَّائِرِينَ إلَى اللَّهِ، أَوْ مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ، أَوْ غَيْرَ

---

[٤٣٤] ينظر ص٦١، ٦٢ من هذا الكتاب.

[٤٣٥] ينظر ص٦٤ من هذا الكتاب.

[٤٣٦] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢٠، ص ٦٣.

ذَلِكَ، كُلُّ مَا فِيهَا مِمَّا فَرَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهُوَ مِنْ الإِيمَانِ الْوَاجِبِ، وَفِيهَا مَا أَحَبَّهُ وَلَمْ يَفْرِضْهُ فَهُوَ مِنْ الإيمَانِ الْمُسْتَحَبِّ؛ فَالأَوَّلُ لا بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْهُ، وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ الأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَمَنْ فَعَلَهُ وَفَعَلَ الثَّانِيَ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بَلْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، بَلْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، وَمِثْلَ خَشْيَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ خَشْيَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَرَجَاءِ اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ رَجَاءِ الْمَخْلُوقِينَ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ، وَالإِنَابَةِ إلَيْهِ مَعَ خَشْيَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾[٤٣٧] وَمِثْلَ الْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضِ فِي اللَّهِ، وَالْمُوَالاةِ لِلَّهِ وَالْمُعَادَاةِ لِلَّهِ»[٤٣٨].

وقال: «وَقَرَأْت لِمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ، فِي كِتَابٍ سَمَّاهُ (التَّبْصِيرَ)، كَتَبَ بِذَلِكَ إلَى أَهْلِ طبرستان فِي اخْتِلافٍ عِنْدَهُمْ؛ وَسَأَلُوهُ أَنْ يُصَنِّفَ لَهُمْ مَا يَعْتَقِدُهُ وَيَذْهَبُ إلَيْهِ؛ فَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ اخْتِلافَ الْقَائِلِينَ بِرُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَذَكَرَ عَنْ طَائِفَةٍ إثْبَاتَ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَنَسَبَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ إلَى (الصُّوفِيَّةِ) قَاطِبَةً، لَمْ

---

[٤٣٧] سورة ق: ٣٢، ٣٣.

[٤٣٨] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٧، ص١٩٠.

يَخُصَّ طَائِفَةً. فَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى جَهَالَةٍ مِنْهُ بِأَقْوَالِ الْمُخْلَصِينَ مِنْهُمْ... وَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ (ألفاظ) الصُّوفِيَّةِ وَعُلُومَهُمْ تَخْتَلِفُ، فَيُطْلِقُونَ أَلْفَاظَهُمْ عَلَى مَوْضُوعَاتٍ لَهُمْ وَمَرْمُوزَاتٍ وَإِشَارَاتٍ تَجْرِي فِي مَا بَيْنَهُمْ، فَمَنْ لَمْ يُدَاخِلْهُمْ عَلَى التَّحْقِيقِ وَينَازَلَ مَا هُمْ عَلَيْهِ رَجَعَ عَنْهُمْ وَهُوَ خَاسِئٌ وَحَسِيرٌ. ثُمَّ ذَكَرَ إطْلاقَهُمْ لَفْظَ (الرُّؤْيَةِ) بِالتَّقْيِيدِ. فَقَالَ: كَثِيرًا مَا يَقُولُونَ رَأَيْت اللَّهَ يَقُولُ. وَذَكَرَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَوْلُهُ، لَمَّا سُئِلَ: هَلْ رَأَيْت اللَّهَ حِينَ عَبَدْته؟ قَالَ رَأَيْت اللَّهَ ثُمَّ عَبَدْته. فَقَالَ السَّائِلُ كَيْفَ رَأَيْته؟ فَقَالَ: لَمْ تَرَهُ الأَبْصَارُ بِتَحْدِيدِ الأَعْيَانِ؛ وَلَكِنْ رُؤْيَةُ الْقُلُوبِ بِتَحْقِيقِ الإِيقَانِ ثُمَّ قَالَ: وَإِنَّهُ تَعَالَى يُرَى فِي الآخِرَةِ كَمَا أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ وَذَكَرَهُ رَسُولُهُ ﷺ. هَذَا قَوْلُنَا وَقَوْلُ أَئِمَّتِنَا، دُونَ الْجُهَّالِ مِنْ أَهْلِ الْغَبَاوَةِ فِينَا»[٤٣٩].

وقال: «وَهَؤُلاءِ الْمُشْرِكُونَ الضَّالُّونَ يُسَوُّونَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ. وَالْخَلِيلُ يَقُولُ: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٤٤٠]، وَيَتَمَسَّكُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ كَلامِ الْمَشَايِخِ، كَمَا فَعَلَتْ النَّصَارَى. مِثَالُ ذَلِكَ اسْمُ (الْفَنَاءِ) فَإِنَّ الْفَنَاءَ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ: نَوْعٌ لِلْكَامِلِينَ مِنْ الأَنْبِيَاءِ

---

٤٣٩ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٥، ص٧٨، ٧٩.
٤٤٠ سورة الشعراء: ٧٥ - ٧٧.

وَالأَوْلِيَاءِ؛ وَنَوْعٌ لِلْقَاصِدِينَ مِنْ الأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ وَنَوْعٌ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُلْحِدِينَ الْمُشَبِّهِينَ. (فَأَمَّا الأَوَّلُ) فَهُوَ (الْفَنَاءُ عَنْ إرَادَةِ مَا سِوَى اللَّهِ) بِحَيْثُ لا يُحِبُّ إلا اللَّهَ. وَلا يَعْبُدُ إلا إيَّاهُ وَلا يَتَوَكَّلُ إلا عَلَيْهِ وَلا يَطْلُبُ غَيْرَهُ؛ وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُقْصَدَ بِقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي يَزِيدَ (يعني البسطامي) حَيْثُ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ لا أُرِيدَ إلا مَا يُرِيدُ. أَيْ الْمُرَادُ الْمَحْبُوبُ الْمَرْضِيُّ؛ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ، وَكَمَالُ الْعَبْدِ أَنْ لا يُرِيدَ وَلا يُحِبَّ وَلا يَرْضَى إلا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ وَأَحَبَّهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ؛ وَلا يُحِبُّ إلا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، كَالْمَلائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ»[٤٤١].

وقد برر شيخ الإسلام كثيراً من الشطحات، منها قول أبي يزيد البسطامي «ما في الجبة إلا الله»، وكذلك برر لمن يقول في فنائه «أنا الحق»، فقال: «وَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ يَقَعُ السُّكْرُ الَّذِي يُسْقِطُ التَّمْيِيزَ مَعَ وُجُودِ حلاوَةِ الإِيمَانِ كَمَا يَحْصُلُ بِسُكْرِ الْخَمْرِ وَسُكْرِ عَشِيقِ الصُّوَرِ. وَكَذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ الْفَنَاءُ بِحَالِ خَوْفٍ أَوْ رَجَاءٍ كَمَا يَحْصُلُ بِحَالِ حُبٍّ فَيَغِيبُ الْقَلْبُ عَنْ شُهُودِ بَعْضِ الْحَقَائِقِ وَيَصْدُرُ مِنْهُ قَوْلٌ أَوْ عَمَلٌ مِنْ جِنْسِ أُمُورِ السُّكَارَى، وَهِيَ شَطَحَاتُ بَعْضِ الْمَشَايِخِ: كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَنْصِبُ خَيْمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ، وَنَحْوِ

---

[٤٤١] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ص٢١٨.

ذَلِكَ مِنْ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ؛ وَقَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا غَيْرَ مَأْثُومٍ ... وَيَحْكُمُ عَلَى هَؤُلاءِ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذَا زَالَ عَقْلُهُ بِسَبَبٍ غَيْرِ مُحَرَّمٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ الْمُحَرَّمَةِ بِخِلافِ مَا إذَا كَانَ سَبَبُ زَوَالِ الْعَقْلِ وَالْغَلَبَةِ أَمْرًا مُحَرَّماً... وَكَمَا أَنَّهُ لا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فَلا يَجُوزُ الاقْتِدَاءُ بِهِمْ وَلا حَمْلُ كَلامِهِمْ وَفِعَالِهِمْ عَلَى الصِّحَّةِ بَلْ هُمْ فِي الْخَاصَّةِ مِثْلُ الْغَافِلِ وَالْمَجْنُونِ فِي التَّكَالِيفِ»[٤٤٢]. لكنه لم يبرّر للحلاج قوله «أنا الحق» ولا شطحات محيي الدين بن عربي أو العفيف التلمساني، لأنه رأى في أشعارهم ما يدينهم، أما الشطحات فتكون عارضة.

وقال: «ولهذا كان أئمة الهدى، ممن يتكلم في العلم والكلام، أو في العمل والهدى والتصوف، يوصون باتباع الكتاب والسنة وينهون عما خرج عن ذلك، كما أمرهم الله والرسول ﷺ، وكلامهم في ذلك كثير منتشر، مثل قول سهل بن عبد الله التستري: كل وَجْدٍ لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل»[٤٤٣].

وقال: «ليس أحد من أهل المعرفة بالله، يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به، وإن سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب، اختلقه

---

٤٤٢ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ص٣٣٩ - ٣٤١.

٤٤٣ الاستقامة، لابن تيمية، ج٢، ص١٤٩.

الأفاكون من الاتحادية المباحية، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية»[٤٤٤].

وقال، في موضوع التعلق بالصور: «ثُمَّ الصُّوفِيَّةُ الْمَشْهُورُونَ عِنْدَ الأُمَّةِ - الَّذِينَ لَهُمْ لِسَانُ صِدْقٍ فِي الأُمَّةِ - لَمْ يَكُونُوا يَسْتَحْسِنُونَ مِثْلَ هَذَا ؛ بَلْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَلَهُمْ فِي الْكَلامِ فِي ذَمِّ صُحْبَةِ الأَحْدَاثِ وَفِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْحُلُولِ وَبَيَانِ مُبَايَنَةِ الْخَالِقِ: مَا لا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهِ. وَإِنَّمَا اسْتَحْسَنَهُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ مِمَّنْ هُوَ عَاصٍ أَوْ فَاسِقٌ أَوْ كَافِرٌ، فَيَتَظَاهَرُ بِدَعْوَى الْوِلايَةِ لِلَّهِ وَتَحْقِيقِ الإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ، وَهُوَ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ لِلَّهِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَالْبُهْتَانِ»[٤٤٥].

وقال: «وَاتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُ لا يُكَفَّرُ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمُنَازِعِينَ فِي عِصْمَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَالَّذِينَ قَالُوا: إنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الصَّغَائِرُ وَالْخَطَأُ، وَلا يُقَرُّونَ عَلَى ذَلِكَ، لَمْ يُكَفَّرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ هَؤُلاءِ يَقُولُونَ: إنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ الإِقْرَارِ عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ كَفَرَ هَؤُلاءِ لَزِمَ تَكْفِيرُ كَثِيرٍ مِنْ الشَّافِعِيَّةِ، وَالْمَالِكِيَّةِ، وَالْحَنَفِيَّةِ، وَالْحَنْبَلِيَّةِ، وَالأَشْعَرِيَّةِ، وَأَهْلِ الْحَدِيثِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالصُّوفِيَّةِ: الَّذِينَ لَيْسُوا كُفَّارًا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ»[٤٤٦].

---

٤٤٤ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١١، ص٧٤، ٧٥.
٤٤٥ المصدر السابق، ج١٥، ص٤٢٧.
٤٤٦ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٣٥، ص١٠٠، ١٠١.

ولا أعتقد أننا نحتاج بعد هذه الشهادات إلى شهادات علماء آخرين على صحة منهج التصوف وسلامته مما ينسبه إليه السلفية المعاصرة من بدع وشرك وإخراج أهله من الملة، فهذا رأس المدرسة السلفية يشهد بنقاء التصوف ويدافع عنه وينفي من دائرته «المتصوفة» لأنهم يشوهون هذه الصورة الجميلة ويكدرون نقاءها، وإن كان الجنيد سمّي شيخ الطائفتين في عصره، فابن تيمية كذلك في عصره، وما لُقّبَ بشيخ الإسلام إلا بذلك الاستحقاق.

شهاداته في رجال التصوف:

قال: «فَأَمَرَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ، وَشَيْخُهُ حَمَّادٌ الدباس، وَغَيْرُهُمَا مِنْ الْمَشَايِخِ أَهْلَ الاسْتِقَامَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -: بِأَنَّهُ لا يُرِيدُ السَّالِكُ مُرَاداً قَطُّ، وَأَنَّهُ لا يُرِيدُ مَعَ إرَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سِوَاهَا، بَلْ يَجْرِي فِعْلُهُ فِيهِ، فَيَكُونُ هُوَ مُرَادَ الْحَقِّ. إنَّمَا قَصَدُوا بِهِ فِي مَا لَمْ يَعْلَمْ الْعَبْدُ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيهِ، فَأَمَّا مَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُرِيدَهُ وَيَعْمَلَ بِهِ، وَقَدْ صَرَّحُوا بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ مِنْ الغالطين يَرَى الْقِيَامَ بِالإِرَادَةِ الْخِلْقِيَّةِ هُوَ الْكَمَالُ وَهُوَ (الْفَنَاءُ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ) وَأَنَّ السُّلُوكَ إذَا انْتَهَى إلَى هَذَا الْحَدِّ فَصَاحِبُهُ إذَا قَامَ بِالأَمْرِ فَلأَجْلِ غَيْرِهِ، أَوْ أَنَّهُ لا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُومَ بِالأَمْرِ، فَتِلْكَ أَقْوَالٌ وَطَرَائِقُ فَاسِدَةٌ قَدْ تُكُلِّمَ عَلَيْهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. فَأَمَّا الْمُسْتَقِيمُونَ مِنْ السَّالِكِينَ، كَجُمْهُورِ مَشَايِخِ السَّلَفِ: مِثْلِ الْفُضَيْلِ

بْنِ عِيَاضٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالسَّرِيِّ السقطي والْجُنَيْد بْنِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمِثْلِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالشَّيْخِ حَمَّادٍ وَالشَّيْخِ أَبِي الْبَيَانِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ. فَهُمْ لا يُسَوِّغُونَ لِلسَّالِكِ، وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ، أَنْ يَخْرُجَ عَنْ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَدَعَ الْمَحْظُورَ إلَى أَنْ يَمُوتَ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ. وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلامِهِمْ»[٤٤٧].

وحين ذكر شيخ الإسلام كلاً من التلمساني والرومي وشيئاً من شعرهما قال: «إلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَشْعَارِ، وَفِي النَّثْرِ مَا لا يُحْصَى، وَيُوهِمُونَ الْجُهَّالَ أَنَّهُمْ مَشَايِخُ الإِسْلامِ وَأَئِمَّةُ الْهُدَى، الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الأُمَّةِ، مِثْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَالأَوْزَاعِي وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ والْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالشَّافِعِيِّ وَأَبِي سُلَيْمَانَ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَبِشْرٍ الْحَافِي وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ وَشَقِيقٍ البلخي، وَمَنْ لا يُحْصَى كَثْرَةً، إلَى مِثْلِ الْمُتَأَخِّرِينَ: مِثْلُ الْجُنَيْد بْنِ مُحَمَّدٍ القواريري وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التستري وَعُمَرَ بْنِ عُثْمَانَ الْمَكِيِّ وَمَنْ بَعْدَهُمْ - إلَى أَبِي طَالِبٍ الْمَكِّيِّ إلَى مِثْلِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الكيلاني وَالشَّيْخِ عَدِيٍّ وَالشَّيْخِ

---

[٤٤٧] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ص٥١٦، ٥١٧.

أَبِي الْبَيَانِ وَالشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ وَالشَّيْخِ عَقِيلٍ وَالشَّيْخِ أَبِي الْوَفَاءِ وَالشَّيْخِ رَسْلانَ وَالشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحِيمِ وَالشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ اليونيني وَالشَّيْخِ الْقُرَشِيِّ، وَأَمْثَالِ هَؤُلاءِ الْمَشَايِخِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَخُرَاسَانَ مِنْ الأَوَّلِينَ والآخرين. كُلُّ هَؤُلاءِ مُتَّفِقُونَ عَلَى تَكْفِيرِ هَؤُلاءِ وَمَنْ هُوَ أَرْجَحُ مِنْهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ هُوَ خَلْقَهُ وَلا جُزْءاً مِنْ خَلْقِهِ وَلا صِفَةً لِخَلْقِهِ بَلْ هُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مُتَمَيِّزٌ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ بَائِنٌ بِذَاتِهِ الْمُعَظَّمَةِ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ»[٤٤٨]. ولو أردنا أن نحصي من زكاهم شيخ الإسلام ابن تيمية من الصوفية للزمنا إفرادُ كتاب لهم، وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

---

[٤٤٨] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢، ص٤٧٤، ٤٧٥.

ابن قيم الجوزية

لو أن عالماً يعتقد أن طائفة من الأمة ضالة، وأن منهجها بدعيٌّ شركيٌّ ضلاليٌّ منحرفُ العقيدة مخالفٌ للشريعة خارجٌ على السنة، فهل يعمد إلى كتاب لأحد أئمة هذه الطائفة، وليس أي كتاب، وإنما كتاب يرسم الطريق لأتباع هذه الطائفة، ويبين لهم منهجها، فيدرُسه ثم يشرحُه ويبيّنُ معانيه، ليعين الأتباع على متابعة السلوك في طريق هذه الطائفة ويسهّل لهم السبيل، أم أنه يحاول ما استطاع ألا يبلغ هذا الكتاب مسامع الناس وألا يصل إلى أيديهم فينتشر الضلال وتتسع دائرته ويكثر اتباعه؟

لا شك أن الخيار الثاني هو الصواب، من منطلق القاعدة العلمية «أميتوا الباطل بالسكوت عنه».

فلماذا فعل ابن القيم العكس، فأخذ كتاب «منازل السائرين» الذي ألفه أبو إسماعيل الهروي الصوفي، وشرح فيه للسائرين في طريق التصوف المنازل التي يمرون بها، والصعوبات التي تواجههم فيه، والابتلاءات التي يتعرضون لها، وثمرات سيرهم، من كشف وفتح وشهود ونعم ومنن يتحصلون عليها بثباتهم ومواصلة سيرهم؟

لو كان ابن القيم يرى الصوفية ضالين مبتدعة مخالفين للشرع

خارجين على السنة أصحاب شركيات، هل كان يفعل ذلك؛ فيسهم في نشر منهجهم والدعوة إليه؟ لا ريب أنه لم يكن ليفعل لو لم يكن مقتنعاً بصحة هذا المنهج وسلامته وصفائه ونقائه وموافقته للشرع وسيره على السنة، بل لا بد أن يكون معجباً بهذا المنهج محباً له، يراه موافقاً لعقيدته وفكره ومسلكه، وليس مجرّدَ منهج سليم لا غبار عليه، وإلا لكان اكتفى بالسكوت عنه، لكن ابن القيم، الذي تربّى على يد إمام المدرسة السلفية شيخ الإسلام ابن تيمية، وتشرب فكره وورث علمه، لا بد أنه رأى توافقاً بين المنهج الذي تربى عليه وتشرّب تعاليمه وورثه، وبين منهج التصوف الذي يمثّله كتاب «منازل السائرين»، فعكف على درسه ثم شرحه في أربع مجلدات؛ أسماه «مدارج السالكين». وكان خلال الشرح يثني على المؤلف الهروي، ويصفه بأنه شيخ الإسلام، ولا ريب أن هذا اللقب ليس من خلع السلاطين على العلماء، بل العكس، فإن معظم من حملوا هذا اللقب تعرضوا لقمع السلاطين وسجنهم وتهديدهم بالقتل، فابن تيمية سُجن سنين طويلة، والعز بن عبد السلام سُجن وهُدد بالقتل، والهروي عُرض على السيف خمس مرات، فَلَقَبُ «شيخ الإسلام» يطلقه العلماء على من يرونه عالماً واسعَ العلم والخُلُق سليمَ المنهج صحيحَ التوجه موافقاً للشرع في أقواله وأفعاله وأحواله

واجتهاده، صالحَ السيرة نقيَّ السريرة، فهو اعتراف منهم بتفوقه على معاصريه من العلماء. فكان ابن القيم يُجِلُّ صاحبَ الكتاب ويَعرفُ قدره ويعترف بفضله، حتى إنه خلال الشرح إذا اختلف معه في الرأي لم يبكّت ولم يعنّف ولم يطعن في علمه أو يشكّك في منهجه، وإنما يكتفي بقول: «وشيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه»، ثم يعارض الفكرة بأدب ويبين رأيه، أما إذا مر بشرح فكرة يتفق معه فيها فإنه يقول: «لله در شيخ الإسلام...»

وهذا الأدب نفسه رأيناه في أسلوب ابن تيمية حين يتناول شيئاً من كلام الشيخ عبد القادر الكيلاني الصوفي، وما ذلك إلا لإيمانه بصحة منهجه، أما حين يتكلم عن محيي الدين بن عربي فإنه يكفّره ويخرجه من دائرة التصوف، ما يدل على أنه يرى التصوف منهجاً صحيحاً سليماً سامياً لا يليق بالانتساب إليه من لا يراه الشيخ أهلاً لذلك، وحين يذكر العفيف التلمساني فإنه يسميه الفاجر، فالفجور ضد العفاف.

وحين مرّ ابن القيم بمقولة الشافعي «صحبت الصوفية عشر سنين، فما انتفعت منهم إلا بكلمتين؛ سمعتهم يقولون: الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك»، و: «نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك

بالباطل» قال: «يا لهما من كلمتين! ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلها ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم»[٤٤٩]! ولم يقل ما أقلها في عشر سنوات، بل استعظم الكلمات مقابل هذه السنوات العشر، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن ابن القيم وقبله شيخ الإسلام ابن تيمية كانا مقتنعين بصحة هذا المنهج وسلامته وعلوّ شأنه، وهذا يدفعنا إلى إطلاق السؤال عنوان المبحث الآتي.

---

[٤٤٩] مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ج٣، ص١٢٤، ١٢٥.

هل كان ابن تيمية وابن القيم صوفيين ؟

هذا السؤال أوجَبَتْهُ مواقف العالِمين العَلَمين إمامَي المدرسة السلفية، تلك المواقف التي لم تقف عند إنصاف الصوفية فحسب، بل تجاوزته إلى موافقتهم ومحبتهم والدفاع عنهم والتبرير لهم وشرح مصطلحاتهم لنفي الشبهة عن التصوف وأهله، من مثل قول شيخ الإسلام: «قَالَ الشِّبْلِيُّ بَيْنَ يَدَيْ الْجُنَيْد: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاَللَّهِ. فَقَالَ الْجُنَيْد: «قَوْلُك ذَا ضِيقِ صَدْرٍ، وَضِيقُ الصَّدْرِ لِتَرْكِ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ». فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْكَلامِ، وَكَانَ الْجُنَيْد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَيِّدَ الطَّائِفَةِ وَمِنْ أَحْسَنِهِمْ تَعْلِيماً وَتَأْدِيباً وَتَقْوِيماً - وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَلِمَةُ اسْتِعَانَةٍ؛ لا كَلِمَةُ اسْتِرْجَاعٍ، وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَقُولُهَا عِنْدَ الْمَصَائِبِ بِمَنْزِلَةِ الاسْتِرْجَاعِ، وَيَقُولُهَا جَزَعاً لا صَبْراً. فالْجُنَيْد أَنْكَرَ عَلَى الشِّبْلِيِّ حَالَهُ فِي سَبَبِ قَوْلِهِ لَهَا إذْ كَانَتْ حَالاً يُنَافِي الرِّضَا، وَلَوْ قَالَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ»[٤٥٠]

ودفاع شيخ الإسلام ابن تيمية عن رابعة العدوية، في قوله: «وَأَمَّا مَا ذُكِرَ عَنْ رَابِعَةَ العدوية مِنْ قَوْلِهَا عَنْ الْبَيْتِ: «إنَّهُ الصَّنَمُ الْمَعْبُودُ فِي الأَرْضِ» فَهُوَ كَذِبٌ عَلَى رَابِعَةَ، وَلَوْ قَالَ هَذَا مَنْ قَالَهُ لَكَانَ كَافِرًا

---

[٤٥٠] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ٦٨٦، ٦٨٧.

يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلا قُتِلَ، وَهُوَ كَذِبٌ؛ فَإِنَّ الْبَيْتَ لا يَعْبُدُهُ الْمُسْلِمُونَ؛ وَلَكِنْ يَعْبُدُونَ رَبَّ الْبَيْتِ بِالطَّوَافِ بِهِ وَالصَّلاةِ إلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ مِنْ قَوْلِهَا: «وَاَللَّهِ مَا وَلَجَهُ اللَّهُ وَلا خَلا مِنْهُ» كَلامٌ بَاطِلٌ عَلَيْهَا»[٤٥١]. أي مكذوب على لسانها.

وابن تيمية حين يتكلم عن أنواع الصوفية ولا يخرج أحداً منها من دائرة الإسلام، في حين يقول في الكلام الباطل الذي ينسب إلى أئمة الصوفية أو مشاهيرهم: «إنه مفترى»، وفي الوقت نفسه يُخرج من دائرة التصوف المنتسبين إليه كذباً من أهل السوء والانحراف، ويعدُّهم «متصوفة» لا «صوفية»، وحين يتحدث عن الكشف والتصرّف، ويشرح الفناء ويبين أنواعه، ويتحرى الأعذار لمن يقعون تحت سلطانه فيتلفظون بكلام مناف للشرع، وحين يمدح أئمة الصوفية، فإن القارئ يشعر شعوراً قوياً بأنه صوفي، كقوله: «وَبَيَّنَ لَهُمْ الْجُنَيْد كَمَا قَالَ فِي التَّوْحِيدِ: هُوَ إفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ. فَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَ الْجُنَيْد مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ كَانَ قَدْ اهْتَدَى وَنَجَا وَسَعِدَ»[٤٥٢]. ومثله في ذلك تلميذه ابن القيم، الذي لولا شرحه كتاب الهروي الصوفي «منازل السائرين» لما قرأه السلفيون،

---

[٤٥١] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٢، ص٣١٠.
[٤٥٢] المصدر السابق، ج١٤، ص٣٥٥.

ولَحَكموا عليه، دون تحقّق أو حتى اطلاع، بأنه ضلال وبدع وشرك، لمجرد أن مؤلفه صوفي، فوضع ابن القيم التصوفَ نقياً صافياً بين أيدي السلفيين بهذا الكتاب الرائع «مدارج السالكين»، ولو قدمه غيرُه لما قرؤوه، فكان إنجازاً عظيماً سعى فيه إلى تقريب وجهات النظر بين السلفية والصوفية، في وقت استعرت فيه نار التكفير، فكان مجيء هذا الدفاع وهذه التوضيحات من إمامين سلفيين أجدى نفعاً مما لو جاءت من أئمة التصوف، ولو قال ابن تيمية وابن القيم مجرد قول إنهما صوفيان لرفض كثير من السلفيين المعاصرين كتبهما واتهموهما بالضلال والانحراف، ولست أُلَمِّح بكلامي هذا إلى أنهما كانا صوفيين يكتمان تصوفهما لخدمة التصوف من سُدّة المدرسة السلفية، وإنما أريد التأكيد أن التصوف في عصرهما كان سلفياً، وأن السلفية كانت تصوفاً، بغض النظر عن المصطلحات، وإنما يكون الحكم على الممارسات، فمن كان سلفياً في عقيدته وفكره وإيمانه والتزامه، وزاهداً عابداً متوكلاً ذاكراً شاكراً في السراء والضراء سُمِّي صوفيّاً وإن لم يتّبع طريقة شيخ، ومن هنا نشأ التصوف في بداياته قبل أن يترسخ ويصبح علماً له أصوله ومناهجه، ومن يرجع إلى الكتب التي تشرح منهج التصوف لا يجد فيها أكثر من قال الله سبحانه، وقال رسوله ﷺ،

وفعل النبي ﷺ كذا، وكان أبو بكر كذا، وعمر كذا، وعلي كذا، وبعد ذلك قال الجنيد كذا، وسمع الكيلاني كذا فقال كذا، وفعل السري السقطي... إضافة إلى تحذيرات من التلبيس أو الانصياع للوساوس أو الأوهام، وإدانة الحلاج وأمثاله، والأمر بالإعراض عن كتب محيي الدين بن عربي، والحث على طلب العلم وتقديم ظاهر الشرع، وما إلى ذلك من أمور تربوية وذوقية وحِكَمٍ نابعة من الإسلام مغترفة من بحره، كما يقول الشاعر:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُـــولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أو رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

وهكذا كان منهج ابن تيمية ومدرسته السلفية، فكان السلفي صوفياً في سلوكه، والصوفي سلفياً في تمسكه، فعبد القادر الكيلاني كان سلفياً، وابن تيمية كان صوفياً، والعكس صحيح، فالمدرسة واحدة والاختلاف فقط في التسميات. ولو نحّينا مصطلح الصوفية، وقرأنا كلام ابن تيمية في منهج هذه الطائفة ومدحه لأتباعها، وهو كثيراً ما يقول عند ذكر أحدهم: «قدس الله روحه»، أفلا نعتقد أنه من هذه الطائفة؟

وقد قيل إن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا صوفيين، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أثبت الشيخ جمال الدين

يوسف بن عبد الهادي، الشهير بابن المبرد الحنبلي، أنه صوفي قادري، وذلك في كتابه «بَدْءُ العُلْقة بلُبسِ الخرقة» فقال: «وأحد طرقها (يعني الخرقة) التي بها نُقِلَتْ، وإلينا - ولله الحمد - وصلت، الطريقة التي أشار إليها بقية الأعلام وأحد مشايخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله، قال: وقد كنت لبست خرقة التصوف من طرف جماعة من الشيوخ، من جملتهم الشيخ عبد القادر الجيلي، وهي أجلُّ الطرق المشهورة. وقال مرة: فأجلُّ الطرق طريق سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي، رحمة الله عليه»[٤٥٣]. والعُلقة: بضم العين: الحبل المعلق بالبكرة. وابن المبرد ليس ببعيد عهد بابن تيمية؛ إذ إن المدة بينهما ١١٢ عاماً فقط. كما أكد انتساب ابن تيمية إلى الطريقة القادرية الباحث في المدرسة الحنبلية المستشرق جورج المقدسي، في مقالات منشورة عام ١٩٧٠ بعنوان: «ابن تيمية صوفي من الطريقة القادرية»، وأكد ذلك أيضاً جمال الدين عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي العلاء الطلياني فذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في جوابه عن المسألة التبريزية: «لبستُ الخرقة المباركة للشيخ عبد القادر، وبيني وبينه اثنان»[٤٥٤]. وربما

---

[٤٥٣] بدء العلقة بلبس الخرقة، لابن المبرد، ص٤٨.

[٤٥٤] ترغيب المتحببين في لبس خرقة المتميزين، للطلياني، ص٦٧، مخطوطة جامعة برنستون، ٣٢٩٦.

يعضد هذه الأخبار ثناء ابن تيمية الكثير على الشيخ عبد القادر، كقوله: «والشيخ عبد القادر من أعظم شيوخ زمانه مأمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق، ومن أعظم المشائخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية»[٤٥٥].

وكذلك استشهاده بأقوال الشيخ عبد القادر وتوضيح تخريجاتها، كقوله: «وَلِهَذَا يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ: كَثِيرٌ مِنْ الرِّجَالِ إذَا وَصَلُوا إلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ أَمْسَكُوا وَأَنَا انْفَتَحَتْ لِي فِيهِ رَوْزَنَةٌ فَنَازَعْتُ أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ، وَالرَّجُلُ مَنْ يَكُونُ مُنَازِعاً لِقَدَرٍ لا مُوَافِقًا لَهُ وَهُوَ - رضي الله عنه - كَانَ يُعَظِّمُ الأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَيُوصِي بِاتِّبَاعِ ذَلِكَ، وَيَنْهَى عَنْ الاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ»[٤٥٦]. ولعل أبرز المؤكدات أن شيخ الإسلام ابن تيمية شَرَحَ كتاب «فتوح الغيب» للشيخ عبد القادر الجيلي، والكتاب مشهور، طَبَعَتْهُ مكتبة «المثنى» ببغداد، بتحقيق إياد عبد اللطيف إبراهيم، عام ١٩٨٧م. وطبعته مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، بتحقيق أحمد السايح، وتوفيق وهبة، عام ٢٠٠٥م. ولم يكن شيخ الإسلام ولا غيره ليشرح كتاباً لا يقتنع بمضمونه، وخصوصاً أن مضمونه صوفي محض، وعنوانه من

---

[٤٥٥] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ص ٨٨٤.
[٤٥٦] المصدر السابق، ج ٨، ص٣٠٣.

مصطلحات الصوفية. كما شرح شيخ الإسلام ابن تيمية «الرسالة القشيرية» وعلّق عليها، في كتابه «الاستقامة»، الجزء الأول، صفحة ٨٠ وما بعدها، الطبعة الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من أصحاب شيخ الإسلام ومن لهم علاقة معه، سواء أكانوا مريدين أم أصحاباً، كانوا قد سلكوا منهج التصوف، من أمثال الإمام الذهبي، وابن دقيق العيد، وأحمد بن إبراهيم الواسطي، إذ «قدم دمشق، فرأى الشيخ تقي الدين ابن تيمية وصاحبه، وكان ابن تيمية يعظمه ويجله، ويقول عنه: هو جنيد وقته. وكتب إليه كتاباً من مصر أوَّلُه: إلى شيخنا الإِمام العارف القدوة السالك»[٤٥٧]، وغيرهم ممن قال فيهم وقالوا فيه خيراً. وأما ابن القسم فقد مر بنا شرحه لكتاب «منازل السائرين» للهروي، وهو منهاج في التصوف، ما يؤكد صحة هذه الأخبار والاستنتاجات.

---

٤٥٧ ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، ج٢، ص٢٥٦.

الإمام الشافعي

قال ابن الجوزي: «عن يونس بن عبد الأعلى، قال: سمعت الشافعي يقول: لو أن رجلاً تصوّف أوّل النّهار لا يأتي الظّهر حتى يصير أحمق. وعنه أيضاً أنه قال: ما لزم أحدٌ الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً»[٤٥٨]. وفي الكتاب نفسه يقول: «قال محمد بن محمد بن إدريس الشافعي: سمعت أبي يقول: صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيف، وأفضل العصمة أن لا تقدر»[٤٥٩] ومر بنا نقل ابن القيم عن الشافعي روايةآخرى، ولن نطعن في رواية يونس ولا ابن الجوزي، رحمهما الله، ولكننا نتساءل: هل صار الإمام الشافعي، رحمه الله، أحمق ظهر اليوم الأول من صحبتهم، ونتساءل أيضاً هل عاد إلى الشافعي عقله بعد صحبة الصوفية عشر سنين، وليس أربعين يوماً فحسب؟! وهل صدر كل هذا الفقه عن الشافعي رحمه الله وهو أحمق وبلا عقل؟ لا ريب أن تسويق مثل هذا الكلام يُظهر شدة التحامل على الصوفية. أما أهل العلم والإنصاف فقد تلقّوه بفهم آخر غير فهم الذي يبصر في كل ذي لحية إرهابياً، فهذا الإمام العجلوني يقول: «أما ما يُروى عنه (الشافعي) في ذم الصوفية، فإنما هو من باب الطعن والتحذير من

---

[٤٥٨] تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٤٤٧.
[٤٥٩] المصدر السابق، ص٤١٣، ٤١٤.

أدعيائه السالكين دربه بلا علم ولا عمل، نعوذ بالله منهم، وما أكثرهم»؛[٤٦٠]

وهذا الإمام البيهقي يعلق على القولين المنسوبين إلى الشافعي، فيقول: «وإنما أراد به من دخل في الصوفية واكتفى بالاسم عن المعنى، وبالرسم عن الحقيقة، وقعد عن الكسب، وألقى مؤونته على المسلمين، ولم يبالِ بهم، ولم يرعَ حقوقهم، ولم يشتغل بعلم ولا عبادة، كما وصفهم في موضع آخر :... لا يكون الصوفي صوفياً حتى يكون فيه أربع خصال: كسول أكول نؤوم كثير الفضول، وإنما أراد به ذم من يكون منهم بهذه الصفة، فأما من صفا منهم في الصوفية بصدق التوكل على الله عز وجل، واستعمال آداب الشريعة في معاملته مع الله عز وجل في العبادة، ومعاملته مع الناس في العشرة، فقد حُكي عنه أنه عاشرهم وأخذ عنهم... وبلغني أنه رأى مِنْ بعض من تسمّى باسم الصوفية ما كَرِهَ، فخرج قوله في ذم أمثاله... وكان الشافعي رجلاً عِطِراً، ذلك أنه كان به باسور، وكان يجيء غلامه كل غداة بغالية (عطر) فيمسح بها الأسطوانة التي يجلس عليها، وكان إلى جنبه إنسان من الصوفية، وكان يسمي الشافعي «البطال» (ولا ريب أن وراء ذلك حسداً ينهش قلبه) يقول: هذا البطال وهذا البطال، فلما كان ذات يوم عمد إلى شاربه

---

[٤٦٠] كشف الخفاء، للإمام العجلوني، ج١، ص، ٣٤١.

فوضع فيه قذراً، ثم جاء إلى حلقة الشافعي، فلما شم الشافعي الرائحة أنكر... فوجدوا ذلك الرجل، فقالوا له: ما حملك على هذا؟ قال: رأيت تجبُّرك، فأردت أن أتواضع لله»![٤٦١]، ولا ريب عند عاقل أن هذا المتصوف أحمق. وللإمام الشافعي كلام عظيم في التصوف، ومر بنا قول ابن القيم: قال الشافعي رضي الله عنه: صحبت الصوفية، فما انتفعت منهم إلا بكلمتين؛ سمعتهم يقولون: «الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك»، و«نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل» قلت يا لهما من كلمتين! ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلها ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم»[٤٦٢]!

فهما كلمتان مضغوط فيهما كثير من المعارف، لمن يتعمق فيهما ويدرك انسحابهما على طريق السلوك إلى الله تعالى في كل مدارجه، وشرحهما يحتاج إلى كتاب، ولأن ابن القيم رحمه الله، كان على درجة من الحذق والتعمق أوضح فهمه لهما بقوله: «يا لهما من كلمتين!...» ومن يركز في قوله: «ما أنفعهما وأجمعهما!» يدرك أن كلام الشافعي مدح، وهو من أساليب البلاغة المعروفة، ويسمى «توكيد المدح بما يشبه الذّم»، وهو كثير في

---

٤٦١ مناقب الشافعي، للبيهقي، ج٢، ص٢٠٧-٢٠٩.
٤٦٢ مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ج٣، ص١٢٤، ١٢٥.

الشعر والنثر والقرآن والحديث، ومنه قول النابغة الذبياني:

وَلا عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فلولٌ من قِـراعِ الكَتائِبِ

فمن يقرأ أول البيت «لا عيب فيهم غير» يظن أن النابغة سيذمهم، في حين جاءت التتمة لتجعل المدح مؤكداً، وهو أبلغ وأعمق أثراً في النفس مما لو قال: «بسيوفهم فلول من قراع الكتائب»، ومن ذلك قول النابغة الجعدي، رضي الله عنه:

فَتَىً كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَما يُبْقِي مِنَ المالِ باقِيا

وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٤٦٣] **ومنه قول النبي ﷺ: «أنَا أفْصَحُ العَرَبِ بَيْدَ أنّي مِنْ قُرَيْشٍ»[٤٦٤]، ومثل ذلك يقال في كلام الشافعي رحمه الله.**

وسنستعرض شهادات الأئمة في التصوف وأهله:

الإمام الشافعي: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف»[٤٦٥].

الإمام مالك: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»[٤٦٦].

---

[٤٦٣] سورة البروج: ٨.

[٤٦٤] التلخيص الحبير، لابن حجر العسقلاني، ج٤، برقم١٢٩٨.

[٤٦٥] كشف الخفاء، للعجلوني ج٢، ص٧٣.

[٤٦٦] حاشية العدوي على شرح الزرقاني على متن العزية، ج٣، ص١٩٥. وينظر: شرح عين العلم وزين الحلم، لملا علي القاري، ج١، ص٣٣، وشرح المقاصد النووية، ص١٧١.

الإمام أحمد بن حنبل: «كان يقول لابنه عبد الله: يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه. فلما صحب أبا حمزة البغدادي وعرف أحوال القوم ووقف على حقيقتهم كان يقول لولده: عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة لله تعالى، والخشية منه، والزهد في الدنيا، وعلوّ الهمة»[٤٦٧].

و«كان الشافعي وابن حنبل يترددان إلى مجالس هذه الطائفة، ويحضران معهم في مجالس ذكرهم ومذاكرتهم، فقيل لهما: ما لكما تترددان إلى مثل هؤلاء الجهال؟ فقالا: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله»[٤٦٨].

الإمام النووي: «أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، وأصول ذلك كله خمسة: علو الهمة وحفظ الحرمة وحسن الخدمة ونفوذ العزيمة وتعظيم النعمة»[٤٦٩].

---

[٤٦٧] شرح المقاصد النووية، لمحمد الحجار، ص١٦٩. وينظر غذاء الألباب، للسفاريني ١ج، ص١٢٠.
[٤٦٨] المصدر السابق، ص١٦٨.
[٤٦٩] مقاصد الإمام النووي، ص١٤.

الإمام الغزالي: «ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق»[٤٧٠].

شيخ الإسلام العز بن عبد السلام: «قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تتهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم»[٤٧١].

الإمام الذهبي: «القادح في مُحِقِّ الصوفية داخل في حديث: ﴿مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ﴾»[٤٧٢]، ويقول «ألبسني خرق التصوف شيخنا المحدث الزاهد ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصاري، بالقاهرة، وقال: ألبسنيها الشيخ شهاب الدين السهروردي، بمكة، عن عمه أبي النجيب»[٤٧٣].

فخر الدين الرازي: «اعلم أن أكثر من قص فرق الأمة لم يذكر الصوفية، وذلك خطأ؛ لأن حاصل قول الصوفية ولأن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن... وهم فرق، منهم أصحاب الحقيقة، وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفرائض لم يشتغلوا بنوافل العبادات، بل بالفكر وتجريد

---

٤٧٠ المنقذ من الضلال، للغزالي، ص٤٩.
٤٧١ نور التحقيق، للشيخ حامد صقر، ص٩٦.
٤٧٢ الموقظة، للذهبي، ص١٠٩. والحديث أخرجه ابن تيمية، ينظر هامش ٢٨٧.
٤٧٣ سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص٣٧٧.

النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين»[٤٧٤].

الإمام تاج الدين السبكي: «حياهم الله وبياهم، وجمعنا في الجنة نحن وإياهم، وقد تشبعت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم، لكثرة المتلبّسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقوف عليهم لأنه لا حد لهم! والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة... والحاصل أنهم أهل الله وخاصته، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويُستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم»[٤٧٥].

الإمام المحاسبي: «فقيّض لي الرؤوف بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا... فأصبحتُ راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محباً لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئاً، ولا أوثر عليهم أحداً، ففتح الله لي علماً اتضح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النجاة لمن أقرَّ به أو انتحله، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج في من خالفه، ورأيت الرَّيْن متراكماً على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجة العظمى لمن

---

٤٧٤ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي، (ص٧٢، ٧٣.

٤٧٥ معيد النعم ومبيد النقم، للسبكي، ص٩٣، ٩٤.

فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً علي فاعتقدته في سريرتي، وانطويت عليه بضميري، وجعلته أساس ديني، وبنيت عليه أعمالي، وتقلَّبْتُ فيه بأحوالي، وسألت الله عز وجلَّ أن يوزِعَني شكر ما أنعم به علي، وأن يقويني علىَّ القيام بحدود ما عرَّفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أدرك شكره أبداً»[٤٧٦].

العلامة ابن خلدون: «هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقَ الحق والهداية، وأصلها العكوفُ على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراضُ عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفرادُ عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلمَّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية»[٤٧٧].

ابن عابدين: «ولا كلام لنا مع الصُدَّق من ساداتنا الصوفية المبرئين عن كل خصلة رديَّة»[٤٧٨].

---

[٤٧٦] الوصايا للمحاسبي، المقدمة، ص٦٢ - ٦٤.
[٤٧٧] مقدمة ابن خلدون، ص٦١١.
[٤٧٨] رسائل ابن عابدين، لابن عابدين، ج١، الرسالة السابعة: شفاء العليل، ص١٧٢، ١٧٣.

أبو الحسن الندوي: «إن العهد الإسلامي في الهند بدأ بهؤلاء الصوفية، وبخاصة الشيخ معين الدين الأجميري، الذي أسس الطريقة الجشتية في هذه البلاد على دعائم قوية بجهاده وإخلاصه، وأقبل عليهم الناس من جميع الطبقات والفئات، يتنافسون في حبهم وصلتهم بهؤلاء المرشدين رجال الله والدعاة إليه بإخلاص وصدق وأمانة ونزاهة، وامتدت في طول البلاد وعرضها شبكة من المراكز الروحية التي لم يبق بلد أو قرية ذات شأن إلا وفيها مركز روحي أو عدة مراكز... إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ويرغّبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنه والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه، إنهم كانوا يعظون الناس دائماً، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديده لإصلاح النفس وتغيير الحال»[٤٧٩].

سعيد حوى: «إن عصرنا عصر الشهوة وعصر النزوة وعصر المادية،

---

[٤٧٩] المسلمون في الهند، للندوي، ص١٤٩ - ١٥٢.

ولا بد أن تقابَل هذه الأشياء بما يكافئها ويقابلها، وبجزم أقول: إن التربية الصوفية وحدها هي التي تقابل ذلك، فالشهوة لا يحل مشكلتها المقال وحده، بل لا بد من الحال، ولا بد من البيئة والتربية. والمادية لا يكافئها الكلمة وحدها، بل لا بد من الشعور والذوق والإحساسات الإيمانية مع المقال. والتمرد لا يعالَج بالكلمة وحدها، بل يعالج بالإخبات لله، والتقوى والورع والأدب، وهذه طريقها العملي هو التصوف»[٤٨٠] ويقول: «إن تسعين في المئة من الأمة الإسلامية، خلال قرون متعددة، لهم صلة بالتصوف وأهله بشكل من الأشكال،... ولا زال التصوف وأهله يصلون إلى بيئات ومناطق لا يصل إليها غيرهم»[٤٨١].

الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي: «ولا ننكر الطريقة الصوفية وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهاج المرعي»[٤٨٢].

عبد العزيز بن باز في شرحه كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكنت أتابع شرحه في الإذاعة، وكان معه من يقرأ الفقرة، والشيخ يشرحها، فقرأ:

---

٤٨٠ تربيتنا الروحية، لسعيد حوى، ص١٣.

٤٨١ المرجع السابق، ص٨.

٤٨٢ مجموعة رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الأعمال الكاملة، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

«وقف أحد الصوفية على شاطئ دجلة، وقال: اللهم إن لم تُخرج لي الساعة حوتاً (سمكة) فلا صليت أبداً، فأخرج الله له حوتاً فأخذه وانصرف، فبلغ خبرُه الجنيدَ، فقال: قاتله الله! أيختبر الله؟ ودِدتُ لو خرجت له حية فنهشته». فعلق ابن باز على القصة، ثم قال: «والجنيد من الصوفية الذين نحسبهم على الحق». فكان كلامه اعترافاً بأن الصوفية فيهم طائفة على الحق.

وقد ذكرنا عدداً من العلماء الأعلام وأهل الفقه والحديث والجهاد والفتوحات، من الصوفية، في الصفحات ١١ - ١٤، وأشرنا إلى فضلهم، ولا حاجة إلى الإعادة، إضافة إلى من ذكرهم شيخ الإسلام في الصفحات من ٣٢٣ إلى ٣٢٥، وشهد لهم بالخيرية والأفضلية والولاية، ومن أراد الاستزادة يجد ذلك في مظانه مثل كتاب «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي، و«طبقات الصوفية» للإمام الشعراني، و«طبقات الصوفية» للمناوي، أو «أعلام التصوف الإسلامي» لأحمد أبي كف، ففيها بلغة.

التصوف والسلفية تياران

نعم، التصوف والسلفية تياران وليسا مذهبين، لأن المذاهب فقهية، وقد تجد الصوفي حنبلياً أو شافعياً أو مالكياً أو حنفياً، وكذلك السلفي، باستثناء السلفية المعاصرة، التي قامت في السعودية واعتمدت المذهب الحنبلي في معظم المسائل الفقهية والعبادات، ومن السعودية انتشرت إلى بلدان العالم، أما السلفية التي يمثلها جيل شيخ الإسلام ابن تيمية فكانت مذاهبهم متعددة.

وكذلك فإن الصوفية والسلفية ليسا فرقتين كالمعتزلة والمرجئة والرافضة والقدرية، لأن أتباع تلك الفرق لا يمكن لأي منهم أن يكون في فرقتين معاً، أما الصوفي فيمكن أن يكون سلفياً، وهذا هو الأصل، لأن كلمة «سلفية» تعني السير على نهج سلف الأمة، وهم النبي ﷺ وأصحابه والتابعون، وكذلك يمكن للسلفي أن يتصوف إذا أراد السلوك والسير إلى الله، كما فعل العز بن عبد السلام وابن عطاء الله السكندري، فالتصوف والسلفية فَهْمانِ مختلفان للسير إلى الله وغير متناقضين، فالسلفي يردد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٤٨٣]، والصوفي يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ

---

[٤٨٣] سورة الأعراف: ٣٢.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٤٨٤]، **والسلفي يقرأ قول النبي ﷺ: ﴿الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ﴾[٤٨٥]، والصوفي يقرأ قوله ﷺ: ﴿هلْ تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إلا بضُعَفَائِكُمْ؟!﴾[٤٨٦]، فكلاهما على الصواب، ولكل منهما فضله، ومصطلح «السلفية» أعم، لأن كل مسلم سلفي، يسير على نهج سلف الأمة؛ نبيها ﷺ وأصحابه وتابعيهم، فإن فارق نهجهم إلى غيره فقد ضل وخرج من دائرة الإسلام إلا أن يتوب ويعود، ومصطلح «صوفية» أخص، لأن كل صوفي سلفي بالضرورة كونه مسلماً يسير على نهج النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم، أما التصوف فهو زيادة في الزهد والتعبد والإقبال على الذكر والمجاهدات وما إليها، سعياً إلى الترقي في مدارج السالكين، وعليه فتخصيص مسمى «سلفية» لفرقة دون غيرها من المسلمين باطل، إلا إذا اعتبرنا الرافضة والقدرية والجهمية مسلمين! وعندنا لذلك قاعدتان: الأولى قوله ﷺ: ﴿فعليكم بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدين المهديِّينَ، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ﴾[٤٨٧] فمن استبدل بها سنة غيرهم، أو اعتقد أن سنة غيرهم أصح أو أفضل فقد خرج من الإسلام. والثانية: قوله**

---

[٤٨٤] سورة طه: ١٣١

[٤٨٥] صحيح مسلم، برقم: ٢٦٦٤.

[٤٨٦] صحيح البخاري، برقم: ٢٨٩٦.

[٤٨٧] سبق تخريجه بالهامش ١٠٠.

ﷺ: ﴿وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي﴾[٤٨٨].

فالناجون هم السائرون على ذلك النهج، ملازمين سنة النبي ﷺ والخلفاء الأربعة من بعده، أو الخمسة بتصنيف السيوطي، الذي عد خلافة الحسن، رضي الله عنه، خلافة خامسة، أو الستة، بإجماع الأمة التي عدت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في الراشدين.

فمن يَشْتُمُ أبا بكر أو عمر أو عثمان أو علي، رضي الله عنهم، أو يلعنهم، أو يصمهم بالخيانة فهو بالتأكيد لا يتبع سنتهم، ومن يستبدل بسنة النبي ﷺ سنة غيره، أياً كان، فهو ليس من الناجين، ومن يقدّم سنة أحد الخلفاء الراشدين على سنة سيدنا محمد ﷺ فهو ليس من الناجين بالتأكيد، حتى وإن كانت سنّة مزعومة لآل بيته، لأن آل بيته، عليه وعليهم الصلاة والسلام، يسيرون على سنته ولا يخرجون عنها قيد أنملة، فهو النبي ﷺ، وهم ليسوا بأنبياء.

والتيارات كالأنهار يرفد بعضها بعضاً فيعظم نفعها ويعم خيرها، وحين تجمع الأمة بين تياري السلفية والتصوف؛ منهجي التشرع والتحقق؛ مسلكي الفقه والعبادة؛ طريقي الدعوة والزهد، فإنها تكون على طريق نبيها ﷺ وآل بيته وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وألحقنا بهم.

---

٤٨٨ صحيح الترمذي، للألباني، برقم ٢٦٤١.

حركات التجديد في التصوف

إن أي منهج، مع تقلب الحوادث وبُعد المسافة الزمنية عن منبعه، تتخلله شوائب تعكر صفوه، وتطرأ فيه معوّقات تؤخر مسيره، ويسري في حَمَلَتِه وَهْنٌ يُضْعِفُ تدفّقه، وهذا حصل في كل الأديان. وإذ إن الإسلام هو أصل الأديان السماوية ومتمّمها، فقد تعهد الله سبحانه أن يهيئ له في كل قرن مجدّداً يزيل الشوائب منه ويبعث الهمة في أتباعه، ليعيد إليه صفاءه وقوة تدفقه، فأوحى إلى نبيه ﷺ: ﴿إنَّ اللَّهَ يبعثُ لِهَذِهِ الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ من يجدِّدُ لَها دينَها﴾[٤٨٩]، وقد أجمع العلماء على أن أول المجددين عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، الذي تسلم الخلافة عام تسعة وتسعين للهجرة، أي على رأس المئة، فَرَدَّ المظالم وأقام العدل وأحيا السنة وأمات البدعة ونفع الله به البلاد والعباد، وهو أول من دعا إلى جمع الحديث النبوي الشريف الذي تضمن سنة النبي ﷺ، وكان قدوة في التقوى والورع والزهد، وقد اختُلف في بقية من جاؤوا بعده من المجددين.

والتصوف، كونه أحد أعظم البساتين التي ارتوت من هذا النهر العظيم، ونبغت أشجاره وأثمرت أطايب ثمارها وآتت أكلها برعاية بقية السلف؛ الرعيل الأول من المربين كالجنيد والكيلاني

---

[٤٨٩] صحيح أبي داود، للألباني، برقم ٤٢٩١.

والرفاعي والكرخي والبلخي والسري السقطي وأمثالهم، تَقِلُّ ثمراته وتضعف أشجاره وتنقبض ظلالها بما يطرأ على النهر من تغيرات، والعكس بالعكس، فالتابع ظل للمتبوع، فإذا ظهرت فيه الطفرات السيئة ، من بدع وخرافات وأمور شركية، ونبتت فيه الفطريات التي ليست من نباته، فشوهت وأفسدت، أخرج الله سبحانه في أهله مجدِّدين يواكبون عمل المجدِّدين في النهر، ويتعاونون معهم في تنظيف البستان وتخليصه من هذه الفطريات، ليعود كما كان زاهياً مثمراً تمتد ظلاله الوارفة وتُجتنى ثمراته الطيبة، وسنمر بذكر عدد من هؤلاء المجدِّدين الذين نبغوا في بستان التصوف فدعوا إلى تنظيفه من الفطريات وإعادة رونقه إليه، فانتفع بهم هذا الطريق وأهله، وعاد جنّةً تسر الناظرين.

القشيري ورسالته

ولد أبو القاسم القشيري بقرية إستو من قرى نيسابور عام ٣٧٦ هـ، وأخذ عن الإمام الصوفي الشهير أبي علي الدقاق، الذي كان يذكره في «الرسالة القشيرية» باسم «الأستاذ»، وعنه أخذ جل علمه، فقد كان الدقاق لسان عصره في التصوف وعلوم الشريعة، فقبل القشيريَّ في حلقته بشرط أن يكتسب الشريعة، ويُتقن علومها. وهذا كان منهج أئمة التصوف، فلا تصوف قبل تفقُّه، ولا تحقُّق لمن لم يتشرع، فنبغ القشيري في الملازمة بين علوم الشريعة والتصوف، وعلى هذا الأصل أقام مشروعه الإصلاحي في ما بعد، ولما انتهى من دراسة الفقه تعلم الأصول عند الإمام أبي بكر بن فورك، ثم لزم الشيخ أبا إسحاق الإسفراييني وأعاد عليه ما سمعه منه، فقال له: لست تحتاج إلى دروسي، بل يكفيك أن تطالع مصنفاتي، ففعل ذلك وجمع بين طريقة الإسفراييني وطريقة ابن فورك. ثم درس كتب أبي بكر الباقلاني، وبذلك صار القشيري بارعاً في الفقه، والأصول، ما دفع بالجويني إمام الحرمين إلى مصاحبته والحج معه برفقة أبي بكر البيهقي. كل ذلك وهو يتابع حضور حلقات أستاذه الدقّاق في التصوف، إلى أن رأى فيه شيخه قبساً من النبوغ، والعطاء فزوّجه كريمته. ومات أبو علي الدقاق وهو في غاية الاطمئنان على محاضرات التصوف بين يدي تلميذه الذي أجمع أهل عصره على

أنه سيد زمانه، وقدوة وقته، وبركة المسلمين في ذلك العصر. وعندما نال القشيري هذه الشهادة أصبح أستاذ خراسان بدون منازع. ولاحظ القشيري أن التصوف جنح للركود عند كثير من أتباع المنهج، وأصبح مجرد انتسابٍ ومظاهرَ وتَعلُّقٍ بالقشور، وتهاونٍ في السير إلى الله، فألّف رسالته القشيرية التي بيّن في المقدمة دافعه إلى تأليفها، وذكرنا ذلك في مبحث «التصوف الرباني والتصوف البشري» من هذا الكتاب. ويقول أستاذ التصوف والأخلاق بالدراسات العليا بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر الدكتور محمود بن الشريف، المشارك في تحقيق الرسالة: «ففي أوائل ذلك القرن رأى الإمام القشيري نواحي تنبعث منها روائح الانحراف الديني ومناحي تخالف التعاليم الأصيلة، وتجافي السلوك الإسلامي... فخشي أن تمتد أثواب الباطل لتغطي وجه الحق... ولكي لا تضيع معالم الحق بين متاهات الباطل، ولأجل أن يضع حداً فاصلاً بين التصوف الصرف والتصوف الزائف، أخرج هذه الرسالة لتكون النبع الصافي الذي ينهل منه كل دارس للتصوف ومستشرق للنور... وقد صدّر رسالته بمقدمة عرض فيها، بإيجاز وعمق وتركيز، خصائص التصوف والسلوك الصوفي ومناخه العقدي وتياره التاريخي، ثم كشف عن نفسيات المنتفعين من السوقة المتسربلين برداء التصوف المتسترين به ليخفوا وراءه

نوازعهم الشريرة ومنازعهم الآثمة، ثم فضح حال المستهينين بالعبادة المتجرّئين على الله الذين تحلّلوا من تبعات التكاليف بحجة أنهم قد وصلوا وتحرروا وكوشفوا بالأسرار وزالت عنهم أحكام البشرية... ويؤكد أن الدين هو التصوف لا فارق ولا اختلاف، ويُعرّض بهؤلاء المنحرفين الذين أحدثوا فراغاً وهوّةً بين الدين وبين ما زعموه أنه تصوف، وخلص إلى أن الصوفي هو الوَرِعُ النَّقيُّ المتمسِّك بآداب السنّة وتعاليم الديانة... ثم يدلف إلى مفاهيم التصوف التي هي مفاهيم الإسلام وكليّاته، فيفسرها ويفصلها ويدعمها بآيات من كتاب الله ويطعّمها بأحاديث من هَدي رسول الله ﷺ، فيفرد أبواباً يتحدث فيها عن التوبة والتقوى والورع والخشوع والصبر والرضا، وعن الغيرة والحرية وعن التوحيد والعبودية، وعن الإخلاص والاستقامة، وعن السلوك والأخلاق، وغير ذلك من الكليات»[٤٩٠]. وهذه «الكليات» التي أشار إليه محقق الكتاب هي نفسها «المنازل» عند الهروي، و«المدارج» عند ابن القيم. فقد سعى الإمام القشيري، من خلال رسالته، إلى إيضاح حقيقة منهج التصوف، وإرشاد الصوفية لتصحيح توجههم وسلوكهم، وفضح كذب المتسترين بالتصوف ومدّعي الانتساب إليه بلا حقيقة. رحمه الله وجزاه عن أهل الحق خيراً.

---

٤٩٠ الرسالة القشيرية، للقشيري، مقدمة المحقق، ص٤، ٥.

أبو إسماعيل الهروي

شيخ الإسلام الإمام القدوة الحافظ عبد الله بن محمد الأنصاري، من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ولد عام ٣٩٦هـ، وأخذ عن كثير من العلماء الأجلاء، وأخذ عنه مثلهم، قال عنه الذهبي: «له عدد من الكتب: الأربعون في دلائل التوحيد، والفاروق في الصفات، وذم الكلام وأهله، ومنازل السائرين، وأشياء. كان سيفاً مسلولاً على المخالفين، وجِذعاً في أعين المتكلمين، وطوداً في السنة لا يتزلزل، وقد امتُحن مرات. قال ابن طاهر: سمعته يقول بِهَراةَ: عُرِضْتُ على السيف خمس مرات، لا يقال لي ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي اسكت عمن خالفك، فأقول لا أسكت. وسمعته يقول: أحفظ اثني عشر ألف حديث، أسردها سرداً. قال أبو النضر الفامي: كان أبو إسماعيل بكر الزمان وواسطة عقد المعاني وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن، منها نصرة الدين والسنة من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير، وقد قاسى بذلك قَصْدَ الحساد في كل وقت، وسعوا في روحه مراراً، وعمدوا إلى إهلاكه أطواراً، فوقاه الله شرَّهم وجعل قصدهم أقوى سبب لارتفاع شأنه. قلت: تَخرّج به خلق كثير، وفَسّر القرآن مدة، وفضائله كثيرة... وله قصيدة في السُّنّة سمعناها، غالبها جيد، وله مجلد في مناقب الإمام أحمد بن حنبل... قال السُّلفي: سألت المؤتمن عنه

فقال: كان آية ﴿ لسان التذكير والتصوف من سلاطين العلماء... وكان يدخل على الأمراء والجبابرة فما يبالي بهم، ويرى الغريب من أهل الحديث فيبالغ ﴿ إكرامهم، وسمعته يقول: تركت الحيريَّ لله، قال: وإنما تركته لأنه سمعت منه شيئاً يخالف السنّة. قال ابن طاهر: سمعته يقول: إذا ذَكَرَ التفسير: فإنما أذكره من مئة وسبعة تفاسير، وسمعته ينشد على منبره:

أنا حنبليٌّ ما حييت، فإن أمت فوصيّتي للناس أن يتحنبلوا»[491]

وقال عنه ابن القيم: «كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: عمله خير من علمه، وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد أهل البدع لا يُشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة ﴿ نصرة الله ورسوله ﷺ، وأبى أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ»[492].

لقد أسهم الهروي، الذي جاء بعد وفاة الجنيد بنحو قرن (٣٩٦ هـ) ﴿ تجديد طريق التصوف، فنفض عنه ما لحق به من غبار الجهلة، وحارب البدع وأحيا طريقة الجنيد وأمثاله من السابقين، فصنف أهم كتاب ﴿ مراحل السير التي يمر بها المريد ﴿ سلوكه طريق التصوف وسيره إلى الله عز وجل، وهو كتاب «منازل السائرين»،

---

[491] تذكرة الحفاظ، للذهبي، ص١١٨٤ - ١١٨٦.
[492] مدارج السالكين، لابن القيم، ج٣، ص٣٦٦.

وهو، وإن لم يشرح ويفصل، واكتفى بذكر المنازل في تعداد تسلسلي، فإن كل من كتبوا في هذا المضمار من بعده كانوا عالة على كتابه هذا، ومنهم الغزالي وابن عجيبة، وغيرهم. ولا نشك في أنه استفاد فيه من الرسالة القشيرية، وقد حظي كتابه هذا بعناية خاصة من أهل التصوف ومن أتباع المدرسة السلفية الأصيلة، فشرحوه شروحات عدة، منها شرح الشيخ حسن بن محمد الفركاوي القادري، وشرح كمال الدين عبد الرزاق القاساني، وشرح الشيخ عبد المعطي بن أبي الثناء اللخمي الإسكندري، وشرح عفيف الدين التلمساني، ولعل أبرز الشروح وأشهرها كان شرح ابن قيم الجوزية تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي انتشر انتشاراً واسعاً بين السلفيين والصوفيين على حد سواء، ليكون شاهداً على اعتراف المدرسة السلفية بصحة هذا المنهج وسلامته من كل ما يَنسُبُ إليه المدّعون متخذين نماذج من المتصوفة الجهلة، وممن طُعِن في صحة انتسابه إلى التصوف كالحلاج، وممن اتخذوا التصوف غطاء لباطنيتهم كالسهروردي المقتول، ومن القائلين بالحلول والاتحاد الذين أخرجهم ابن تيمية من دائرة التصوف، وليظهر جوهر التصوف وحقيقته المشرقة وأنه سير إلى الله سبحانه على منهاج الشريعة الإلهية والسنة المحمدية وموافقة إجماع الأمة.

أبو حامد الغزالي

ولد عام ٤٥٠هـ، أي أنه عاصر شيخ الإسلام الهروي، إلا أنه لم يذكر أنه أخذ عنه، ربما لأنه تفقه على المذهب الشافعي، وكان الهروي حنبلياً متعصباً لمذهبه، وكان عمره خمسة عشر عاماً حين توفي أبو القاسم القشيري، رحمه اللّه علماً بأن الغزالي سافر في طلب العلم من مسقط رأسه في إحدى قرى طوس، وأخذ عن جلة علماء عصره، ومنهم إمام الحرمين الجويني في نيسابور، وبعد أن أتقن الفقه الشافعي والعقيدة الأشعرية، درس علوم الفلسفة والباطنية، ثم عَكَف على قراءة ودراسة علوم الصوفية، ثم عيّنه الوزير نظام الملك مدرساً في المدرسة النظامية ببغداد، وصحب الشيخ الفضل بن محمد الفارمذي في نيسابور، وهو تلميذ أبي القاسم القشيري، فتأثر به، ولاحظ على نفسه بُعدَه عن حقيقة الإخلاص للّه وعن العلوم الحقيقية النافعة في طريق الآخرة، وشعر أن تدريسه في النظامية مليء بحب الشهرة والعُجُب والمفاسد، وهو القائل: «طلبنا العلم لغير اللّه فأبى أن يكون إلا للّه». وقد استفاد الغزالي من تعلمه علم المنطق، وإيغاله في العلوم العقلية، في المحاججة والاستدلال، فكان يحتج بالعقل على مدّعي الانتساب إلى التصوف من القائلين بالحلول والاتحاد، «ويرى أنه قد ينكشف للصوفي ما لا يمكن للعقل إدراكه، ولكن ليس من الممكن أن ينكشف له شيء يحكم العقل

باستحالته، فالعقل عنده هو الميزان الذي قيضه الله للإنسان لقياس مدى صدق معارفه، ووضع الحدود لها، ومن ثم فإنه ليس ثمة تعارض بين مقتضيات التعقل، وشؤون الإيمان الديني، ويرى أن من لم تكن بصيرته الباطنية ثاقبة فلن يعلق به من الدين إلا قشوره. أما في مسائل الإلهيات والغيب فيقرر أنه ليس للعقل دور أكثر من تقبلها والتسليم بصدقها. ومما لا شك فيه أن الغزالي قد أسهم، بتلك العقلية الواعية، في تنقية التصوف من كثير من البدع والانحرافات، وأعطى التصوف والحياة الروحية بُعداً عقلياً جديداً، وإذا كان الإمام الأشعري قد خلّص علم الكلام من السفسطة الساذجة للمتكلمين القدامى المقتدين بالجدل اليوناني، فإن الإمام الغزالي قد أكد للإسلام قوة الحياة الدينية، بتقرير الاعتراف بما نبت فيها من تصوف، وأسسه تأسيساً فلسفياً»[٤٩٣]، وينسب إلى الغزالي أكثر من ٣٦٠ كتاباً، بعضها منحول وبعضها مشكوك في نسبته إليه، وبعضها مخطوطات، وبعضها أجزاء من مؤلفاته الأخرى، أما الكتب المؤكدة نسبتها إليه فقد حصرها المحققون في اثنين وسبعين مؤلفاً، أشهرها: «تهافت الفلاسفة»، و«فضائح الباطنية»، و«المنقذ من الضلال»، و«إحياء علوم الدين»، ويعد

---

٤٩٣ الإمام الغزالي- لمحات من منهج خلقي، في ذكرى وفاته، سمير حلبي، موقع إسلام أون لاين: https://cutt.us/gzali.

الأخير أكثر كتبه انتشاراً واشتهاراً وكثرة طبعات ووجود نسخ من مخطوطاته في جميع المكتبات العالمية، فقد تضمن الكتاب مشروعه الإصلاحي وشرح المفاهيم والمعارف الروحية (الصوفية) في ظل الشريعة، واستفاد من سابقيه في منازل السلوك والتفصيل فيها، وسبب تسمية الكتاب بـ«إحياء علوم الدين» القناعة التي وصل إليها الغزالي بأن العلم والفقه الحقيقي هو الذي ينعكس على سلوك الإنسان نتيجة يقينه بأن «الآخرة خيرٌ من الأولى»، والكتاب متداول عند عامة المسلمين، لما فيه من قيم روحية وشواهد قصصية مما يستهوي العامة، ولما فيه إرشاد وتوجيه خالص إلى الله سبحانه وتصحيح النية والسير، ما يشبع الجوانب الروحية عند الإنسان المتعطش إليها. ولم يخلُ الكتاب من مواطن ضعف، وقد امتدحه عدد من علماء المسلمين، حتى قال بعضهم: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء»، وقال المحدث عبد الرحيم العراقي، الذي خرّج أحاديث الكتاب: «إنه من أجلِّ كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دَقّتْ عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه»، وألّف آخرون عدداً

من الكتب في شرح واختصار «الإحياء» والدفاع عنه، من ذلك «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» لعبد الرحيم العراقي. وكتاب «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» للزبيدي، و«تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» لعبد القادر العيدروس، وكذلك ألف الغزالي نفسه كتاباً للرد على من انتقد «الإحياء» في عصره، أسماه: «الإملاء على مشكل الإحياء» أما الاختصارات، فقد اختصره أخوه أحمد الغزّالي في كتاب «لباب الإحياء»، وابن الجوزي في «منهاج القاصدين»، وبعض الباحثين يرون أن كتاب «الغنية» للشيخ عبد القادر الجيلي، مختصر لكتاب «الإحياء» كونه كتب على المنهجية نفسها والنَّفَس ذاته، وسعيد حوى في «المستخلص في تزكية الأنفس»، وغير ذلك كثير. وفي الجهة المقابلة ذمّ عدد من العلماء «الإحياء» منتقدين فيه كثرة الأحاديث الضعيفة[٤٩٤] وإيراده قصص الصوفية، وقد أقر الغزالي بضعفه في علم الحديث، فقال: «أنا مُزجَى البِضاعةِ في الحديث». وألف عددٌ من العلماء كتباً في الرد على الإحياء، منهم ابن الجوزي، الذي اختصره من قبل، ثم ألّف: «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»، وغيره، حتى وصل الأمر أن أُمر بحرق كتاب «الإحياء»

---

[٤٩٤] تصنيف الحديث بأنه ضعيف لا يعني أنه موضوع، فقد يكون صحيحاً، لذلك رأى الفقهاء أنه يؤخذ به في فضائل الأعمال ولا يؤخذ به في العقيدة والعبادات والحلال والحرام.

في قرطبة، في عهد علي بن يوسف بن تاشفين! وقد ترك الغزالي المدرسة النظامية ببغداد، وانصرف إلى العزلة، وساح عشرة أعوام، تنقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة المكرمة والمدينة المنورة (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)، وكتب خلال رحلته كتاب «الإحياء»، وكانت نتيجة رحلته الطويلة تلك أن قال: «وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدْرُ الذي أذكره لِيُنْتَفَعَ به أني عَلمتُ يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقةٍ، طهارتُها - وهي أول شروطها - تطهيرُ القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحُها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة؛ استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرُها الفناء بالكلية في الله، ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات»[٤٩٥].

---

٤٩٥ المنقذ من الضلال، للغزالي، ص١٣٩، ١٤٠.

عز الدين بن عبد السلام

شيخ الإسلام وسلطان العلماء، صاحب المواقف المشهودة، الذي لم يخشَ في الله لومة لائم، الذي أفتى بخلع السلطان في دمشق حين وضع يده بيد الصليبيين لشن حرب على دولة مسلمة، والذي باع السلاطين المماليك في سوق النخاسة فاشتروا أنفسهم منه، وغالى في أثمانهم بالمزاد، وقبض ثمنهم وصرفه في مصارف الزكاة، العالم الشجاع الذي وقف في وجه السلطان حين فرض الضرائب الكبيرة على الشعب لأجل محاربة المغول، فقال له: جواريكم لديهن من الحلي والمجوهرات ما يكفي، فخذوا حليهن ومجوهراتهن، فإن لم تكف فعند ذلك يمكنك إتمامه من مال الشعب، وهو الذي اطّلع على السلطان في يوم عيد فرآه في أبهة السلطنة وحوله القادة والرؤساء، فناداه باسمه من دون ألقاب، وقال له: أتجلس هذا المجلس وفي بلدك تباع الخمر! فسأله أين ذلك؟ فقال له: في المكان الفلاني خمارة، فأرسل السلطان من فوره جنوداً لهدمها. ولد العز في دمشق، وتتلمذ لعلمائها، ومنهم ابن عساكر، فحفظ القرآن ودرس الفقه، سافر في طلب العلم إلى بغداد، ثم رجع إلى دمشق وتولى الخطابة في مسجدها الكبير (الأموي)، إضافة إلى التدريس في مساجد دمشق، ولم تكن له علاقة بالتصوف لا من قريب ولا من بعيد، بل كان من المنكرين عليه وعلى الصوفية أشد الإنكار، وحين خرج من

دمشق إلى مصر استقبله السلطان نجم الدين أيوب وأعطاه وظائفه جميعها التي سلبت منه في دمشق حين خلع السلطان إسماعيل، فأصبح قاضي القضاة في مصر، وحين قدم الشيخ أبو الحسن الشاذلي من تونس إلى مصر، واجتمع حوله الناس يستمعون إلى مواعظه وحكمه ودروسه، جاءت وشاية إلى قاضي القضاة العز بن عبد السلام بأن مشعوذاً اجتمع الناس حوله يتكلم بكلام لا عهد لنا به في كلام الفقهاء، وإنما هو شعوذة وتدجيل، فجمع رجال شرطة وأخذ القيد معه ليعتقل الشيخ الشاذلي، وفي الطريق لقيه شخص من معارفه، فقال له: إني عازم على القبض عليه. فقال له الرجل: أسمعته حتى تتبين صدقه من كذبه؟ فقال العز: لا، صدقت. فجعل القيد في خصره وتوجه إلى منزل الشاذلي، ودخل عليه، وأبقى رجال الشرطة خارجاً، وشرع يسأل أسئلة دقيقة في علم التوحيد، فيشير الشاذلي إلى أصغر تلامذته ليجيبوه، حتى سأل العز عن مسألة فتكلم الشاذلي بالمعارف والأذواق، ما بهر العز، فجلس بين يدي الشاذلي متأدباً، وقال له: والله لقد تبتُ يا سيدي، وأكب على يديه يقبلهما، فقال له الشيخ أبو الحسن: أين القيد؟ والله إلا قيّدتني. عندها قام العز متعجباً، فقال الشاذلي: «أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائسَ المجرمون». وخرج العز، ثم صار يتردد على مجلسه متخفياً بزي أعرابي مرة، وفَلاحٍ مرة، حتى حضر

مجلساً، وكان ملثّماً، فتكلم الشاذلي بشرح الرسالة القشيرية بأشياء فتح الله عليه بها، عندها نهض العز وكشف لثامه وراح يجري في صحن الجامع قائلاً: اسمعوا هذا الكلام الغريب العجيب القريب العهد من الله! ومنذ ذلك سلك طريق التصوف على يد الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ولزم مجالسه، سواء في المساجد أو في خيمة الحرب التي عقدت إبان الغزو الصليبي في واقعة المنصورة، فقد كانا من المشاركين في الجهاد في تلك المعركة. وللعز بن عبد السلام أكثر من أربعين مؤلفاً في العقيدة، وعلوم القرآن، والفقه وأصوله، والحديث الشريف، والسيرة النبوية، والتصوف، وعلوم أخرى. وأشهر كتبه في التصوف «خلاصة زبد التصوف»، المسمى بحل الرموز ومفاتيح الكنوز، وفيه تحدث عن منازل القربات، ومحبة الله، ودرء شبهة التشبيه، وكيفية التعرف إلى الله وحقيقة المعرفة، وصفاء الأحوال، ولم يَفُتْهُ أن يتكلم على السماع والرقص، فقال: «ومجمل القول في ذلك أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه وتذكر به حظوظ دنياه، فاستثار بسماعه وسواس هواه، فالسماع عليه حرام محض، ومن سمع فظهر له ذكر ربه وخوفه من ذنبه وذكر آخرته، فأتيح له ذلك الذكر شوقاً إلى الله تعالى وحباً فيه ورجاء لوعده وخوفاً من وعيده فسماعه ذكر من الأذكار، مكتوب في صحائف الأبرار،

ولقد أشرت إلى هذا المعنى ﰲ هذه الأبيات:

إذا ما كُنْتَ مُسْتَمِعاً لِقَوْلٍ فَبِالقَلبِ اسْتَمِعْ مِنْ قَبْلِ أُذنِ

وَأَلْقِ السَّمْعَ تَشْهَدْ كُلَّ مَعنى وَتَسْمَعْ في شُهودِكَ كُلَّ فَنِّ

وَمَنْ يَكُ وَجْدُهُ وَجْداً صَحيحاً فَلَمْ يَحْتَجْ إلى قَوْلِ الْمُغَنّي

لَهُ مِن ذاتِهِ طَرَبٌ قَديمٌ وَسُكْرٌ دَائِمٌ مِنْ غَيْرِ دَنِّ

فَدَعْني مِنْ تَغَزُّلِ قَيْسِ لَيلى وَمِن أَبْياتِ شِعْرِ جَميلِ بُثْنِ

فَبِي شَغَفٌ عَنِ الأَشْعارِ يُلْهِي وَبِي طَرَبٌ عَنِ الأَوْتارِ يُغْنِي[٤٩٦]

ومن الواضح أن مضمون الأبيات يشير إلى كراهته ذلك، وقوله: «وألق السمع تشهد كل معنى» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٤٩٧]، **فهو إشارة إلى أولوية الاستماع إلى القرآن الكريم، والبيت الثالث يؤكد فيه أن صاحب الوجد الصحيح لا يحتاج إلى سماع المغنين، لأن طربه مطبوع ﰲ ذاته، ثم يؤكد: دعني من أشعار الغزل لأن شغفي بربي يشغلني عن الاستماع إلى الأشعار، وطربي بحال الشهود يغنيني عن الأوتار وآلات الطرب. وقد قال ﰲ الرقص والتصفيق: «وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن**

---

[٤٩٦] زبد خلاصة التصوف، للعزبن عبد السلام، ص١٦٣.
[٤٩٧] سورة ق: ٣٧.

أو متصنع كذاب، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ﴿خيرُ القرونِ قرْني، ثمَّ الَّذين يلونَهم، ثمَّ الَّذين يلونَهم﴾[٤٩٨]، ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يُقتدى بهم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله عز وجل، ولقد مالوا في ما قالوا وكذبوا في ما ادّعوا»[٤٩٩].

وعلى رغم أنه كان شديداً في الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وكان لا يخاطب السلاطين بالألقاب، فإنه كان ليِّنَ الجانبِ رقيقَ القلبِ عطوفاً مع العامة، فكان لا يرد سائلاً، ولم يكن يقبل عطايا السلاطين وهداياهم، وحين مرض مرضه الذي مات فيه أرسل إليه السلطان الظاهر بيبرس يطلب منه ترشيح أحد أبنائه ليتسلم مناصبه من بعده، فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين بن بنت الأعز - وهو أحد تلاميذه - ففُوِّضَتْ إليه[٥٠٠].

ولاتصافه بكل هذه الصفات النبيلة، وما جعل الله له من المحبة والقبول عند الناس كان أثره في الحياة الدينية والإرشاد عظيماً.

---

[٤٩٨] جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ٢/ ٤٧٧.
[٤٩٩] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، ج٢، ص٢٢١، ٢٢٢.
[٥٠٠] زبد خلاصة التصوف، التعريف بالعز، ٦٩.

سعيد حوى

سعيد بن محمد ديب بن محمود حوّى النعيمي، درس بكلية الشريعة بجامعة دمشق، وتتلمذ لعدد من أهم أساتيذ الشريعة من أمثال الفقيه مصطفى الزرقا، وفوزي فيض الله، ومعروف الدواليبي، وفي مقدمتهم الدكتور مصطفى السباعي أول مراقب لجماعة الإخوان المسلمين بسورية، كما درس على يد عدد كبير من الأساتيذ، منهم الشيخ محمد الحامد، والشيخ محمد الهاشمي، والشيخ عبد الوهاب دبس، والشيخ عبد الكريم الرفاعي، وتخرج في الجامعة سنة ١٩٦١م، سافر إلى السعودية سنة ١٩٦٦م، وعمل مدرساً للغة العربية والتربية الإسلامية، وبعد أربع سنوات عاد إلى سورية ليتابع التدريس في مدارسها ثلاث سنوات، ثم تعرض للاعتقال والسجن خمس سنوات، لمشاركته في البيان الذي صدر في سنة ١٩٧٣م مطالباً بإسلاميّة سورية ودستورها. واستغل سعيد حوى الفترة التي قضاها في السجن، فألف عددًا من الكتب، أهمها «الأساس في التفسير» الذي طبع في أحد عشر مجلدًا، وبعد خروجه من المعتقل، تولى قيادة جماعة الإخوان في ظروف بالغة الحرج، ثم ترك ذلك إلى المشاركة في قيادة التنظيم العالمي لقيادة جماعة الإخوان (١٩٨٢ - ١٩٨٤م)، ثم عاد إلى المشاركة في قيادة الإخوان في سورية (١٩٨٥ - ١٩٨٧م)، حيث أجبرته ظروفه الصحية على اعتزال

العمل القيادي، وكان قد انتقل إلى الأردن وأقام فيها إلى وفاته، حيث دفن هناك، رحمه الله. كان له قبول عام بين المسلمين، ويكاد يجمع كل من عرفه على تواضعه وزهده وبساطته في المظهر وتدينه وحرصه على التعبد وتلاوة القرآن، كما كان منشغلاً بالقضايا العامة للمسلمين، والعمل على إيجاد الحلول لها، وعُرف بجُرأته في ما يقول ويكتب، وبروحه المتسامحة وأخلاقه الطيبة، ونفسه الزاهدة، وقد توالت طبعات كتبه ومؤلفاته دون إذن منه، وتربّح من ورائها الناشرون، ولم يُقم بسبب ذلك مشكلةً مع أحد، إذ كان يسعى إلى أن ينتشر فكره في أوسع قطاع ممكن من الناس، ولم تكن له أهداف ربحية. وكان قريباً من الناس وذا شعبية كبيرة، يأسر الناس بخطابه ويشدهم بحديثه ومنطقه الدقيق وثقافته العالية. كما كان رقيق القلب، مرهف الشعور، يغلبه البكاء حين يسمع قضيةً إنسانيةً مؤلمةً، وبخاصة ما يتصل بالشعوب الإسلامية. وله ثمانية عشر مؤلفاً، أهمها الأساس في التفسير في أحد عشر مجلداً، والأساس في السنة وفقهها، في أربعة عشر مجلداً[٥٠١]. ومن يقرأ سيرته العطرة يتذكر شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، رحمه الله. وعلى رغم أن الإسلاميين المنخرطين في العمل السياسي كانوا بعيدين عن التصوف، بل وإن كثيراً منهم كانوا مناوئين للتصوف

---

[٥٠١] موسوعة ويكيبيديا، بتصرف.

وأتباعه، لأنهم كانوا يرون فيه منهجاً تواكلياً يركن إلى العزلة والاشتغال بالذكر والسلوك عن المشاركة في قضايا الأمة المصيرية والسياسة، غير أن سعيد حوى بسعة فكره وبُعد نظرته ونفاذ بصيرته رأى في التصوف مشروع أمة، ومستقبلاً عالمياً للإسلام وطريقاً نقياً للدعوة إلى الله تعالى، بلا تعصب لطريق أو منهج أو حزب. فصنف عدداً من الكتب تدور في فلك التصوف، وهي: «تربيتنا الروحية»، الذي حاول فيه أن يبسّط التصوف ويقرّبه إلى الناس، ويقارب فيه بين وجهتي النظر السلفية والصوفية، متلمساً طريق الحق والعدالة في الأحكام بلا عصبية لجهة أو تيار، و«المستخلص في تزكية الأنفس»، وهو - كما مر بنا - مختصر لكتاب الغزالي «إحياء علوم الدين» ، لكن بطابع فكر سعيد حوى ورؤيته، و«مذكرات في منازل الصديقين والربانيين»، شرح فيه الحكم العطائية، إضافة إلى أن كتابه «كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر» تضمن إحدى عشرة رسالة، من بينها «إحياء الربانية»، وثانية بعنوان «غذاء العبودية»، وأخرى بعنوان: «أخلاقيات وسلوكيات تتأكد في القرن الخامس عشر» وكلها تتناول التصوف أو تقتبس منه أو تدور في فلكه. ولم يكن سعيد حوى في كتبه يسعى إلى الدفاع عن التصوف، فهو يراه منهجاً سلوكياً أخلاقياً لا يحتاج إلى إثبات صحته وجدواه، وإنما كان مشروعه أكبر من ذلك، فهو يرى في التصوف

صورة سلفية، كتلك التي استعرضناها في سير المتقدمين من الصوفية الذين أقر إمام المدرسة السلفية شيخ الإسلام ابن تيمية بفضلهم وعلوّ مكانتهم وصحة منهجهم، بل وصنف عدداً منهم في أولياء الله، فكان يسعى إلى لفت أنظار السلفيين المعاصرين إلى حقيقة التصوف وجوهره، فقد صدّر كتابه «تربيتنا الروحية» قبل المقدمة بعبارة: «ملاحظة: كنتُ أزمعت أن أخرج هذا الكتاب تحت عنوان: تصوف الحركة الإسلامية المعاصرة، ولكن لملابسات متعددة جعلته: تربيتنا الروحية»[٥٠٢]، فهو - رحمه الله - كان يرى أن الحركة الإسلامية المعاصرة يجب أن تقترن بالتصوف لتضمن نجاحها، وذلك لما في التصوف من إخلاص لله وتجرد من كل الحظوظ المتعلقة بالنفس أو الانتماء، ويقول: «ولقد حاولنا في هذه السلسلة أن نقدم نوعاً من التصوف المحرر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب أهل الحق؛ إيماننا أن هذا وحده الذي يجب أن يكون، وأن يصير إليه الناس جميعاً، فالسير إلى الله يجب ألا يُلغى، بل يجب أن يكون حثيثاً، ولكن يجب أن يُحَرّر ويُدَقّق وأن تُحَرّر مسائله تحريراً دقيقاً، فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين، والمعصوم هو الكتاب والسنّة، وقديماً قال أكبر أعلام الصوفية في عصره أبو سليمان الداراني، رحمه الله: ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا

---

٥٠٢ تربيتنا الروحية، لسعيد حوى، ص٣.

أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة، لأن الله عز وجل ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في ما سوى ذلك»[٥٠٣]، فهو وإن رأى التصوف منهجاً صحيحاً يجب ألا تهمله الأمة، فإنه يرى أن ما يصدر عن الصوفية يحتمل الخطأ والصواب، والمعيار الصحيح له القرآن الكريم والسنة المطهرة، لذلك يقول: «فما جرينا عليه ودأب العلماء والصوفية بآن واحد، خلال العصور، نقول هذا ليعرف الصوفي والعالم بآن واحد أننا لم نأت بدعاً من الأمر، بل ما نحن فيه يجب أن يصار إليه، والعبرة للتحقيق، والحكم الفصل للنصوص، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٥٠٤]، والصدر مفتوح لكل كلمة تقال، سواء أقالها صوفي أم سلفي، بلا حساسية من أحد، فلا يليق بطالب علم أن يكون إلا عاشقاً للحق باحثاً عنه، إذا عثر عليه اعتنقه، أما غير ذلك فشأن أهل الأهواء»[٥٠٥]. ويؤكد الشيخ سعيد حوى أنه في منهجه هذا «صوفي سلفي»، لا يمالئ طرفاً على حساب الحق خوفاً ولا طمعاً، فيقول: «سيقول بعض الصوفية: إن هذا ما شم رائحة الذوق الصوفي، وأنه لم يعرف اصطلاحاتنا وأنه لا يحق له أن يتكلم في شيء لا يعرفه، وسيقول بعض أعداء التصوف:

---

٥٠٣ تربيتنا الروحية، لسعيد حوى، ص٩.
٥٠٤ سورة النساء: ٥٩.
٥٠٥ تربيتنا الروحية، لسعيد حوى، ص١١.

إن في هذا الكتاب خدمة لحلقات الصوفية القائمة على الخطأ؛ إذ كثيرون سيقرؤونه ويقتنعون بالسير... وسيتهمنا بعض الناس بأننا مناعون للخير... ولم يعد في العمر فسحة حتى أحسُب للخلق حساباً فلا أقول لهذه الأمة الإسلامية كل ما ينبغي أن يقال لها!

وبالإجمال أقول لأصناف الناس الذين ذكرتهم:

أ- لقد تتلمذت في باب التصوف على - من أظنهم - أكبر علماء التصوف في عصرنا، وأكثر الناس تحققاً به، وأذن لي بعض شيوخ الصوفية بالتربية وتسليك المريدين، واشترطت عليه ألا أقيّد نفسي بطريقة، وألا أتقيد في هذا الشأن إلا بالكتاب والسنة. أقول هذا ليعرف الصوفية أنني أتكلم - بفضل الله - عن علم وذوق، وليعرف غيرهم أنه لا يستهويني إلا الكتاب والسنة.

ب- إن الله عز وجل يقول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٥٠٦]، **فنحن مهمتنا التبصير، والله عز وجل يقول:** ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ﴾[٥٠٧].

ج- إنني حريص على أن يوجد نوع من التصوف السلفي، له شيوخه وحلقاته، حلقات العلم والذكر، وليس أمامي غير هذه الطريق.

د- لست حريصاً أن ينفضَّ الناس عن شيوخهم، ولست حريصاً أن

---

٥٠٦ سورة الكهف: ٢٩.

٥٠٧ سورة الإسراء: ١٥.

ينقطع خير، بل على العكس من ذلك؛ أتمنى أن تزداد الصلات الطيبة بين الناس، وأن تكثر حلقات الخير والعاملون لها، ولكن أن يكون ذلك كله مستقيماً على أصول الشريعة وفروعها، وألا يكون على حساب واجبات أخرى.

هـ- لقد ظهر من خلال التجربة للحركة الإسلامية المعاصرة أن الشيء إذا لم تكن أبعاده واضحة لا يؤتي ثماره.

و- وأخيراً فإن عصرنا عصر الشهوة وعصر النزوة وعصر المادية، ولا بد أن تقابل هذه الأشياء فيه بما يكافئها ويقابلها، وبجزم أقول: إن التربية الصوفية وحدها هي التي تقابل ذلك...»[٥٠٨].

لقد كانت دعوة الشيخ سعيد حوى، رحمه الله، دعوة صادقة نابعة من قلب غيور على الأمة، صادرة عن فكر واسع وعلم راسخ وتربية صحيحة، ومنطلقة من بصيرة نافذة، لكن الغريب أننا لم نجد لها ذلك التأثير في الجانبين؛ السلفي والصوفي على حد سواء!

---

[٥٠٨] مر بنا هذا القول وتتمته ص٣٢١، فلم نذكره هنا تجنباً للتكرار.

الزكي محمد إبراهيم
رائد العشيرة المحمدية

أبو البركات، الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم، ابن العالم الأزهري الشيخ إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي صاحب كتاب «المرجع... معالم المشروع والممنوع من ممارسات التصوف»، نشأ في أسرة جمعت بين النسب الشريف والعلم والفقه والتصوف والفكر، حفظ القرآن الكريم بين التاسعة والعاشرة من عمره، ونال شهادة «العالِمية الأزهرية» التي تعادل «الدكتوراه» الآن. أتقن عدداً من اللغات، منها الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، وترجم قصائد للشاعر الألماني هايني رش هايني، كما أتقن الفارسية وترجم قصائد للشاعر الصُّوفي محمد إقبال، نُشرت بمجلة «أبولو» التي كان ينشر فيها قصائده. فقد كان في الصف الأول من شعراء شباب جيله، وكانت له منزلته في النقد والأدب، واللغة، وقد نَشرت شعره في ذلك الوقت كبريات الصحف والمجلات الأدبية، وكان قد اختار من أشعار شبابه مجموعة سماها «الحصائد» وأخرى سماها «هشيم المحتظر» وكلا الديوانين مخطوط لم يطبع، ثم لما انصرف إلى الدعوة والتصوف ترك الشعر إلا نادرًا وفي الحالات النفسية، أو الروحية الملجئة، فهي نفثات وصور ومنازلات ذاتية، سماها «ديوان البقايا»، ودرس العلوم الفلكية، والروحية، والنفسية،

وجمع بين الثقافة المدنية المعاصرة وبين العلم الأزهري الأصيل، واهتمّ بتلقّي علم الحديث (رواية ودراية)؛ في وقت قلّت فيه رواية الحديث، وأصبح رواة الحديث في مصر والعالم الإسلامي يُعَدّون على الأصابع، ولم يتصدر لإعطاء الإجازة بالحديث إلاّ لنفرٍ محدود من كبار العلماء في العالم الإسلامي، فلمّا كانت سنة ١٤١٤هـ وبعد كثرة الإلحاح عليه، طبع إجازته الحديثية، وأجاز طلابه، وأجاز أهل عصره «إجازة عامة»، كما هو معروف عند أهل الحديث والأثر. وترك أكثر من مئة كتاب ورسالة في العلوم الدينية، ومئات البحوث والفتاوى والمقالات والخُطب والدروس، من أشهرها: «أصول الوصول»، و«أبجدية التصوف الإسلامي»، و«الإفهام والإفحام»، و«بركات القرآن على الأحياء والأموات»، و«فواتح المفاتح»، و«أهل القبلة كلهم موحدون»، و«معالم المجتمع النسائي»، و«الفروع الخلافية»، و«وظيفة الحديث الضعيف»، و«قضية الإمام المهدى»، وغيرها كثير، وغير ذلك مما لم يُطبع. كما كان للشيخ خطبه ودروسه ومحاضراته وفتاواه في الإذاعات ومحطات التلفاز المصرية والعربية، وله درس أسبوعي في كل من مسجد السيدة زينب، ومسجد سيدنا الحسين، ومسجد الإمام الشافعي، في رمضان بعد صلاة العصر، وفي السبعينيات كان له درس أسبوعي متخصص يُسمى «دراسات عليا في التصوف» يوم السبت. وخرج مجاهداً إلى

جبهة القتال في «معارك الاستنزاف» يشحذ همم الجنود بالدعاء والدعوة، ويشرح أحاديث الجهاد، ويروي قصص الرجال الذين جاهدوا في سبيل الله، وذلك في قوافل مع أبنائه ومريديه وزملائه علماء الأزهر، وكان يبيت الليالي في الخنادق مع الجنود، وكان له نشاط اجتماعي، من دعم وإنشاء مراكز علاجية، وتعليمية، وثقافية، ورعاية الأرامل، واليتامى، والطلاب المغتربين، والدارسين. وكرّمه رؤساء مصر: عبد الناصر، والسادات، ومبارك، والرئيس اليمنى السلال. وكان قد شغل عدداً من المناصب الحكومية والدينية، إضافة إلى عضويته في عدد المؤتمرات الإسلامية العالمية، فكان عضو المؤتمر العالمي للسيرة والسنة، وعضو مؤتمر التبليغ والدعوة العالمي. وكان شاذلي الطريقة، وقد تلقى عن والده أوراد وأسناد عدد من الطرق الصوفية تبركاً وسلوكاً، منها الكتانية والنقشبندية، والتجانية، والخلوتية. وقد أسس «العشيرة المحمدية» سنة ١٩٣٠م، لتكون وسيلته للدعوة الإصلاحية الإسلامية الصوفية العالمية الجامعة، وأسس «الطريقة المحمدية الشاذلية» رسمياً عام ١٩٥١ على منهج والده وجده، وعُرضت عليه «مشيخة الطرق الصوفية» بعد وفاة الشيخ الصاوي، فرفض. وكان أول من أصدر مجلة صوفية متطورة متحررة هي «مجلة المسلم» لسان حال «العشيرة والطريقة»، وهي أول مجلة متخصصة في بابها، لنشر

التصوف الراشد، والرد على الشبهات، وأول من أنشأ لجنة الدراسات الصوفية لإحياء التراث الصوفي بإشراف المجمع، وأول من حشد شعراء التصوف الإسلامي في حلقة لا نظير لها في العالم، وأول من جمع الكتّاب والعلماء والخطباء الصوفيين في دائرة تفتي وتكتب وتحاضر وتخطب وتناظر في أشهر المساجد وأكبر النوادي وأكثر المجلات المسلمة، وأول من جمع الصوفية الشرعيين في كتلة واحدة، على رغم اختلاف مشاربهم، في «مجلس العشيرة المحمدية» الإداري والاستشاري، وله الفضل في إنشاء «مكتب رعاية المهتدين إلى الإسلام» بالأزهر الشريف، وشارك في لجان تقنين الشريعة الإسلامية، وتفريغ الأحكام الفقهية في شكل مواد قانونية. كما أسس ونظم وأشرف على «مؤتمر تطبيق الشريعة»، بمشاركة أخيه في الله الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر وقتها، والشيخ حسنين مخلوف عميد الإفتاء، والشيخ محمد متولي الشعراوي. وأسس «الكلية الصوفية» بالعشيرة المحمدية، وأسس «الأكاديمية الصوفية العالمية»، مع كوكبة من علماء مصر، منهم: الدكتور العارف بالله حسن عباس زكي وزير الاقتصاد الأسبق، والمفكر الدكتور مصطفى محمود، والشيخ إبراهيم الدسوقي مرعي وزير الأوقاف الأسبق، والدكتور حسن على كمال وزير الري الأسبق، والسفير وحيد رمضان. كما دعا إلى «الجامعة الصوفية العالمية»

لتكون نواة للتجمع الإسلامي، ودعا إلى إخراج «دائرة المعارف الصوفية»، ودعا إلى إنشاء «معهد الدراسات الصوفية»، ودعا إلى مشروع «المؤتمر الصوفي العالمي»، ودعا إلى «ملتقى الفكر الصوفي المسلم»، ودعا الهيئات الإسلامية إلى التقارب والتعاون والتعاطف والانسلاخ من فتنة الدعاوى والاحتكام إلى الهوى، ودعا صوفية العالم إلى التكتل العملي، والترابط الإيجابي في سبيل الخدمة الإسلامية العامة الجامعة، ثم في سبيل تطهير التصوف، ونادى بضرورة تدريب وتثقيف مشايخ الطرق الصوفية، ونادى بضرورة إصلاح الموالد وأيام الله، بجعلها مؤتمرات لتدارس شؤون المسلمين، وتنشيط الحركة الاقتصادية والاجتماعية والترويحية النظيفة.

وكان - رحمه الله - مثالاً للداعية الإسلامي الرشيد الذي وهب كل حياته للدعوة، ومن العلماء العاملين حتى نهاية حياته، والأمر الأهم أنه كان من رواد التصوف والداعين إلى إصلاحه، فنادى بإصلاح الممارسات الخاطئة التي تنسب بهتاناً وزوراً إلى التصوف مما يمارسه المتصوفة وأدعياء التصوف من معتقدات وفِكَر وأعمال، ولجهاده في إصلاح التصوف وتنقيته من المخالفات الشرعية، اجتمع أكثر من ستين شيخاً من مشايخ الطرق الصوفية عام ١٩٥٣م، بمسجد سيدنا الحسين، وقرروا عزله من المشيخة، وأصدروا بياناً

جماعياً بذلك، ورجع إلى المشيخة بحكم «مجلس الدولة»، فكان السبب الحقيقي في إصدار «اللائحة الصوفية» الرسمية.

وعلى رغم مرضه الذي ألزمه بيته نحواً من عشرين عاماً، فإنه لم ينعزل عن العالم، ولم يترك الدرس والمحاضرة بعد صلاة الجمعة، واستقبال الزوار يومياً، وكان يحضر مجلسه، الوزراء والسفراء والمسؤولون، وكبار العلماء بالأزهر الشريف والجامعات المصرية والإسلامية، في تواضع. وكان مسكنه بين (القبور)، حيث كان يسميه «برزخاً» بين الأحياء والأموات، فقد كان زاهداً، معلماً، مربياً، مرشداً، وبيته قبلة للعلماء والدارسين، انتقل إلى جوار ربه عام ١٩٩٨م، عن عمر ناهز الثانية والتسعين، رحمه الله وألحقه بالصالحين»[٥٠٩].

يقول صاحب السيرة العطرة السابقة والإنجازات العظيمة، الشيخ الزكي محمد إبراهيم، في مقدمة كتابه «السلفية المعاصرة إلى أين؟»: «التصوف الشرعي هو التسلف الإسلامي، والتسلف الإسلامي هو التصوف الشرعي، لا فرق في الأصل بينهما أبداً، فكلاهما دعوة أساسها القرآن الكريم وما صح عن رسول الله ﷺ، ومن يراجع أسناد رجال الحديث الشريف لا يوشك أن يجد فيهم واحداً

---

[٥٠٩] جمعنا سيرة الشيخ الزكي محمد إبراهيم هذه من عدد من المصادر: محاضرات د. محمد مهنا في «يوتيوب»، وموسوعة «ويكيبيديا»، ومقدمة كتاب أبجدية التصوف، وما كتبه تلميذه الدكتور محمد زغلة، في صفحة مدرسة الإمام الرائد، في «فيسبوك».

إلا وهو موصول السند بالسادة الصوفية، والمحدّثين أركان السلفية. والخلاف المصنوع الذي حدث بين الصوفية والسلفية إنما كان أصله قديماً العبث السياسي، وإقحام الدين في خدمة المُلْكِ والحُكم، ثم أخذ هذا العبث لونه الديني المزيف مع التطور الزمني، وكان بعض الانحراف قد دب في المجال الصوفي، فأمكن منه المتمسلفة، ونحن حين ننقّي التصوف من مستغلقه ومدسوسه، وننقّي التسلف من اندفاعه ومجازفته وتهوره، إذا نقيناهما فلن تجد بينهما خلافاً أبداً»[٥١٠]، وكما فرّق الشيخ أحمد الرفاعي بين الصوفي والمتصوف، فرّق رائد العشيرة المحمدية بين السلفي والمتمسلف، فقال: «التمسلف هو التهور الذي ينقل أحكام الحرام والحلال إلى الإيمان والشرك، ويحكم على أهل القبلة كافة (عدا جماعته) بالخروج على الإسلام، ولا يبقي أديماً سليماً لمسلم... فيمزق الأمة شر ممزق، وهو يمهد - بعلم أو بجهل - للتبشير والاستعمار بتجريده التاريخَ الإسلاميَّ من الفضائل، وإشغاله الأمة بتوافه الأمور المختَلَفِ عليها، عن كفاح المتَّفَقِ عليه من أخطار الإلحاد والانحلال والفساد، ثم بتخريبه كل بناء مهما عظم، ما دام لم ينشأ على يد سلفي أو متمسلف»[٥١١]، أما السلفيون، فيقول

---

[٥١٠] السلفية المعاصرة إلى أين؟، لمحمد زكي إبراهيم، المقدمة، ص٥.

[٥١١] المصدر السابق.

فيهم: «السلفيون المعتدلون إخواننا:... ولهذا نقدّر كل التقدير كثيراً جداً من الشخصيات السلفية العاقلة المعتدلة الموزونة، وبيننا وبين كثير من هؤلاء الإخوة الأبرار العلماء تزاورٌ في الله وتعاون على البر والتقوى، ومحاورات ومناظرات علمية رشيدة في الله، من أمثلة ما كان في العهود السوالف»[٥١٢].

وقد نجحت دعوة رائد العشيرة المحمدية في جانب واحد هو الجانب الصوفي فقط، فقد التحق به أعداد كبيرة من الصوفية الواعين والمتعلمين ومن حملة الشهادات العالية والماجستير والدكتوراه، الذين يرون في منهجه تجديداً للتصوف وبعثاً له على طريق السلف من رجاله وأئمته.

---

٥١٢ السلفية المعاصرة إلى أين؟، لمحمد زكي إبراهيم، المقدمة، ص٩.

لماذا نجح التجديد عند السابقين
وفشلت محاولات المعاصرين

محاولتا الشيخين سعيد حوى، والزكي محمد إبراهيم، رحمهما الله، لم تنجحا في جذب السلفيين أو استمالتهم إلى الصوفية أو حتى تغيير نظرتهم إلى التصوف والحكم عليه من خلال معاينته لا من خلال الأحكام التي تأتيهم جاهزة معلبة، فيحفظونها ويرددونها، أو من خلال أفعال المتصوفة المنتسبين لا الأئمة العارفين، حتى قال الشيخ علوي السقاف: «ولقد اغتر الأستاذ سعيد حوى، رحمه الله، بما يفعله الرفاعية من كونهم يدخلون النار ولا تؤثر فيهم، ويضربون أنفسهم بالرصاص أو بالسيوف ولا يؤثر ذلك فيهم، معتبراً أن هذا من أعظم فضل الله على هذه الأمة»[٥١٣]، ويمكننا أن نُرجع عدم انجذاب السلفيين إلى الدعوتين إلى الآتي:

١- أن السلفيين تربّوا على بُغْضِ هذا المنهج، موقنين بأنه ضلال وبدع وقبورية وشرك، وكثير منهم يكفّر أتباعه.

٢- علماء السلفية المعاصرون لم يَقرَؤوا ابن تيمية ولا ابن القيم، وإنما قرؤوا ما بين أيديهم من كتب تضمنت أقوالاً مستلّةً استلالاً متقصّداً من كتبهما، مثل مناظرة البطائحية، وقصة الحلاج، وأقوال محيي الدين بن عربي، وأمثالهم.

---

[٥١٣] موقع الدرر السنية، للسقاف، موسوعة الفرق، الباب ١١، الفصل الرابع: الطريقة الرفاعية، المبحث الثامن: خوارق الرفاعية وموقف الرفاعي منها، المطلب الرابع: سعيد حوى والرفاعية.

٣- السلفيون استهوتهم فكرة التجديد، التي تستهوي كل إنسان، بشكل طبيعي، فتوجهوا بكليتهم إليها، وخصوصاً حين أُوغِرت صدورهم بفكرتي الشرك والقبورية، حتى غلب على ظنهم أنه لولا مجيء الإمام محمد بن عبد الوهاب لانتهى توحيد الله في الأرض، بل ظن بعضهم أن كلّ من هم خارج هذه الدعوة لم يعودوا على الإسلام، ويحتاجون إلى التوبة والنطق بالشهادتين ليدخلوا الإسلام من جديد متبرئين من ماضيهم ليسيروا على منهج السلفية المعاصرة الذي يرونه الممثل الوحيد للإسلام.

٤- ولما سبق لم يكن من المنطقي أن يَقرَؤوا لِعلماء من خارج دعوتهم، لظنهم أنهم وحدهم على الحق، وأن الصواب أن يتتلمذ علماء بقية البلاد وأتباع التيارات لهم ويقرؤوا كتبهم ويأخذوا عنهم، وليس العكس.

أما فشل دعوة الشيخ سعيد حوى في استمالة الصوفية إلى التصوف السلفي، مع أنه صوفي مُجاز في التصوف وفي تسليك المريدين، إلا أنه لم يكن يعقد المجالس ويتوافد مريدوه لحضورها والاستماع إلى إرشاده، فقد كان، رحمه الله، مفكراً لا إماماً، وربما يكون هذا سبباً رئيساً في أن دعوته لم يكن لها صدى عند الصوفية، وخصوصاً أنه محسوب على جماعة الإخوان المسلمين، فلم يكن نتاجه المكتوب يصل إلى كثير من البلاد التي حاربت هذه الجماعة، إضافة إلى أن

معظم الصوفية ملتزمون كتب الأوراد ومجالس مشايخهم، ومن يقرأ منهم فإنما يقرأ في كتب معدودة من كتب التصوف، وقلَّ أن تجد صوفياً قرأ الرسالة القشيرية أو منازل السائرين أو رسائل الجنيد، أو غيرها، وتأثير المجالس فيهم أكثر من تأثير الكتب.

وهنا لنا أن نتساءل: لماذا لم يستجب شيوخ الصوفية لدعوة الزكي محمد إبراهيم، رحمه الله، مع أنه كان إماماً صوفياً؟

والإجابة مضمنة في موقف مشايخ الصوفية من دعوته والبيان الذي أصدره بحقه أكثر من ستين شيخاً، فكثير من المشايخ في الأرياف والمناطق النائية ورثوا المشيخة عن آبائهم، ولم يبلغوها بعلم ولا فقه، لذلك فإنهم أمام أي محاولة تجديد، وخصوصاً إذا كانت تدعو إلى العلم وتحث على ترك البدع التي اعتادوا عليها، يرون فيها تهديداً لمشيخاتهم، فيصِمونها بأنها دعوة «وهابية» اختبأت في عباءة التصوف، لذلك يسارعون إلى مواجهتها وتحذير المريدين من صاحبها وخطورته، لأنهم يرون فيه طامعاً في أخذ مكانتهم بعد إزاحتهم، وهذا الشعور طبيعة إنسانية موجودة عند كل من يقوم على السُّدَّة في أي مركز قيادي ديني أو اجتماعي أو سياسي، إلا من أراد الحق وقصد وجه الله وزهد في المنصب والتصدر، وقليل ما هم. فيأتي رد الفعل سلبياً يضرُّ بهم من جهةِ حظوظ النفس في شهوة المشيخة، فينتفي الزهد منهم ويصبح مجرد أقوال بلا حقيقة،

ويضر بالمريدين من جهة بَقائهم في حدود ما يوجههم إليه أولئك المشايخ، فلا يتقدمون في سيرهم إلى الله ولا تتسع دائرة إفادتهم لتصل إلى المسلم المثقف الذي لا يرى في منهج الصوفية سوى أنه تخلف وجهل، كما تضر بمنهج التصوف نفسه، إذ يُعرض عن الجانب الشرعي المشرق في الموروث الصوفي الأصيل، ويبقى أسير جانب وحيد هو الموروث المُحدَث في التصوف الذي لم يُبْنَ على علم ولا فقه ولا سلوك حقيقي، فهو ليس أكثر من خرقة ومسبحة وسماع وذكر، ولا ينقّى من الأخطاء التي تشوه صورته وتكدر ماءه النقي. وقد قدم الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، رحمه الله، أولى محاضراته في شرح «الحكم العطائية» لابن عطاء الله السكندري بقوله: «هذه الحكم العطائية التي أنا على يقين بأن فيكم من لا يعرفها ولم يسمع - ربما - باسمها»، وهو صادق في قوله، لأن كثيراً من المشايخ لم يقرؤوها وإن كانوا سمعوا بها.

البطائحية المعاصرة

كلنا نعرف مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية مع البطائحية. والبطائحية نسبة إلى البطائح من توابع واسط في العراق، وكان الشيخ أحمد الرفاعي يسكن في إحدى قراها المسماة «أم عبيدة»، وقد مرَّ بنا قول الشيخ الرفاعي لتلاميذه: «لا تتّخذوني دَفّة المِكْدَية» أي: مِقْوَدَ وسيلة التسول والاسترزاق على اسمي، لكن جماعة اتخذوا الشيخ دفة المكدية وصاروا يطوفون بين الناس مدّعين أنهم من أتباعه، وتسموا باسم البطائحية، فكانوا يستعرضون الدخول في النار دون أن يمسهم ضرر، فخذلهم الله سبحانه على يد شيخ الإسلام ابن تيمية في مناظرة مشهورة. يقول صاحب موسوعة الدرر السنية علوي السقاف: «قال الذهبي في ترجمة الرفاعي: الإمام القدوة، العابد، الزاهد، شيخ العارفين، أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة، الرفاعي المغربي ثم البطائحي، وكان قدم أبوه من بلاد المغرب وسكن البطائح ... ثم توفي وأم أحمد حامل به. (سير أعلام النبلاء ٢١ / ٧٧)، ونشأ في كنف خاله الشيخ منصور الزاهد الذي اعتنى به. وكان شافعياً تفقه على مذهب الشافعي رحمه الله. قال الحافظ ابن كثير: ويقال إنه حفظ التنبيه في الفقه على مذهب الشافعي. (البداية والنهاية ٢١ / ٣١٢)، قال الذهبي: وكان كثير الاستغفار عالي المقدار، رقيق القلب، غزير

الإخلاص، وكان متواضعاً يجمع الحطب ويجيء به إلى بيوت الأرامل. وكان يقول: أقرب الطريق الانكسار والذل والافتقار، تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله - وتقتدي بسنة رسول الله ﷺ. وكان لا يجمع بين لبس قميصين، ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلاً، وإذا غسل ثوبه ينزل في الشط كما هو قائم يفركه، ثم يقف في الشمس حتى ينشف، وإذا ورد ضيفٌ يدور على بيوت أصحابه يجمع الطعام في مئزر. وقيل أُحضر بين يديه طبق تمر، فبقي ينقي لنفسه الحشف يأكله، ويقول: أنا أحق بالدون، فإني مثله دون. وكان لا يقوم للرؤساء، ويقول: النظر إلى وجوههم يقسّي القلب. ثم إن الذهبي قال في كتاب «العبر»: وكان إليه المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلمة والذل والانكسار والإزراء على نفسه وسلامة الباطن، ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزّغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق: من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا: «ما عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان» . (العبر للذهبي، ٣ / ٧٥)»[٥١٤].

ويضيف السقاف: «والذين غلوا في الرفاعي هم أنفسهم الذين رووا عنه أنه كان ينهى عن الغلو والشطح وما شابههما ويقول بأنهما «زندقة بشكل تصوف» . ويقول الرفاعي: «وإننا ما رأينا من عواقب

---

٥١٤ موسوعة الدرر السنية: https://cutt.us/refaie

أهل الغلو إلا أنهم ضلوا وأضلوا، وما رأينا من عواقب التشرع - يعني الاستقامة على الشريعة وملازمة السنة - إلا السلامة». (المعارف المحمدية، ص ٤٢). **وكان يحذر أتباعه من أن ينساقوا وراء حكايات المتصوفة وأكاذيبهم التي نسبوها إلى مشايخهم، كما أسلفت ذلك عنه، حيث قال: واحذر الفرقة التي دأبها التفكّه بحكايات الأكابر وما ينسب إليهم فإن أكثر ذلك مكذوب عليهم.** (الكليات الأحمدية، ص ١٢٢، ١٢٣). **وفي موضع آخر نجده يكشف الستار عن حقيقة ما يكمن وراء دعاوى الوجد والتخشع والتزهد والتصفية التي يدّعيها المتصوفة، فيقول لأحد تلاميذه: يا بني، إذا نظرت في القوم الذين ادعوا التصوف اليوم وجدت أن أكثرهم من الزنادقة الحرورية والمبتدعة، ورأيتهم أكثر الناس جهلاً وحمقاً، وأشدهم مكراً وخديعة، وأعظمهم عجباً وتطاولاً، وأسوأهم ظناً بأهل الزهد والتقوى.** (حالة أهل الحقيقة مع الله، ص ١٠٥)، **وكان رحمه الله يعيب على الصوفية موقفهم من الفقهاء وتذمرهم من إنكارهم الدائم عليهم قائلاً: قل يا أخي للمساكين المحجوبين من الصوفية: ما تريدون أن يوجد في قطركم هذا الرجل العالم يَدْفَعُ شُبَهَ الملحدين وأهل البدع والزيغ بالحجج الظاهرة.** (المعارف المحمدية، ص ٧٩)»[٥١٥].

ويقول الشيخ علوي السقاف: «لم يكذب أتباع طريقة على شيخهم

---

[٥١٥] موسوعة الدرر السنية: https://cutt.us/rfaie

كما كذب أتباع الرفاعي عليه»، وهذا بالطبع على رغم التحذيرات الكثيرة التي أطلقها الرفاعي، رحمه الله، وقد أورد السقاف عدداً منها، ذكرنا أحدها آنفاً. وقد فعلوا ذلك لأجل الكدية والتسول على ظهر الشيخ الرفاعي، فشوهوا سمعة الطريقة والتصوف. ولكننا وجدنا أنفسنا في هذا العصر أمام بطائحية من نوع جديد، تكذب لأجل الكدية والتسول، فتتزلف إلى السلفيين! فحين نهضت الدعوة السلفية في السعودية، وواكبتها نهضة اقتصادية هائلة اقترنت بمشاريع بناء كبرى وفد إليها كثير من الخلق، منهم من جاء فارّاً بدينه من تضييق السلطات، ومنهم من جاء طالباً للمال. والذين جاؤوا لطلب المال كانوا قسمين؛ أصحاب إمكانات علمية ومهنية نفعوا هذا البلد بما آتاهم الله، وانتفعوا بما آتى الله هذا البلد من خير. والقسم الثاني ممن كانوا بلا مؤهلات، فاتخذوا سبيلاً إلى قلوب المشايخ، فأطلقوا لحاهم وقصّروا ثيابهم وصبغوا، وتقدموا إلى المشايخ يتباكون ويقولون لهم: «كنا قبوريين مشركين غارقين في البدع والجهل، الدين في بلادنا موالد ومجالس غناء وحلقات رقص واستغاثة بالقبور والحج إليها ودعاء أصحابها ورفع الحاجات إليهم، حياتنا شركيات وبدع، وديننا ليس فيه من الإسلام إلا الاسم» . فاستوعبهم المشايخ السلفيون بقلوب طيبة وفرحوا بوصولهم إلى حظيرة الإسلام الصحيح، وبسطوا لهم

أيديهم بالخير والمساعدات المالية، وتوسطوا لهم في إيجاد وظائف وأعمال تدرُّ عليهم أرباحاً جيدة، وأمّنوا لهم مساكن بإيجارات رخيصة وأحياناً مجانية من أملاكهم أو من الأوقاف، بقلوب طيبة ظانين أنهم بذلك أنقذوا مسلمين من الضلال، ولم يعلموا أن كثيراً من أولئك لم يكونوا في بلدانهم يعرفون إلى المساجد طريقاً، ولا في حلقة علم مجلساً، مع أن حلقات العلم والفقه كثيرة، إلى جانب حلقات الصوفية، فليس الجميع صوفيين، إضافة إلى تباكي هؤلاء البطائحية المعاصرين بين يدي مشايخ السلفية على إخوانهم السلفيين في بلدانهم الذين يعانون من الفقر والتضييق فلا يستطيعون بناء مسجد ولا شراء كتب ولا التفرغ للعمل الدعوي في مواجهة الصوفية القبورية المبتدعة...، فانهالت عليهم المساعدات التي كان معظمها يذهب إلى مصالحهم من بناء بيوت أو شراء محال أو غير ذلك، وإن أعطوا منها شيئاً لأجل الدعوة السلفية فالنزر القليل. وقد أسهم هؤلاء البطائحية المعاصرون في نقل صورة مشوهة عن الإسلام في بلدانهم، وغرسوا في نفوس مشايخ السلفية الشك في إسلام أهل تلك البلاد، بل أوغروا صدورهم عليهم، حتى إننا سمعنا من بعضهم: كيف كنتم تصلون الجماعة ولا مساجد في بلادكم؟ بل يستغرب بعض من يروننا في المسجد فيتساءلون في تعجب: أأنتم مسلمون؟ وغير ذلك من التساؤلات ومظاهر الدهشة

التي تبدو على الوجوه حين يسمعون منا واعظاً يعظ أو داعية يتكلم بالإسلام والكتاب والسنّة. فقد استفاد هؤلاء البطائحية المعاصرون مالياً، ولكنهم لم يعلموا أي شرخ وسّعوا بين أبناء الأمة الواحدة وأي فتنة أشعلوا بين أبناء الدين الواحد، فأسهموا في جعل الأمة شيعاً، وانصرف العلماء إلى التأليف في ذم وتكذيب وتكفير الصوفية والأشاعرة، بدلاً من الاجتهاد والعمل الدعوي، في وقت كانت فيه دائرة الإلحاد تتسع والمواقع تنشر فِكْرَهم والقنوات الفضائية تشرع أبوابها لهم، فيتكلمون باسم الإسلام ليهدموه من داخله، فيفسر القرآن جاهل، وينتقد الأحكام الشرعية سفيه، ويدعو إلى تجديد الخطاب الديني أفّاك يريد تطويع الإسلام ليواكب السفور والاختلاط والانحلال، بمسمى الحريات التي أعطاها الله للخلق وكفلها الإسلام، ونرى الجماهير الجاهلة والمغيبة تتلقى كلامهم بشيء من القبول، لموافقته أحوالهم التي هم عليها، أو أوهامهم التي تبحث عن تبريرٍ لأهوائهم التي اقتبسوها من البيئات غير المسلمة في مجتمعاتهم أو غيرها من اختلاط وسفور وانحلال، في حين انشغل علماء المسلمين بمنابذة بعضهم وتفنيد مناهجهم عن العمل الأهم في ظل وحدة الصف في أمة قال فيها الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٥١٦].

---

٥١٦ سورة الأنبياء: ٩٢.

التصالح والتصحيح

هما خطوتان؛ الأولى مطلوبة من السلفيين، والأخرى مطلوبة من الصوفية، إذا أراد الطرفان الحق والعمل لله تعالى بدون حظوظ للنفس أو تعصب لغير الحق وكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، بغض النظر عن المسميات والمصطلحات.

أولاً: التصالح:

بعد أن استعرضنا مواقف إمامي المدرسة السلفية؛ شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، في التصوف والصوفية، واستنتجنا من كلامهما وشهاداتهما أن التصوف منهج قائم على القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأنه الجانب الذي يُعنى بالتربية والتزكية والزهد والسير إلى الله تعالى والترقي في مدارج السلوك، وأنه نقي طاهر لا غبار عليه ولا ريب في منازله، فإنني أطالب إخواني السلفيين بترك الحِدّة التي يتعاملون بها مع هذا المنهج، وأن يستبدلوا بالنظرة العدوانية التي وسّعت الفجوة وعمّقت الشرخ، نظرة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم النزيهة العادلة الواعية، والتعامل مع التصوف من خلاله لا من خلال المتصوفة، والحكم على المنهج من خلال أصوله لا من خلال الأتباع، الذين منهم الصالح السالك بصدق، ومنهم المدّعي المدجّل الذي ينتسب إليه بلا حقيقة لغايات في نفسه دنيوية ومصالح شخصية، فلا يوزن

هذا بميزان ذاك، وإلا لاخْتَلَّ الحكم وغابت النزاهة والعدل والأمانة.
ولو أنك سألت السلفي: من ربك؟ لقال: «الله». ولو سألته: من نبيك؟ لقال: محمد ﷺ. ولو سألته: ما دينك؟ لقال: «الإسلام». ولو سألته: ما كتابك؟ لقال: «القرآن»، وإذا سألت الصوفي الأسئلة نفسها أجاب إجابات السلفي ذاتها! وهل تَخْرُجُ أسئلة الملكين في القبر عن هذه؟ وإذا سألتهما عن الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر كانت إجاباتهما واحدة، وإذا سألتهما عن عدد الصلوات وعدد ركعات كل منها وأركانها وواجباتها وسننها كانت إجاباتهما واحدة، وإذا سألتهما عن جهة الصلاة قال الاثنان: «الكعبة»، وإذا سألتهما عن الصلاة بلا وضوء أنكرا وقالا لا تصح الصلاة إلا بوضوء، وإذا سألتهما عن الحلال والحرام أجابا إجابات متشابهة، فهما متوافقان في الأصول، وأئمة الصوفية الذين خطوا مناهج التصوف أكدوا أنه لا طريق إلا طريق السلف؛ محمد ﷺ وأصحابه، كما تبين أن أئمة المدرسة السلفية لهم انتماء إلى الصوفية، فأعطوا في التصوف آراء مزكّية ومدحوا فضائل أهله وعدّوا أئمته من الأولياء، وأن من سار على نهجهم نَجا وسَعِدَ، ولم يكتفوا بذلك، بل جاوزوه إلى تبرير شطحات من شطح، وإعذار من غاب أو جُذب أو جُنَّ أو مات من وارد حاله الصادق، بل وحتى ما صدر عنهم من كلام في حالات الفناء يوهم ظاهره بالاتحاد أو الحلول

فقد برّؤوهم من مغبّته وحلّلوه وشرحوه بطريقة ربما لا يستطيع كثير من الصوفية أن يبينوه ويجدوا الأعذار لمن صدر عنهم، بل إن كثيراً من علماء الصوفية أمسكوا عن مثل: «ما في الجبة إلا الله» و«أنا الحق»، في حين قدم شيخ الإسلام ابن تيمية تفسيراً نفسياً لها، وربطها برابط إيماني عميق، ولم يعدّها من أحوال السُّكْر التي لا يؤاخذ بها قائلها، بل فسرها تفسيراً مختلفاً! كما اعتنوا بكتب الصوفية وشرحوها.

ولا ريب أن التصوف دخلت فيه أشياء مما أشار إليه الشيخ أحمد الرفاعي، وأبو القاسم القشيري، من فساد وأشياء ليست منه ولا من الإسلام، وثمة جهود من أهل التصوف لتنقيته منها والرجوع إلى التصوف الحقيقي النقي، التصوف السلفي الذي كان عليه الجنيد وعبد الله بن المبارك وأحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلي وأبو الحسن الشاذلي ومعروف الكرخي وشقيق البلخي والسري السقطي وإبراهيم بن أدهم، وكل أولئك السلف رحمهم الله، لكنهم يحتاجون إلى مساعدة السلفيين في ذلك، بتذكيرهم بسلفهم ومنهجهم، وحثهم على الرجوع إلى طريقهم، بدلاً من تكفيرهم وتبديعهم واتهامهم بالشرك، وهذه المسائل لها حساسية شديدة، لذلك فإن ردة الفعل لن تكون كما يرجو المُكَفِّر، بل ستكون معاكسة تماماً ويكون فيها مبالغة في فعل ما نهاهم عنه وعدّه

كفراً أو شركاً، أما الأسلوب الصحيح فهو أن ينظر إليهم أولاً أنهم إخوانه في الدين، طلبوا الحق على نهج سلف صالح مشهود لهم بالولاية وسلامة النهج وصحة السير، لكنهم وجدوا الطريق نبتت فيه أشواك وفطريات ظنوها من الطريق، وليس من الصواب أن تقول لهم: «طريقكم خطأ»، لأنه ليس خطأ، وقد سلكه قبلهم السالكون وارتقوا في مدارجه، فإن قلت لهم إنه خطأ فإنك أنت المخطئ، وسيكذّبونك ويردّون كلامك عليك، لكن الصواب أن تعينهم على اقتلاع تلك الأشواك وإزالة هذه الفطريات من طريقٍ ثبتت صحته وشهد بذلك أئمة السلفية الذين تتبعهم أنت وتحتج بأقوالهم وتتغافل عن شهاداتهم في هذا الطريق وأهله، وتتنكر لثابت الأخبار بسلوكهم سبيله على أيدي مشايخه واعترافهم بذلك، وما إجلالهم لهم بعبارات مثل «قدس الله روحه»، وما إليها من عبارات الثناء إلا شواهد على ذلك. وقد تقول: «أعطني في الصوفية مثل الجنيد لأتبعه»، فأقول لك: إذا تركت التعامل بعدوانية مع أهل هذا الطريق، ووضعت يدك في أيديهم لتنقيته فسيخرج لك فيه ألف جنيد، وربما تكون أنت أحدهم، فتكون «شيخ الطائفتين» فينتفع بك السلفي والصوفي على حد سواء.

فالمطلوب من السلفية أولاً أن يتصالحوا مع منهج التصوف، ويتعاملوا معه كما أمر الله عز وجل في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٥١٧]، **وقوله عز وجل:** ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[٥١٨]، **وهذا كان منهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومن تبعهما من السلف الصالح الذين لم يتعصبوا لغير الحق، ولم تصرفهم المسميات عن النظر في الحقائق والاعتراف بها بل واتّباعها. وبعد تصالحهم مع التصوف لا ريب أن الصوفية سيفرحون بذلك وسيمسكون باليد التي تمتد للمساعدة في تنقية طريقهم، وسيتعاونون معها بمحبة وصدق وقبول للنصيحة، ويُرغم أنف الشيطان الذي لا يريد أن يجتمع شمل هذه الأمة، ويسعى إلى دوام التحريش بين أطرافها، فقد حذّر النبي ﷺ من ذلك في قوله: ﴿إنَّ الشَّيْطانَ قدْ أيِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، ولَكِنْ في التَّحْرِيشِ بيْنَهُمْ﴾[٥١٩]، فالمصلون في جزيرة العرب من الصوفية وغيرهم أبوا أن يعبدوا الشيطان، فانصرف إلى التحريش بينهم، قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٥٢٠]، **فمن عجز عن جرهم**

---

[٥١٧] سورة المائدة: ٨.
[٥١٨] سورة الأنعام: ١٥٢.
[٥١٩] صحيح مسلم، برقم: ٢٨١٢.
[٥٢٠] سورة المائدة: ٩١.

إلى الخمر والميسر جرّهم إلى الصّراع المذهبي أو صراع التيارات، فأوقع بينهم العداوة والبغضاء.

ثانياً: التصحيح

وهو مطلوب من إخواني الصوفية.

لا أحد ينكر أن بعض الطرق لم تُنَقَّ مما علق بها من غبار القرون، ولو نظر أئمتها إلى أحوال أتباعها لأنكروا عليهم أشد الإنكار، وأنا هنا لست ناقداً ولا مرشداً، ولست أهلاً لتقديم النصح لقوم فيهم رجال لو أقسموا على الله لأبر قسمهم، وفيهم علماء هم أطواد راسخون في العلم، وفيهم فقهاء هم بحور في سعة علمهم، وأنا متطفل على مائدتهم، ولكن من حقي أن أتساءل عن عدد من النقاط في المطابقة بين منهاج التصوف وبين تطبيق السالكين والتزامهم هذا المنهج.

١- في باب وحدة الوجود، يرى الصوفي أن الوجود لله وحده، لأن وجوده سبحانه قائم بنفسه مستغن عن غيره، أما بقية الموجودات فلا وجود حقيقياً لها، لأن وجودها قائم بوجود الله محتاج إليه عز وجل، وهي ذاتها التي عبر عنها آخرون بوحدة الشهود، التي بمقتضاها لا يشهد الصوفي وجوداً لغير الله تعالى، فكيف يطلب المدد من غيره سبحانه؟ وكيف يستغيث بغيره عز وجل؟ مع أنه من

الطبيعي عند كل مسلم أنه يعمل بمقتضى حديث النبي ﷺ: ﴿إذا سأَلتَ فاسأَلِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ﴾[٥٢١]، والصوفي يزيد على غيره بأنه لا يشهد في الكون وجوداً لغير الله تعالى، فكيف يطلب المدد من غير موجود، ويستغيث بمن وجوده غير مشهود؟ فهذا الأمر يحتاج إلى مناقشة الصوفي نفسه وأن يرى مدى مطابقة سلوكه لمنهج القوم الذين اقتدى بهم وسلك سبيلهم ليتدرج في سيره إلى الله تعالى على طريقتهم. فإن رأى نفسه مخالفاً للمنهج فعليه أن يصحح، وإلا فهو متصوِّفٌ بطّال - كما وصفه الشيخ الرفاعي، رضي الله عنه - وليس صوفياً.

٢- محبة النبي ﷺ مُستَحَقّةٌ، وذلك لفضله ﷺ على الأمة، ولكريم شمائله وحسن خلقه وكمال خلاله وعظيم مآثره وجليل فضائله، فهي من المحبة في الله تعالى، وهي في الوقت نفسه واجبة بأمر إلهي، ولكنها غير مقدمة على حب الله تعالى، فالمحبة يجب أن تكون لله تعالى أولاً، وبعد ذلك لنبيه ﷺ، ولصحابته، وللصالحين، وللمسلمين عموماً محبة في الله، لا لذواتهم، وحين نستعرض سِيَرَ أئمة التصوف نجد جلّ حديثهم في محبة الله تعالى والشوق إلى لقائه، ولم يتكلموا بمحبة النبي ﷺ لأنها تَبَعٌ لمحبة الله سبحانه وفرع منه، فهم يتكلمون على الأصل لا على الفرع، لأنه بحصول

---

[٥٢١] سنن الترمذي، برقم ٢٥١٦.

الأصل يحصل الفرع، وقصائدهم تشهد بذلك، وهي التي كانت تُنشد في مجالس سماعهم، أما بعض الصوفية المعاصرين فلا نجد لهم حديثاً في محبة الله عز وجل، وإنما كل حديثهم وأناشيدهم في محبة النبي ﷺ! وقد يتهمني بعضهم بالجهل؛ فيقول من أحب رسول الله ﷺ أحب الله. فأقول له: هذا صحيح من جهة أن محبته ﷺ هي محبة في الله تعالى، ولكن الأمر جاء بمحبة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٥٢٢]، فقال «فاتبعوني» ولم يقل فأحبوني، فالمبدأ محبة الله، وإثباتها اتّباع النبي ﷺ، وفي استشعار حلاوة الإيمان تأتي محبته ﷺ بعد محبة الله تعالى، قال ﷺ: ﴿ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ﴾[٥٢٣] فمحبة الله هي الأصل مطلقاً، وهي المقدمة على كل محبة، ثم تأتي المحبة فيه، فالمحبات المندوبة إنما هي فروع لها، ويدل على ذلك أيضاً قوله ﷺ: ﴿أحِبوا اللهَ لما يغْذوكم من نعَمِه، وأحِبُّوني بحُبِّ اللهِ، وأَحِبُّوا أهلَ بيتي بحُبِّي﴾[٥٢٤]، فمحبة الله هي الأصل، ومحبته ﷺ بمحبة الله تعالى، ومحبة آل بيته، ﷺ وعلى آله، فرع من محبته هو، والفرع لا

---

[٥٢٢] سورة آل عمران: ٣١.

[٥٢٣] صحيح البخاري برقم: ١٦، وصحيح مسلم برقم ٤٣.

[٥٢٤] سنن الترمذي، برقم: ٣٧٨٩.

يقوم مقام الأصل، وتشهد بذلك أقوال أئمة التصوف، «فعن أبي سعيد الخراز أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله اعذرني، فإن محبة الله شغلتني عن محبتك... فقال: يا مبارك، من أحب الله تعالى فقد أحبني»[٥٢٥]. «وقيل لرابعة العدوية: كيف حبك لرسول الله ﷺ؟ فقالت: والله إني لأحبه حباً شديداً، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين»[٥٢٦] وأفرد الغزالي في «الإحياء» باباً أسماه: «بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده»، فقيدها بكلمة «وحده»، وقال فيه: وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصور ه في معرفة الله تعالى، وحب الرسول ﷺ محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب... فلا محبوب بالحقيقة، عند ذوي البصائر إلا اللهُ تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه»[٥٢٧].

كما تشهد أشعارهم بذلك، وقد مر بنا قول ذي النون المصري:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهَوى   وحُبّاً لِأَنّكَ أَهْلٌ لِذاكا

ومرت بنا الأبيات التي غشي على الشيخ الرفاعي عند سماعه إياها ثم مرض مرضه الذي مات منه، ويقول أبو بكر الشبلي:

إِنَّ المحَبّةَ لِلرَّحْمنِ تُسْكِرُنِي   وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبّاً غَيْرَ سَكْرانِ

---

٥٢٥ الرسالة القشيرية، ص٥٢٩.
٥٢٦ إحياء علوم الدين، للغزالي، ج٤، ص٤٤٨.
٥٢٧ المصدر السابق ، ج٤، ص٣٧٤، ٣٧٥.

وله أيضاً:

يـا أَيُّهـا السَّــيِّـدُ الكَريمُ   حُبُّكَ بَيْنَ الحَشـــا مُقِيمُ

يـا رافِعَ النَّوْمِ عَنْ جُفُونِي   أَنْـتَ بِـما مـرَّ بِي عَـلِـيـمُ

ورائعة شهاب الدين السهروردي، التي مطلعها:

أَبَـداً تَحِـنُّ إِلَـيْـكُـمُ الأَرْواحُ   وَوِصــالُكُمْ رَيْحانُها وَالرّاحُ

وَقُلوبُ أَهْلِ وِدادِكُمْ تَشْتاقُكُمْ   وَإلى لَـذِيـذِ لِقـائِكُمْ تَرْتـاحُ

وغير ذلك كثير منتشر في أشعارهم، فكل حديثهم ونشيدهم وسماعهم في حب الله تعالى.

٣- الأئمة والشيوخ والصالحون هداهم الله إلى السير إليه وأعانهم على الصبر واجتياز العقبات والابتلاءات، فرفع درجاتهم وأبلغهم ما قسم لهم من المكانة الرفيعة عنده وفي قلوب الخلق، فانصرفوا بكليتهم عن الخلق إلى الخالق، واشتغلوا بشكره على ما أبلغهم عن الفخر بما أولاهم، فلماذا ننشغل نحن بمدحهم وذكر كراماتهم في مجالس الذكر التي أفردت لله تعالى، وهم لم يفعلوا ذلك، وما الفائدة من وقوف المنشد في حلقة يردد أهلها «لا إله إلا الله» لينشد أناشيد في مدح الشيخ فلان والتذكير بمكانته وكراماته؟ أليس من المفترض أن ينشد أناشيد بحب الله تعالى وحث القلوب إلى السير إليه وحداء الأرواح للعروج إلى ملكوته؟ كان الشيخ عادل الأمين،

رحمه الله، يقول لي: «المنشد مرشد»، فعليه أن يختار الأناشيد الملائمة للحال وليس أي شيء يرد على لسانه! فلماذا نرى المنشد حين يشتغل العباد بذكر الله تعالى يحدو أرواحهم إلى حضرات الشيوخ والصالحين، حتى إنه أحياناً يعلو صوته بهذا النشيد أو ذاك على أصوات الذاكرين؟ قد يقول قائل: هم أولياء الله تعالى، وذكرهم بركة، فأقول: هل هو أكثر بركة من ذكر الله؟ وكيف يعلو صوتٌ على صوت الجاهرين بكلمة التوحيد؟ أمّا من وسوس له الشيطان فأوهمه بأن ذكر الصالحين إنما يأتي لأنهم أولياء الله، فذكرهم وذكر الله أمر واحد فقد وقع في التلبيس وانزلق إلى الشرك ويُخشى عليه من سوء العاقبة، فقد قال النبي ﷺ: ﴿قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ﴾[٥٢٨]، فالله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه تعالى، ومن ذلك الذكر، لذا يجب عدم خلط ذكره بذكر سواه، وهذا أمر تقتضيه وحدة الشهود التي هي من أصول التصوف التي عليها مداره.

٤- سيدنا محمد ﷺ خير خلق الله وصفوته سبحانه منهم، وقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به، والأنبياء أخذوا على أتباعهم عهداً مماثلاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا

---

[٥٢٨] صحيح مسلم، برقم: ٢٩٨٥.

آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٥٢٩]. **وجعل الله سبحانه شهادة أن محمداً رسول الله شرطاً لدخول الإسلام بعد شهادة أن لا إله إلا الله، والإسلام هو الدين الوحيد المقبول عنده سبحانه، وأكرم الله عز وجل سيدنا محمداً ﷺ بأشياء علمناها وأشياء لم نعلمها، وجعل الصلاة والسلام عليه من أعظم القربات، والمقصر فيها بخيل، قال ﷺ: ﴿البخيلُ الذي من ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ﴾[٥٣٠]، وقال ﷺ: ﴿وإنَّ البَخيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ، بَعيدٌ مِنَ النّاسِ، بَعيدٌ مِنَ الجَنّةِ قَريبٌ من النّار﴾[٥٣١]، فإذا اصطف الناس في حلقة الذكر، وانطلقت ألسنتهم تردد «لا إله إلا الله»، وهي أفضل الذكر، وصدح المنشد بمدح النبي ﷺ، فهل يترك الذاكرون الصلاة والسلام عليه ﷺ ويستمرون في ذكر الله تعالى فيكونوا بخلاء بعيدين من الله، أم يتركون ذكر الله تعالى وينصرفون إلى الصلاة على النبي ﷺ؟ أليس هذا الإقحام جهلاً من المنشد؟ ولماذا لا يوجه الشيوخُ المنشدينَ إلى اختيار أناشيد في حب الله تعالى وعظمته حين يشتغل الذاكرون بالله تعالى، كي لا يصرفهم عن الذكر؟**

---

٥٢٩ سورة آل عمران: ٨١.

٥٣٠ سنن الترمذي، برقم: ٣٥٤٦.

٥٣١ ذخيرة الحفاظ، لابن القيسراني، ١٤٨٩/٣.

٥- ثقافة معظم المريدين في التصوف ثقافة ضحلة، لا يعرفون غاية التصوف ولا أصوله، وكل ما يعرفونه الذكر الذي يعطى لهم، أما السلوك والسير فلا يعلم عنهما إلا من اجتهد بنفسه وقرأ، فالتصوف سير إلى الله يأتي بعد التفقه في الدين والإلمام بأهم ما يحتاج إليه المسلم في حياته وعباداته ومعرفة الحلال والحرام، فيدخل باب التصوف للتربية والتزكية والسير إلى الله سبحانه، وقد كان المشايخ في السابق يطلبون من أحد المريدين أن يقرأ عليهم من كتب السير والسلوك، كالرسالة القشيرية ومنازل السائرين والحكم العطائية وأمثالها، أو من كتب شيخ طريقتهم في السلوك، ثم يشرح لهم الشيخ ما قرئ على مسامعهم ويبين غامضه ويفسر مشكله، فالسير إلى الله تعالى لا يمكن استكماله بالمسبحة وحدها، وإنما يحتاج إلى علم بهذه الطريق ومبشراتها والتباساتها واستدراجاتها، وهي مذكورة بالتفصيل وموضحة في كتب القوم، وليس كل من سلك طريق التصوف صار صوفياً، وقد سئل ابن حجر الهيتمي عن قولهم: «ما اتخذ الله من ولي جاهل، ولو اتخذه لعلمه»، فأجاب بقوله: «معنى ذلك أن الله تعالى يفيض على أوليائه الذين أتقنوا الأحكام الظاهرة والأعمال الخالصة من مواقع الإلهام والتوفيق والأحوال والتحقيق ما يفوقون به على ما عداهم، فمن ثبتت له الولاية التي لا ينشأ كمالها إلا عما ذكرنا

فتثبّتت له تلك العلوم والمعارف، فما اتخذ الله وليا جاهلاً بذلك، ولو فُرض أنه اتخذه: أي أهّله إلى أن يصير من أوليائه، لعلَّمه، أي لألهمه من المعارف ما يلحق به غيره، فالمراد الجاهل بالعلوم الوهبية والأحوال الخفية لا الجاهل بمبادئ العلوم الظاهرة مما يجب عليه تعلمه، فإن هذا لا يكون ولياً ولا يُراد للولاية ما دام على جهله بذلك، بل إذا أراد الله ولايته ألهمه تعلم ما يجب عليه لأنه لا يمكن الإلهام فيه، فإذا تعلمه وأتقن عباداته أفاض عليه تعالى من علوم غيبه ما لا يدرك بكسب ولا اجتهاد. وبما تقرر عُلم أن علم الشرائع لا يدرك إلا بالتعليم الحسّي، ألا ترى إلى ما وقع في قصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام، لكن معنى قول الخضر عليه السلام لموسى عليه الصلاة والسلام: إنك على علم لا أعلمه أنا، أي لا أعلم خصوص شرعك أو كماله، وإلا فالخضر كان له شرع آخر بناء على الأصح أنه نبي، ويلزم مع كونه نبياً أن له شرعاً غير شرع موسى، ومعنى قوله: وأنا على علم لا تعلمه أنت؛ أي لا تعلم خصوص ما أوتيته، فلا ينافي أن موسى عَلِمَ من المعارف والإلهامات والأحوال والخصوصيات ما لم يحط به الخضر»[٥٣٢].

٦- الإخلاص في السير أصل من أصول الإسلام، وعمود التصوف، وقد ذكرنا قول الشيخ عادل الأمين رحمه الله: «الغاية هو الله،

---

٥٣٢ الفتاوى الحديثية، لابن حجر الهيتمي، ص٢٧٢.

والطريق اتباع محمد ﷺ»، فمن كانت غايته الرياسة والتصدّر وأن يشار إليه بالبنان، ومن كانت غايته الكرامات والخوارق فقد فَقَدَ الإخلاص، وقد أشار أئمة التصوف إلى خطورة النفس على السالك، وأن الطريق إلى الله لا يُسلك بالنفس، ومن الإخلاص عدم اعتقاد النفع والضر أو المقدرة عليهما بغير الله تعالى، فلا الملائكة ولا النبي ﷺ ولا الصالحون يملكون ذلك، وقد أمر الله نبيه ﷺ بأن يقر بذلك ويبينه للناس، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[٥٣٣] **وقال تعالى:** ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۞ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[٥٣٤]**، ومن ظن الضر والنفع بغير الله تعالى فقد أشرك؛ والشرك نوعان: شرك جلي: وهو إشراك غير الله تعالى بالدعاء أو العبادة أو اعتقاد ما لا ينبغي لغير الله عز وجل في غيره. وشرك خفي وهو في الغالب حظ النفس من العمل الصالح والقربات، وهو الرياء، أما النفاق فيلحق بالشرك الجلي وإن كان صاحبه يخفيه. وقد قال تعالى:** ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٥٣٥]**، «إلا وهم مشركون» هذه الواو واو الحال، أي أن**

---

٥٣٣ سورة الأعراف: ١٨٨.

٥٣٤ سورة الجن: ٢١، ٢٢.

٥٣٥ سورة يوسف: ١٠٦.

أكثر الناس لا يؤمنون بالله تعالى إلا على حال من الشرك، وليس المقصود بالآية المشركين وحدهم، لأنهم كلهم مشركون، والآية تقول «أكثرهم»، أي أكثر الناس، سواء في ذلك الشرك الجلي والخفي، والله أعلم. وقد قال النبي ﷺ: ﴿يا أبا بكرٍ، لَلشِّركُ فيكم أخْفى من دبيبِ النَّملِ، والذي نفسي بيدِه، لَلشِّركُ أخْفى من دَبيبِ النَّملِ، ألا أدُلُّك على شيءٍ إذا فعلتَه ذهب عنك قليلهُ وكثيرهُ؟ قل: اللهم إني أعوذُ بك أن أشرِكَ بك وأنا أعلمُ، وأستغفِرُك لما لا أَعلمُ﴾[٥٣٦]، فالشرك الخفي غير مقتصر على حظ النفس، وهو أخفى من دبيب النمل، ولا سبيل إلى إذهاب قليله وكثيره إلا بهذا الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لصفوة أصحابه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو دعاء يجب أن يتعلمه السالك ويدعو به كل يوم، حرصاً على سلامة عمله من الشرك وصحة سيره إلى الله بإخلاص تام.

٧- التعصب لتيار أو طريقة أو جماعة أو شيخ ينفي إخلاص المريد لله تعالى، ويقصر إخلاصه على ما تعصب له، ولم يكن السلف من أئمة التصوف ومشايخه يبالون بهذه الانتماءات، بل كانوا يجل بعضهم طرق بعض ويحترم بعضهم مشارب بعض، ويحضر هذا عند هؤلاء ويحضر هؤلاء عند هذا، لا يجدون في ذلك مغبة ولا غضاضة، فغايتهم الدعوة إلى الله والسير إليه سبحانه، أياً كان

٥٣٦ صحيح الأدب المفرد، للألباني، برقم: ٥٥١.

الطريق وأياً كان المرشد، حتى إن بعضهم كان يسك طريقة على يد شيخ مرشد، ويبايع شيوخ طرق أخرى للبركة، ومما روى لي الشيخ عادل الأمين، رحمه الله، قال: إبان خدمتي العسكرية بدمشق كنت في بداية سلوكي، وواظبت على حضور مجالس الذكر، وفي أحد الأيام كنت وحدي مع الشيخ العارف بديع الكيلاني، رحمه الله، فناداني، فأقبلت إليه فبسط لي يده وقال: «بايعني»، فقبضت يدي وقلت: له «أنا طريقتي رفاعية يا شيخ»، فضحك وقال: «يا بني الطريق إلى الله واحد، الطرق كلها واحدة، عندما تكبر ستفهم ذلك، هات ابسط يدك وبايعني»، قال: فبسطت يدي وبايعته، ومنذ ذلك اليوم لم أفرق بين رفاعي وقادري وشاذلي وغيرهم، وظلت كلمته ترن في مسمعي «الطرق كلها واحدة». وأعلم أنه أيضاً بايع أحد مشايخ الطريقة الشاذلية، وكان يحضر مجالس الذكر التي يقيمها الجميع، ويحب الجميع ويحبونه، فكان نموذجاً للمريد السالك إلى الله والشيخ الذي تمسّك بحديث النبي ﷺ ﴿لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا﴾[٥٣٧]، أما ما نشهده من تعصب أتباع الطرق، وربما مرشديهم، فليس من التصوف ولا الإسلام، وهو من أسباب النزاع الذي حذر منه الله عز وجل في قوله:

---

٥٣٧ صحيح مسلم، برقم: ٥٤.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٥٣٨].

لذا نهيب بخلفاء أئمة الطرق أن يحثوا وكلاءهم على تثقيف المريدين في منهجهم وطريقتهم على الأقل، وتوضيح السلوك وأنه ليس مجرد عهد وخرقة ومسبحة، وإنما هو سير إلى الله تعالى، والسير إلى الجليل سبحانه يحتاج إلى همة وعلم وفكر إلى جانب الذكر، وإلا فما أكثر الذين لُبّس عليهم وهم يسيرون بلا علم ولا فقه ولا معرفة بالمنازل وحبائل الشيطان الذي لم يتعهد القعود في سبل الشر والفساد وطرقهما، وإنما قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾[٥٣٩]**، فالضالون في ضلالهم يعمهون، أما السالكون السائرون إلى الله فهم هدف الشيطان، لذا عليهم التحرز منه ومعرفة خطواته وتلبيسه وفخاخه لئلا يقعوا فيها، وأولها التسوية بين الرب والعبد، سواء في الاستغاثة أو رجاء النفع والضر، وثانيها البدع في العبادات، وثالثها عدم معرفة الأصول الشرعية للقربات، ورابعها إفهامهم منهج التصوف؛ وهو عدم شهود وجودٍ لأحد غير الله تعالى، لا نبي ولا ملك ولا شيخ ولا ولي، وأن الغاية والمطلوب هو الله تعالى عز وجل وحده.**

---

٥٣٨ سورة الأنفال: ٤٦.

٥٣٩ سورة الأعراف: ١٦، ١٧.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فقد كان الدافع إلى وضع هذا الكتاب هو إيصال رسالة «التصالح والتصحيح» الموجهة إلى فئتين عظيمتين من المسلمين، فكان طرفٌ يجهل أو يتجاهل فضائل طرف وسلامة منهجه وصحة مسلكه، ويحكم عليه من خلال الدخلاء عليه لا من خلال أهله وأتباعه، والطرف الآخر يحتضن هؤلاء الدخلاء على أمل أن يهتدوا، ونبراسهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[٥٤٠]**، آملين أن يستفيد هؤلاء من حضورهم مجالس القوم وسماع كلام الله وكلام أئمتهم عسى أن يهتدوا إلى سواء السبيل، ويسلكوا الطريق إلى الله تعالى، ويكتسبوا الإخلاص بمجالسة المخلصين ونصيحتهم، وهم لم يعلموا الغيب ولا اطلعوا على نيات هؤلاء ليطردوهم من مجالسهم، حذراً من الوقوع في المنهي عنه من قول الله تعالى:** ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٥٤١]**، إلا أن هؤلاء الدخلاء - وللأسف - أساؤوا وأفسدوا واتخذوا من وساوس الشيطان**

---

[٥٤٠] سورة التوبة: ٦.

[٥٤١] سورة الأنعام: ٥٢.

وأوهامهم النفسية وما لُبِّس عليهم فيه سبيلاً، وبئس السبيل، فضلّوا وأضلّوا غيرهم، وشوّهوا صورة التصوف، وكدّروا بمقولاتهم وهرطقاتهم نقاءه وصفاءه، وقد مرّ بنا قول أبي سليمان الداراني: «ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة»[٥٤٢]، ولأجل التصالح قدمنا لإخواننا السلفيين الصورة الحقيقية للتصوف، واستشهدنا بأقوال عدد من أئمة السلفية، وعلى رأسهم إماما المدرسة السلفية؛ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، في سلامة منهج التصوف وصحة سلوكه وفضل أئمته والصادقين من أتباعه، بل وبأن هذين الإمامين الجليلين لهما علاقة وطيدة بالتصوف وطريقه وأهله ومنهاجه، فبرروا لمن أخطأ من سالكيه، وزكّوا أشياخه، وشرحوا بعض كتبه، وفي ما عرضناه بلغة لمن أراد الحق، وفي ما أوضحنا وبيّنا براهين لمن أراد أن يحكم بنزاهة ويعدل في قوله بلا تعصب لجهة أو ضد جهة، وإنما يتعصب للحق فقط، وغايته الجمع وليس التفريق، ورأب الصدوع وليس توسيعها، والسعي إلى إيصال الطرفين إلى الاعتصام بحبل الله جميعاً، وتحقيق «الأمة الواحدة». وفي الوقت نفسه بينّا لإخواننا الصوفية الخلل الذي يحصل بسبب الذين يُحْسَبون عليهم وهم ليسوا منهم، فشوّهوا الوجه النقي للتصوف بجهلهم

---

[٥٤٢] سبق عزوه بهامش ٥٠٣.

وانسياقهم لأهوائهم وتلبّسهم بأوهامهم وما يلقي الشيطان ﴿ في ﴾ نفوسهم، ولم يكتفوا بذلك، وإنما أسهموا في إضلال كثير من البسطاء الذين سلكوا طريق التصوف حديثاً، ظانين هؤلاء من العارفين أو الأئمة أو المرشدين، في حين أنهم أحوج من غيرهم إلى الوعظ والإرشاد والتوجيه وإصلاح السير، ونأمل من إخواننا الصوفية أن يعيدوا ترتيب «البيت الصوفي» من داخله، ويحثّوا أنفسهم وأتباعهم على اتّباع السلف من الصوفية الذين ينتمون إلى طرقهم أمثال الجيلي والرفاعي والشاذلي، وأئمة التصوف أمثال الجنيد والقشيري والسكندري، ومَنْ ذكرناهم وأشاد بهم وزكاهم شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهم الله جميعاً. وبهذا نكون أوصلنا رسالتنا إلى الطرفين، نسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يكتب لها الوصول إلى من وُجِّهت إليهم، والقبول، فيتم التصالح من جهة، والتصحيح من جهة أخرى. أما من أخذه الكِبْرُ وسَلبتْ إخلاصَه عزةُ النفس وهيمن عليه التعصب للجهة أو المنهج، وسيطر عليه التعنت، وأبى قبول النصح ممن رآه دونه في العلم، فآثر ما هو فيه على ما ظهر له من الحق، فإن أمره إلى الله، وإن أردنا إلا الحسنى، فإن وُفِّقنا فمن الله وبفضله، وإن أخطأنا أو فشلنا فمن

أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، و﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[٥٤٣].



٥٤٣ سورة الأنعام: ٥٧.

المراجع

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط دار الكتب العلمية، تحقيق محمد يوسف الدقاق.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، الموضوعات، خرج أحاديثه توفيق حمدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، تلبيس إبليس، دار المنهاج، القاهرة، مصر، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

ابن المبارك، عبد الله المروزي، الزهد والرقائق، تحقيق أحمد فريد، طبعة دار المعراج الدولية للنشر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

ابن الملقن ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد، طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريبة، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد الحراني، مجموع الفتاوى. جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالسعودية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

ابن تيمية، التفسير الكبير، تحقيق وتعليق د. عبد الرحمن عميرة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن تيمية، تقي الدين أحمد الحراني، المستدرك على مجموع الفتاوى، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته محمد بن عبد الرحمن بن قاسم.

ابن حبان، أبو حاتم محمد التميمي البستي الخراساني، المسند الصحيح في التقاسيم والأنواع.

ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر، الفتاوى الحديثية، طبعة مصطفى الحلبي الثانية، وطبعة دار المعرفة مصورة عنها.

ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر، تحفة المحتاج بشرح المنهاج.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، الدرر الكامنة، دار الجيل، بيروت، ط: ١٤١١-١٩٩٣م.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر لابن الحاجب في الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، لسان الميزان. تحقيق دائرة المعرف النظامية بالهند، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، وعادل مرشد، وإبراهيم الزيبق، ومحمد رضوان العرقسوسي، وكامل الخراط، أشرف على إصدارها عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شحادة، راجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة ولنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣١هـ - ٢٠٠١م.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن عابدين، محمد أمين أفندي الحسيني، مجموع رسائل ابن عابدين، تحقيق الشيخ محمد عبد الرحمن الشاغول، المكتبة الأزهرية للتراث.

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار، تحقيق: سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني في حديث رسول الله ﷺ، تحقيق بشار عواد

معروف وسليم محمد عامر، ومحمد بشار عواد، ط٢، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات المخطوطات الإسلامية، ٢٠١٨م.

ابن عجيبة، عبد الله أحمد الحسني، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق عبد المجيد خيّالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء.

ابن عجيبة، عبد الله أحمد الحسني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار المعارف، القاهرة، مصر.

ابن عجيبة، عبد الله أحمد الحسني، الفتوحات الإلهية، عالم الفكر القاهرة، مصر.

ابن عدي، أبو أحمد عبد الله الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان.

ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، الفتوحات المكية، نسخة كتابخانه.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، الروح، تحقيق يوسف بديوي، دار ابن كثير، دمشق، سورية.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٧، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم. تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

ابن مفلح، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي، الآداب الشرعية، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

ابن مفلح، أبو عبد الله شمس الدين محمد المقدسي، الفروع وتصحيح الفروع، تحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة، الناشر بيت الأفكار الدولية.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، سنن أبي داوود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة، القاهرة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

الأبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور، المستطرف في كل فن مستظرف، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ.

الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، شرح وتعليق وضبط لجنة من المختصين، بإشراف سماحة المفتي الشيخ مدرار الحبال، ط١، المكتبة العصرية، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا، بيروت: لبنان.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، التوسل أنواعه وأحكامه، نسقه وآلف بين نصوصه محمد عيد العباسي، الطبعة الشرعية الوحيدة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، تخريج مشكاة المصابيح، لابن حجر العسقلاني.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، صحيح سنن أبي داوود.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، صحيح الترغيب والترهيب للمنذري.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، صحيح سنن الترمذي.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، صحيح الجامع الصغير.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، صحيح سنن النسائي.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، صفة صلاة النبي ﷺ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، طبعة جديدة منقحة ومزيدة.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

الألباني، ناصر الدين محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الأرناؤوطي، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أمير المؤمنين في الحديث الشريف، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه المعروف بصحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية).

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أمير المؤمنين في الحديث الشريف، التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.

البوطي، محمد سعيد رمضان، الحكم العطائية شرح وتحليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، إعادة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، السنن الصغير. تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، ط١، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، مناقب الشافعي، تحقيق السيد أحمد نصر، ط مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي وهو الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

الجيلاني، عبد القادر، الفتح الرباني والفيض الرحماني، تحقيق أنس مهرة، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الحجار، محمد، شرح المقاصد النووية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، المسند الجامع المعروف بسنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، ط١، دار المغني، السعودية، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، الموقظة، تحقيق أحمد بن شهاب حامد، دار ركائز للنشر والتوزيع، دار أطلس الخضراء للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، ومحيي هلال السرحان، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الرازي، فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة وتحرير علي سامي النشار، دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

الرفاعي، أحمد بن رفاعة الحسيني، البرهان المؤيد، تحقيق عبد الغني نكه مي، طبعة منقحة، لم يذكر اسم الدار ولا التاريخ، وذكر أن الطبع مقابلة على مطبوعة المطبعة العلمية بحلب، ١٣٥٢هـ، وغيرها من المطبوعات.

الرواس، محمد مهدي الصيادي، مشكاة اليقين، دار الفكر.

الزايد، مصطفى، القمع في الإسلام حقائق مغيبة، كتاب إلكتروني: https://www.kotobati.com/

الزبيدي، مرتضى، محمد بن محمد الحسيني، إتحاف المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين ٢٠٠٢م، نسخة المكتبة الشاملة موافقة للمطبوع.

الزيلعي، فخر الدين عثمان بن علي بن محجن البارعي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، ط١، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة، مصر، ١٣١٣هـ.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، معيد النعم ومبيد النقم، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

السلمي، أبو عبد الرحمن، الطبقات الصوفية، تحقيق أحمد الشرباصي، كتاب الشعب، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

السيوطي، جلال الدين، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الاعتصام، تحقيق محمد رشيد رضا، ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، الناشر: المجلس العلمي- الهند، يطلب من المكتب الإسلامي - بيروت، لبنان، هـ.١٤٠٣، نسخة المكتبة الشاملة الحديثة، موافق للمطبوع.

الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد، الشهير بالأمير الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، تحقيق زياد نقشبندي، ط١، دار الإصلاح، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الطوسي، أبو نصر السراج عبد الله بن علي، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، تحقيق عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

العدوي، أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي، حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

الغزالي، أبو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق جميل صليبا، وكامل عياد، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

الغزالي، أبو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري، ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤ هـ.

الغزالي، أبو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري، إحياء علوم الدين، تحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي،

تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

القشيري، أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

القونوي، صدر الدين محمد ابن إسحاق، إعجاز البيان في تفسير أم القرآن سورة الفاتحة، ضبطه وصححه وعلق عليه عاصم إبراهيم الكيالي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الكاساني، أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

الكيلاني، أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ط١، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، بغداد، العراق، ٢٠٠٧م.

الكيلاني، محمد بن عبد القادر، أبواب التصوف مقاماته وآفاته، شرحه ووضع جداوله ميعاد شرف الدين الكيلاني، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٣١هـ.

المالكي، عبد الحافظ بن علي، هداية الراغبين في السير والسلوك إلى ملك الملوك رب العالمين في علم التصوف، طبع على ذمة محمد عبد الحافظ الأمير، ط مطبعة عيسى البابي الحلبي.

المالكي، محمد بن علوي، مفاهيم يجب ان تصحح، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إدارة الشؤون الإسلامية، دولة قطر، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

المحاسبي، الحارث بن أسد، الوصايا، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

المرداوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، ط٢، دار إحياء التراث العربي.

المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة باريس.

المعري، شرح اللزوميات، تحقيق منير المدني، زينب القوصي، وفاء الأعصر، سيدة حامد، بإشراف د. حسين نصار، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ.

المكي، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

المنذري، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ.

الندوي، أبو الحسن علي الحسني، المسلمون في الهند، ط١، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المجتبى من السنن المعروف بالسنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سورية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

النووي، مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف، ط. المطبعة الأدبية في بيروت، لبنان، ١٣١٩هـ.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المجموع شرح المهذب، دار الفكر، دمشق، سورية.

الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دحلان، أحمد زيني، مفتي مكة المكرمة، الدرر السنية في الرد على الوهابية، دار جوامع الكلم، القاهرة، مصر.

حوى، سعيد، تربيتنا الروحية، سلسلة دراسات منهجية هادفة في التربية والسلوك، ط. ٦، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ١٤١٩ - ١٩٩٩م.

ضيف، شوقي، العصر الإسلامي، سلسلة تاريخ الأدب العربي، طبعة دار المعارف بمصر، ط٧.

عبد الهادي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الدمشقي الصالحي، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة دار الكاتب العربي، بيروت، لبنان.

محمود، عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ووزير الأوقاف الأسبق، قضية التصوف المنقذ من الضلال، ط٥، دار المعارف، القاهرة، مصر.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، المعروف باسم صحيح مسلم.

المعجمات:

لسان العرب، لابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر،١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي أبي عبد الله بن عبد الله الرومي، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

مواقع الشابكة:

الإمام الشعراوي:
https://www.goodreads.com/quotes/5221565

الدرر السنية، لعلوي بن عبد القادر السقاف:
https://www.dorar.net

الموسوعة الشاملة:
http://islamport.com/w/amm/Web/2573/299.htm

دار الإفتاء الأردنية:
https://www.aliftaa.jo/Question.aspx?QuestionId=512#.YRP85Y7XKUk

موسوعة «ويكيبيديا» (الموسوعة الحرة).

موقع «يوتيوب».

فهرس

المؤلف في سطور

مصطفى كمال الزايد، كاتب وشاعر سوري، ولد في مدينة الميادين (الرحبة) في الجزيرة الفراتية عام ١٩٦٦م، تخصص في الأدب العربي بجامعة حلب، وعمل مدرساً في سورية والسعودية، ثم محرراً في صحيفة الحياة بالرياض، ثم في كليات الغد الدولية.

له عدد من المؤلفات:

١- ترنيمات وتر، ديوان شعري صادر عن دار عكرمة بدمشق ١٩٩٣م.

٢- تطلعات في المنفى، قصيدة مطولة، دار الفارس بمنبج ١٩٩٥.

٣- قراءة في عيون نادر، مرثية أمة، قصيدة مطولة، كتاب إلكتروني.

٤- ملحمتان لعكاظ والمربد، كتاب إلكتروني.

٥- نساء وشعراء وأمراء، كتاب أدبي، دار طويق بالرياض ٢٠٠٤م.

٦- أتمنى أن أكون صحابياً، قصص، دار طويق بالرياض ٢٠٠٣م.

٧- فرص ذهبية، بالاشتراك مع أ. عبد المطلب حمد عثمان، دار طويق بالرياض٢٠٠٦م.

٨- القمع في الإسلام - حقائق مغيبة نسخة إلكترونية:

٩- أخطاء النبي محمد ﷺ بين الوحي والرأي نسخة إلكترونية.

١٠- التصوف السلفي تصالح وتصحيح.

بريد التواصل: alzayd7@gmail.com

مع تحيات



Blx.abook@gmail.com